Bókmenntasjóður
The Icelandic Literature Fund

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

لغز البحيرة المتناقصة

Kleifarvatn (The Draining Lake)

رواية

أرنالدور أندريداسون
Arnaldur Indridason

لغز البحيرة المتناقصة

Kleifarvatn (The Draining Lake)

رواية

أرنالدور أندريداسون

Arnaldur Indriđason

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة رواية
Lake Draining The
IndriÛason Arnaldur تأليف
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Iceland .k ¡ Reykjav ,7 raborgarstig ¯∂ ' Br , ¯∂ Forlagi
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Kleifarvatn :edition Icelandic original the of Title
,Publishing Forlagid with agreement by Published
www.randomhouse.co.uk
2004 , Indridason Arnaldur by © Copyright
All rights reserved
Arabic Copyright © 2014 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
This books has been published with a financial support of

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2210-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: (+971-2) 6345404 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661

بيروت هاتف: (+961–1) 786233 فاكس: (+961–1) 786230

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب
عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

1

وقفت لمدة طويلة تحدق إلى الهيكل العظمي، وكأن وجودها ووجوده في هذا المكان كانا أمرين مستحيلين.

في البداية، اعتقَدتْ أنه خروف آخر غرق في البحيرة، إلى أن اقتربت أكثر وشاهدت الجمجمة نصف المدفونة في قعر البحيرة؛ حينها أدركت أنها تعود إلى هيكل عظمي بشري. كانت الأضلاع بارزة من الرمال، وتحتها كان من الممكن رؤية عظام الحوض والفخذين. كان الهيكل العظمي مستلقياً على جانبه الأيسر، ولهذا كان بوسعها رؤية الجانب الأيمن من الجمجمة، ومحجري العينين الفارغين، وثلاث أسنان في الفك العلوي؛ إحداها كانت محشوّة بحشوة رصاصية كبيرة. وكانت هناك فجوة عريضة في الجمجمة، بحجم علبة عيدان ثقاب، فخطر في بالها أنها ربما تكون ناجمة عن ضربة مطرقة. انحنت وحدَّقت إلى الجمجمة، ثم لامست بتردد الفجوة بإصبعها. كانت الجمجمة مليئة بالرمال.

خطرت المطرقة في ذهنها مجدداً، وارتعدت لتخيُّلها شخصاً يهوي بها على رأس شخص آخر. بيد أن الفجوة كانت أكبر بكثير من أن تكون ناجمة عن ضربة مطرقة. قرَّرت عدم لمس الهيكل العظمي مرة أخرى، ثم أخرجت هاتفها الخلوي واتصلت بالطوارئ.

احتارت في ما يجب عليها قوله؛ فالأمر غير منطقي. هيكل عظمي مدفون في القاع الرملي للبحيرة، وفي مكان بعيد عن الشاطئ. وحتى هي لم تكن في حالتها المثلى، إذ تراودها تخيلات تتعلق بمطارق وعلب ثقاب، وقد وجدت صعوبةً في التركيز. كانت أفكارها تطوف في مختلف أرجاء المكان، وكانت تعاني كثيراً في تجميعها من جديد.

ربما كان الصداع هو السبب في ذلك. فقد أقامت هيئة الطاقة الوطنية عشاءها الراقص السنوي في الليلة السابقة، وكما يحدث في بعض الأحيان، كان لديها الكثير مما يدفعها للشرب. ومع أنها خططت لتمضية النهار في المنزل، إلا أنها غيَّرت رأيها وقصدت البحيرة. لقد أقنعت نفسها بضرورة تفقُّد الأجهزة، فهي عالمة - ولطالما أرادت أن تكون عالمة - وكانت تعرف أن القياسات يجب أن تُراقَب بعناية. لكنها كانت تعاني من صداع حاد، ولم تكن أفكارها منطقية على الإطلاق.

فكَّرتْ في الرجل المضطجع على سريرها، وعرفتْ أنه السبب الذي جعلها تجرُّ نفسها جرّاً إلى البحيرة. فهي لم تشأ التواجد هناك عند

استيقاظه، وأملت ألا تجده في المنزل عندما تعود. لقد رجع معها إلى شقتها بعد الحفلة، لكن حضوره لم يكن ممتعاً كثيراً. ليس أكثر من الآخرين الذين قابلتهم منذ طلاقها. بالكاد تحدَّث حول أي شيء آخر سوى مجموعة أقراصه المدمجة التي واصل الحديث عنها حتى بعد وقت طويل من تجلّيها عن التظاهر بالاهتمام. بعد ذلك، غطَّ في النوم على كرسي في غرفة الجلوس. وعندما استيقظتْ، وجدته نائماً في سريرها، فاغر الفم، ومرتدياً سروالاً داخلياً ضيقاً جداً وجوروباً أسود.

«خدمة الطوارئ». صدح صوتٌ على الجانب الآخر من الخط.

فقالت: «مرحباً، أودُ الإبلاغ أنني وجدت بعض العظام. هنالك جمجمة مع فجوة فيها».

تغضَّن وجهها. يا له من صداع فظيع! من يقول مثل هذا الكلام؟ جمجمة مع فجوة فيها. تذكَّرتْ عبارةً من قصيدة للأطفال حول بنس مع ثقب فيه. أو هل كان شيلينغ؟

سألها الشخص من خدمة الطوارئ: «اسمك من فضلك».

رتَّبتْ أفكارها المشوشة وذكرت اسمها.

«أين هي؟».

«بحيرة كلايفارفاتن. الجانب الشمالي».

«هل أخرجتها إلى السطح بواسطة شبكة صيد؟».

«لا. إنها مدفونة في قاع البحيرة».

«هل أنت غطّاسة؟».

«لا. إنها بارزة من القاع. الأضلاع والجمجمة».

«هل قلت إنها في قعر البحيرة؟».

«أجل».

«إذاً، كيف يمكنك رؤيتها؟».

«إنني أقف هنا وأنظر إليها».

«هل جلبتها إلى منطقة جافة؟».

«لا، لم ألمسها». كذبتْ بصورة فطرية.

صمتَ الصوت في الجهة الأخرى، ثم قال بنبرة غاضبة: «أي نوع من الهراء هذا؟! هل هذه خدعة؟ هل تعرفين ماذا يمكن أن يحصل لك لتضييعك وقتنا؟».

«إنها ليست خدعة. إنني أقف هنا وأنظر إليها».

«إذاً، أنت تستطيعين المشي على الماء، كما أظن؟».

«البحيرة اختفت. لم يعد هناك ماء. القاع فقط حيث يوجد الهيكل العظمي».

«ماذا تعنين بقولك إن البحيرة اختفت؟».

«لم تختفِ كلها، لكنها جافة حيث أقف الآن. إنني عالمة مائيات من هيئة الطاقة. كنت أسجِّل مستوى الماء عندما اكتشفت هذا الهيكل العظمي. توجد فجوة في الجمجمة، ومعظم العظام مدفونة في رمال القاع. ظننت في البداية أنه خروف».

«خروف؟!».

«منذ بضعة أيام وجدنا واحداً غرق منذ سنوات؛ عندما كانت البحيرة تغطي مساحة أكبر».

صمت الصوت مجدداً قبل أن يقول: «انتظري هناك، سأرسل سيارة دورية».

وقفت لبعض الوقت من دون حراك بجانب الهيكل العظمي، ثم مشت إلى الشاطئ، وقاست المسافة. كانت متأكدة بأن العظام لم تكن ظاهرة عندما أخذت القياسات في المكان نفسه منذ أسبوعين؛ وإلا لكانت قد رأتها. لقد انخفض مستوى المياه أكثر من متر منذ ذلك الحين.

كان علماء هيئة الطاقة يفكِّرون في هذا اللغز منذ أن لاحظوا الانخفاض السريع لمستوى مياه بحيرة كلايفارفاتن. لقد نصَّبت الهيئة جهازها الأول لمراقبة سطح الماء في العام 1964 ، وكان تفقُّد القياسات إحدى مهام العلماء. وفي صيف العام 2000 ، بدا كما لو أن جهاز المراقبة قد تعطَّل، وذلك بسبب تصريف كمية غير معقولة من المياه من البحيرة يومياً، كمية تساوي ضعف التصريف الطبيعي.

كانت تتحرَّق لإلقاء نظرة أكثر قرباً إلى الهيكل العظمي، لكنها تصوَّرت أن رجال الشرطة لن يكونوا مسرورين جداً إذا فعلت ذلك. تساءلت إن كان الهيكل العظمي يعود لرجل أو امرأة، وتذكَّرت بشكل غير واضح أنها قرأت ذات يوم - ربما في قصة بوليسية - أن الهيكلين العظميين للرجل والمرأة يكادان يكونان متطابقين، إلا في منطقة الحوض. ثم تذكَّرت شخصاً أخبرها ألا تصدِّق كل ما تقرأه في القصص البوليسية. وبما أن الهيكل العظمي كان مدفوناً في الرمل، فلم يكن بوسعها رؤية الحوض، ثم فكرت أنها لن تعرف الفرق أياً يكن الأمر.

ازداد صداعها شدةً، فجلست على الرمال بجانب العظام. كان صباح يوم أحد، وكانت السيارات تمر بين الحين والآخر عابرةً قرب البحيرة. تخيَّلت

أنها عائلات متوجهة إلى هيرديسارفيك ومن ثم إلى سيلفوغر. فقد كان هذا الطريق طريقاً رئيساً وذا مناظر خلابة، يمرّ عبر الحقل الذي منحته الحمم البركانية خصوبة قل نظيرها. فكَّرت في العائلات الموجودة في السيارات، وتذكَّرت زوجها الذي هجرها منذ أن استبعد الأطباء إمكانية إنجابهما للأطفال معاً. وبعد ذلك بفترة قصيرة تزوَّج مجدداً، وأصبح لديه طفلان جميلان.

أما هي فلم تجد سوى رجل بالكاد تعرفه، ينام بجوربه في سريرها. لقد بات إيجاد رجال لائقين أشد صعوبةً بكثير مع مرور السنين. ومعظمهم كانوا إما مطلّقين مثلها، أو حتى أسوأ من ذلك؛ لم يسبق لهم أن خاضوا غمار علاقة من قبل.

نظرت بحزن إلى الهيكل العظمي، وكادت أن تبكي.

بعد نحو ساعة، اقتربت سيارة شرطة آتية من جهة هافناردفيوردر. لم تكن مسرعة، حيث كانت تشق طريقها ببطء متجهةً نحو البحيرة. كانوا في شهر أيار، وكانت الشمس عاليةً في كبد السماء، وتنعكس على سطح البحيرة المصقول. ظلَّت جالسةً على الرمال مراقبة الطريق إلى أن لوَّحت بيدها للسيارة فتوقفت. ترجَّل شرطيّان ونظرا إليها، ثم تقدما نحوها.

وقفا بالقرب من الهيكل العظمي بصمت لوقت طويل، إلى أن نكز أحدهما ضلعاً بقدمه، ثم قال لزميله: «هل تعتقد أنه كان يصطاد؟».

«أتعني على متن قارب؟».

«أو كان يتنزه هنا».

«توجد فجوة في الجمجمة». قالت ذلك وهي تنقل نظراتها بينهما.

انحنى أحدهما، ثم قال: «صحيح».

فردّ زميله: «لعله سقط من القارب وكسر جمجمته».

فقال الأول: «إنها مليئة بالرمال».

فسأله زميله: «ألا ينبغي علينا إبلاغ قسم التحقيقات الجنائية؟».

فردّ عليه زميله وهو ينظر إلى السماء: «أليس معظمهم موجودين في أميركا في مؤتمر حول الجريمة؟».

هزَّ زميله رأسه موافقاً، ثم وقفا بصمت لبعض الوقت إلى أن التفت أحدهما إليها وقال: «أين ذهب الماء؟».

«هناك عدة نظريات حول الموضوع. ماذا ستفعلان؟ هل يمكنني الذهاب إلى المنزل الآن؟».

بعد أن تبادل الرجلان النظرات دوَّنا اسمها، وشكراها من دون أن

يعتذرا لجعلها تنتظر. لكنها لم تكترث، فهي لم تكن على عجلة من أمرها. كان يوماً جميلاً بجانب البحيرة، وكانت ستستمع به أكثر بصحبة صداعها لو لم تصادف الهيكل العظمي. تساءلت إن كان الرجل قد غادر شقتها أم لا، وتمنَّت ذلك بشدة. كانت تودُّ استئجار فيلم في ذلك المساء، والتكوُّر تحت بطانية أمام شاشة التلفاز.

نظرت إلى العظام والفجوة الموجود في الجمجمة.

لعلها ستستأجر فيلماً بوليسياً جيداً.

2

أبلغ الشرطيان الرقيب المسؤول في هافنارفيوردر بشأن الهيكل العظمي في البحيرة. تطلَّب الأمر منهما بعض الوقت لشرح وجوده في أرض جافة بالرغم من أن المكان يقع وسط البحيرة. اتصل الرقيب بكبير المحققين في مكتب مفوَّض الشرطة، وأبلغه بما اكتشفوه ليعرف إن كانوا سيتولَّون القضية أم لا.

قال كبير المحققين: «هذا شيء يخص لجنة التحقق من الهوّية. أعتقد أنني أعرف الرجل المناسب للمهمة».

«من هو؟».

«لقد أرسلناه في إجازة - لديه إجازات مستحقة لخمس سنوات كما أظن - لكنني أعرف أنه سيكون مسروراً لفعل شيء ما. إنه مهتم بالأشخاص المفقودين، ويحبُّ التنقيب عن الأشياء».

بعد إنهاء المكالمة، رفع كبير المحققين السماعة مجدداً، وطلب الاتصال بإرلندور سفينسون وطلب منه التوجه إلى بحيرة كلايفارفاتن مع فريق صغير من المحققين.

كان إرلندور مستغرِقاً في قراءة أحد الكتب عندما رنّ الهاتف. لقد حاول كل ما بوسعه لحجب شمس أيار القاسية، مغطياً نوافذ غرفة المعيشة بالستائر السميكة، ومغلقاً الباب المؤدي إلى المطبخ، حيث لا توجد ستائر مناسبة. وبفعله ذلك أصبح الجو حوله مظلماً لدرجة أنه اضطر لإنارة المصباح المجاور لكرسيه.

كان إرلندور يعرف القصة جيداً، فقد قرأها مرات عديدة من قبل. وكانت تتحدث عن رحلة جرت في خريف العام 1868 من سكافتارتونغا على الطريق الجبلي شمال كتلة ميردالسيكول الجليدية. وقد سافر في تلك الرحلة عدة أشخاص باتجاه مخيَّم صيد أسماك في جاردار، جنوب غرب آيسلندا، وكان بينهم شاب في السابعة عشرة من عمره يُدعى ديفيد. وبالرغم من أن الرجال كانوا مسافرين متمرِّسين ويعرفون الطريق جيداً، إلا أن عاصفة خطرة هبت بعد انطلاقهم بفترة قصيرة فلم يعد أحد منهم. وبالرغم من إجراء بحث واسع عنهم، إلا أن أحداً لم يعثر لهم على أثر. وبعد عشر سنوات، اكتُشفت هياكلهم العظمية بالصدفة بجانب كثيب رملي ضخم، جنوب كالداكلوف. كان الرجال متدثرين ببطانيات، وراقدين بجانب بعضهم بعضاً.

رفع إرلندور رأسه في العتمة، وتخيَّل ذاك المراهق في المجموعة. تخيَّله خائفاً وقلقاً. يبدو وكأنه كان يعرف المصير الذي سيلقاه في الرحلة قبل سفره، حيث روى بعض المزارعين المحليين أنه وزَّع ألعابه على إخوته وأخواته قائلاً إنه قد لا يعود لاستعادتها.

وقف إرلندور بصعوبة، وهو يضع كتابه جانباً، ثم أجاب على الهاتف.

كانت إيلينبورغ هي المتصلة، وقد سألته من دون مقدمات: «هل ستأتي؟».

فأجابها إرلندور: «هل لدي خيار؟». كانت إيلينبورغ تقوم منذ سنوات عديدة بتأليف كتاب حول طرق إعداد الأطعمة، وبات أخيراً قيد النشر.

«إنني متوترة جداً. كيف سيكون انطباع الناس عنه؟».

أجابها إرلندور: «لا أزال أجد صعوبة في تشغيل المايكروويف، ولهذا فلعلي لست...».

قالت إيلينبورغ: «لقد أحبه الناشرون. وصور الأطباق رائعة. لقد أوصوا بمصور خاص لالتقاطها. وهناك جزء خاص بأطباق الأعياد...».

«إيلينبورغ».

«نعم».

«هل اتصلت بي من أجل شيء محدد؟».

خفّضت إيلينبورغ صوتها عندما تحوَّل الحديث عن كتاب طبخها: «هيكل عظمي في بحيرة كلايفارفاتن. يُفتَرَض بي أن أجلبك. لقد تقلّصت البحيرة أو شيء من هذا القبيل، فوجدوا بعض العظام هناك هذا الصباح. يريدون منك أن تلقي نظرة».

«البحيرة تقلصت!؟».

«أجل. لم أفهم هذا الجزء تماماً».

كان سيغوردور أولي يقف بجانب الهيكل العظمي عندما وصل إرلندور وإيلينبورغ إلى البحيرة. وكان فريق الأدلة الجنائية في طريقه إلى المكان، في حين كان رجال شرطة هافنارفيوردر يدورون حاملين شريطاً أصفر لتطويق المنطقة، واكتشفوا أنهم لم يكونوا يملكون شيئاً لربطه به. راقب سيغوردور أولي محاولاتهم، وفهم لماذا كانت نكات أحمق القرية تحدث دائماً في هافنارفيوردر.

قال لإرلندور بينما كان الأخير يمشي نحوه فوق الرمل الأسود: «ألست في إجازة؟».

«بلى. ماذا كنت تفعل؟».

قال سيغوردور أولي: «الأشياء نفسها». نظر إلى الطريق، فرأى سيارة جيب ضخمة تعود لإحدى المحطات التلفزيونية تركن بمحاذاة الرصيف. «لقد أرسلوها إلى المنزل». أضاف وهو يشير إلى رجال شرطة هافنارفيوردر، «أقصد المرأة التي وجدت العظام. كانت تأخذ بعض القياسات هنا. يمكننا أن نسألها لاحقاً عن سبب انحسار مياه البحيرة. في الظروف الطبيعية، ينبغي أن نكون غارقين حتى أعناقنا في هذه البقعة».

«هل كتفك بخير؟».

«أجل. كيف حال إيفا ليند؟».

قال إرلندور: «لم تهرب بعد. أظن أنها نادمة على الوضع برمته، لكنني لست واثقاً تماماً».

ثم ركع وتفحَّص الجزء المكشوف من الهيكل العظمي. وضع إصبعه في الفجوة الموجودة في الجمجمة ومسح أحد الأضلاع.

قال: «لقد ضُرب على رأسه».

أجابت إيلينبورغ بسخرية: «هذا واضح نوعاً ما».

أدلى سيغوردور أولي بدلوه قائلاً: «يبدو أنه نتيجة عراك، أليس كذلك؟ الثقب يقع فوق الصدغ الأيمن بقليل. لعل الأمر تطلَّب ضربة قوية واحدة فقط».

فردّ إرلندور عليه وهو ينظر إلى إيلينبورغ: «لا يمكننا استبعاد أنه كان وحيداً على متن قارب هنا وسقط عن الحافة. ما هذه النبرة الساخرة يا إيلينبورغ!؟ هل هذا هو الأسلوب الذي تستخدمينه في كتاب طبخك؟».

تحدثت إيلينبورغ متجاهلة سؤاله: «بالتأكيد. لا بد أن قطعة العظم المكسورة قد جُرفت منذ وقت طويل».

قال سيغوردور أولي: «نحن بحاجة لإخراج الهيكل العظمي. متى سيصل خبراء الأدلة الجنائية؟».

شاهد إرلندور المزيد من السيارات تقف بجانب الطريق فافترض أن خبر اكتشاف الهيكل العظمي قد وصل إلى مكاتب إعداد الأخبار في وسائل الإعلام.

سأل من دون أن يبعد عينيه عن الطريق: «ألن يضطروا لنصب خيمة؟».

فأجابه سيغوردور أولي: «لا بد أنهم سيجلبون واحدة».

سألت إيلينبورغ: «أتعني أنه كان يصطاد السمك في البحيرة بمفرده؟».

فردّ عليها إرلندور: «لا، هذا أحد الاحتمالات فقط».

«ولكن، ماذا لو أن شخصاً ما ضربه؟».

علق سيغوردور أولي قائلاً: «عندئذ، لن يكون حادثاً».

قال إرلندور: «لا نعرف ماذا حصل. ربما ضربه شخص ما، وربما كان يصطاد السمك مع شخص آخر وفجأةً أخرج هذا الشخص مطرقة. ربما كانا بمفردهما، وربما كانوا ثلاثة أو خمسة».

أضاف سيغوردور أولي: «أو لعله ضُرب على رأسه في المدينة، وجُلب إلى البحيرة للتخلص من جثته».

فسألت إيلينبورغ: «كيف استطاعوا جعله يغرق؟ أنت بحاجة لثقل لإغراق الجثة».

قال سيغوردور أولي: «هل هو بالغ؟».

قال إرلندور بينما كان يشاهد الصحفيين ينزلون إلى قاع البحيرة من الطريق: «اطلب منهم أن يبقوا بعيداً». اقتربت طائرة من جهة ريكيافيك، وحلّقت على ارتفاع منخفض فوق البحيرة. كان بوسعهم رؤية شخص فيها يحمل كاميرا.

ذهب سيغوردور أولي إلى الصحفيين، في حين سار إرلندور نحو البحيرة. راقب انعكاس أشعة شمس العصر على سطح الماء، والأمواج التي كانت تضرب الرمال بكسل، وتساءل حول ما يحدث. هل البحيرة تجف نتيجة أفعال الإنسان؟ أم يحصل ذلك بفعل الطبيعة؟ بدا الأمر كما لو أن البحيرة نفسها تريد أن تكشف النقاب عن جريمة ما. هل كانت تخفي المزيد من الآثام في المناطق العميقة والمظلمة والهادئة؟

نظر إلى الطريق، فشاهد تقنيين بأردية بيضاء من قسم الأدلة الجنائية يعبرون الرمال بعجلة في اتجاهه. كانوا يحملون خيمة وأكياساً مليئة بمواد خاصة. نظر إلى السماء، فأحس بدفء الشمس على وجهه. لعل الشمس هي التي كانت تجفف البحيرة.

أول شيء اكتشفه فريق الأدلة الجنائية عندما بدأوا بإزالة الرمال عن الهيكل العظمي بملاطاتهم الصغيرة وفراشيهم الناعمة كان حبلاً انزلق بين الأضلاع، ونزل بمحاذاة العمود الفقري، ثم اختفى تحت الهيكل العظمي في الرمال.

كانت العالمة في أمور المياه سونا مكوَّرة تحت بطانية على الأريكة، وهي تشاهد الفيلم الأميركي المثير جامع العظام. لقد رحل الرجل ذو

الجورب الأسود تاركاً وراءه ورقة كُتب عليها رقما هاتف رمتها في المرحاض. قُرع جرس الباب بعد دقائق فقط من بداية الفيلم. كم كانت تتعرض لمثل هذه المقاطعات المزعجة من الباعة المتجولين، أو باعة الأسماك المجففة للمنازل، أو صبية يسألون عن زجاجات فارغة ويقولون كذباً إنها من أجل الدفاع المدني. رنّ الجرس مجدداً، فتردّدت قليلاً ثم تنهَّدت ورفعت البطانية عنها.

وعندما فتحت الباب، وجدت رجلين واقفين أمامها. كان شكل أحدهما لا يسرُّ الناظر، إذ كانت كتفاه مقوّستين، مع حزن غريب مرتسم على وجهه. أما الآخر فكان أصغر سناً وألطف شكلاً بكثير. في الواقع، كان وسيماً.

شاهدها إرلندور تحدق إلى سيغوردور أولي فلم يستطع كبح ابتسامة من الارتسام على وجهه، ثم قال: «يتعلق الأمر ببحيرة كلايفارفاتن».

بعد جلوسهما في غرفة المعيشة، أخبرتهما سونا بما كانت وزملاؤها في هيئة الطاقة يعتقدونه بخصوص تقلص حجم البحيرة.

قالت: «أتذكران الزلزال الكبير الذي حدث جنوب آيسلندا في السابع عشر من حزيران عام 2000؟». أومآ برأسيهما دلالة على التأكيد. «بعد نحو خمس ثوانٍ، ضرب زلزال كبير آخر كلايفارفاتن؛ الأمر الذي ضاعف المعدل الطبيعي لنزوح المياه منها. وعندما بدأت بالتقلُّص، اعتقد الناس أن ذلك كان ناجماً عن انخفاض غير طبيعي في هطول الأمطار والثلوج، ولكن تبيَّن لاحقاً أن الماء كان ينزح عبر شقوق في قعر البحيرة كانت موجودة هناك منذ عصور. من الواضح أنها انفتحت بفعل الزلزال. كانت مساحة البحيرة تبلغ عشرة كيلومترات مربعة، لكنها أصبحت الآن ثمانية تقريباً. وانخفض مستوى المياه بما لا يقل عن أربعة أمتار».

قال إرلندور: «وهكذا وجدتِ الهيكل العظمي».

قالت سونا: «وجدنا عظام خروف عندما انخفض المستوى مترين. لكنه بالطبع لم يكن مضروباً على الرأس».

سألها سيغوردور أولي: «ماذا تقصدين بقولك إنه لم يكن مضروباً على الرأس؟».

نظرت خلسةً إلى يديه بحثاً عن خاتم زواج، ثم قالت: «رأيت فجوة في الجمجمة. هل تعرفان من هو؟».

قال إرلندور: «لا. لا بد أنه احتاج إلى استخدام قارب، أليس كذلك؟ أقصد للوصول إلى تلك البقعة البعيدة في البحيرة».

«إذا كنت تسألني إن كان بالإمكان المشي إلى حيث يوجد الهيكل العظمي، فالجواب هو لا. كان عمق الماء هناك لا يقل عن أربعة أمتار حتى وقت قريب جداً. وإذا حدث الأمر قبل سنوات، وهو ما لا ليس لي به علم بالطبع، فلا بد أن المياه كانت أكثر عمقاً».

سألها سيغوردور أولي: «أيعني ذلك أنهم كانوا على متن قارب؟ هل توجد قوارب تجوب تلك البحيرة؟».

أجابت سونا وهي تحدق إلى عينيه الزرقاوين الغامقتين الجميلتين تحت حاجبيه الرقيقين: «هنالك بيوت في الجوار. قد توجد بعض القوارب هناك. لم أرَ مطلقاً قارباً في البحيرة».

ليتنا نستطيع التجذيف معاً إلى مكان ما، فكَّرت سونا في سرّها. وفي تلك اللحظة، رنَّ هاتف إرلندور الخلوي. كانت إيلينبورغ هي المتصلة.

قالت: «ينبغي أن تأتيا إلى هنا».

«ماذا حدث؟».

«تعاليا وانظرا. إنه شيء مذهل تماماً. لم أرَ شيئاً مثله قط».

3

وقف وشغّل التلفاز كي يشاهد الأخبار. كان هناك تقرير مطوَّل حول الهيكل العظمي المكتشَف في بحيرة كلايفارفاتن، ويتضمن مقابلة مع محقق أفاد أن تحقيقاً شاملاً سيجري في القضية.

مشى نحو النافذة، ونظر إلى البحر. شاهد على الرصيف أمامه ثنائياً كانا يمشيان بجانب منزله كل مساء، الرجل يتقدم المرأة ببضع خطوات كالعادة، والمرأة تحاول اللحاق به. كانا يتحدثان أثناء المشي؛ هو يتحدث من فوق كتفه، وهي تتحدث من وراء ظهره. لقد توقفا منذ وقت طويل عن الانتباه إلى ما يحيط بهما، وذلك لأنهما كانا يمشيان على هذا الطريق منذ سنوات. في الماضي، كانا ينظران بين الحين والآخر إلى المنزل والمباني الأخرى المطلَّة على الشارع المحاذي للبحر، وإلى الحدائق. وفي بعض الأحيان، كانا يتوقفان للتمعُّن بإعجاب في عمل جديد كان يُنفَّذ على الأسوار والشرفات. كانا دائماً يقومان بنزهتهما معاً، إما عصراً أو مساءً؛ مهما كانت حال الطقس، أو أياً كان الفصل.

شاهد سفينة شحن كبيرة في الأفق. كانت الشمس لا تزال في كبد السماء، بالرغم من أن المساء قد حلّ منذ بعض الوقت. كانت الفترة الأشد سطوعاً في السنة تقترب، قبل أن يبدأ النهار بالقصر تدريجياً إلى أن يختفي تماماً. كان فصل ربيع جميلاً. لقد شاهد طيور الزقزاق الذهبية الأولى التي وصلت إلى البلد مع رياح الربيع الآتية من أوروبا خارج منزله في منتصف نيسان.

عندما أبحر خارج البلد للمرة الأولى كان الوقت أواخر الصيف. لم تكن سفن الشحن ضخمة جداً في تلك الأيام، ولم تكن تحمل حاويات. تذكَّر العمّال وهم ينقلون أكياساً تزن خمسين كيلوغراماً من مكان لآخر في مخزن السفينة. تذكَّر قصص تهريباتهم. كانوا يعرفونه من عمله الصيفي في الميناء، وكانوا يستمتعون بإخباره عن أساليبهم في خداع موظفي الجمارك. بعض حكاياتهم كانت غير قابلة للتصديق؛ لدرجة تجعله يعرف يقيناً أنهم كانوا يختلقونها. وبعضها الآخر كانت مشوبة بالتوتر والإثارة؛ حيث لم يكونوا بحاجة إلى اختلاق أية تفاصيل. وكانت هناك قصص لم يكن يُسمَح له بسماعها، بالرغم من أنهم كانوا واثقين بأنه لن يخبر أحداً بها.

نظر مجدداً إلى التلفاز، وشعر كما لو أنه أمضى حياته بأكملها في انتظار هذا التقرير في الأخبار.

كان اشتراكياً منذ نعومة أظفاره؛ مثل جميع أفراد عائلته من الطرفين. لم يسمع بشيء اسمه اللامبالاة السياسية، ونشأ على مقت المحافظين. كان والده منخرطاً في الحركة العمّالية منذ العقود الأولى من القرن العشرين. وكانت السياسة موضوعاً ثابتاً للنقاش في المنزل، وكانوا يكرهون على وجه الخصوص القاعدة العسكرية الأميركية في كافلافيك، التي قبلت بها الطبقة الرأسمالية الآيسلندية بابتهاج. كان الرأسماليون الآيسلنديون هم أكثر المستفيدين من الجيش.

ثم تذكَّر المجموعة التي كان يلازمها دائماً؛ أصدقاءه المنتمين لخلفيات تشبه خلفيته. كانوا ثوريين متشددين، وكان بعضهم متحدثين مفوَّهين. كان يذكر الاجتماعات السياسية جيداً. تذكَّر الشغف، والمناقشات الحماسية. كان يحضر الاجتماعات مع أصدقائه الذين كانوا مثله يجدون أنفسهم في الحركة الشبابية للحزب، وكان يصغي لانتقاد زعيمهم العنيف للأثرياء الذين كانوا يستغلون طبقة البروليتارية، والقوات الأميركية التي كانت تضعهم في جيبها. لقد سمع هذا الكلام مراراً وتكراراً بالإيمان الثابت والصادق نفسه. كل ما كان يسمعه كان يثير إلهامه، لأنه تربّى كوطني آيسلندي واشتراكي متشدد لم يشك للحظة واحدة في آرائه. كان واثقاً بأن الحقيقة كانت إلى جانبه.

من المواضيع المتكررة في اجتماعاتهم الوجود الأميركي في كافلافيك، والخدع التي استخدمها الجشعون الآيسلنديون من أجل السماح لقاعدة عسكرية أجنبية بالتواجد على التراب الآيسلندي. كان يعرف كيف بيع البلد للأميركيين كي يستفيد الرأسماليون منهم؛ مثل الطفيليات. كان مراهقاً عندما اندفع خدم الطبقة الحاكمة من داخل مبنى البرلمان بالغاز المسيل للدموع والهراوات وضربوا المحتجّين على انضمام آيسلندا إلى الناتو؛ وكان من بين أولئك المحتجين. وكان الاشتراكيون الشبّان مزوَّدين بما يكفي من الشعارات القوية: الخونة تابعون مطيعون للإمبريالية الأميركية! نحن نرزح تحت الجزمة العسكرية للرأسمالية الأميركية!

وكان هو نفسه ينتمي للجماهير المضطهدة. لقد جرفته الحماسة والفصاحة والفكرة العادلة التي تقول إن جميع الناس ينبغي أن يكونوا متساوين. ينبغي على المدراء أن يعملوا جنباً إلى جنب مع العمال ليسقط النظام الطبقي. كانت ثقته بالاشتراكية صادقة وراسخة. وكان يشعر بالحاجة إلى خدمة القضية، ولإقناع الآخرين، وللدفاع عن المحرومين والعمال والمضطهدين.

استفيقوا أيها العمال من رقادكم...

كان يشارك بفعالية في النقاشات التي كانت تدور خلال الاجتماعات، ويقرأ ما تنصح به الحركة الشبابية. فالمكتبات كانت تزخر بالكثير مما كان يريد قراءته. كان يريد ترك بصمته الخاصة. وفي صميم قلبه، كان واثقاً بأنه على حق. إن الكثير مما سمعه من الحركة الاشتراكية الشبابية ملأه بحس العدالة.

بصورة تدريجية، تعلَّم الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالمادية الديالكتيكية، والصراع الطبقي بصفته عربة التاريخ، والرأسمالية والطبقة البروليتارية، ودرَّب نفسه على زخرفة مفرداته بعبارات اقتبسها من مفكِّرين ثوريين عظماء مع تعاظم قراءاته وتنامي حافزه. ولم يمضِ وقت طويل حتى تفوق على رفاقه في النظرية الماركسية والخطابة، ولفت أنظار قادة الحركة الشبابية. كان في الثامنة عشرة عندما سُئل إن كان يريد الانضمام إلى اللجنة الحزبية. لقد أسسوا مجموعة في مدرسته دُعيت «الراية الحمراء». وقد كان الوحيد من بين أربعة أشقاء الذي استفاد من التعليم؛ استناداً إلى قرار والده. ولهذا السبب كان يشعر دائماً بالامتنان لوالده.

بالرغم من كل شيء.

كانت الحركة الشبابية تنشر عريضة دعائية وتعقد اجتماعات دورية، كما دُعي رئيسها إلى موسكو مرةً وعاد محمَّلاً بالقصص حول حالة العمال هناك. يا للتطور الرائع! كان الناس في غاية السعادة. كانت كل احتياجاتهم مؤمَّنة. وكان الاقتصاد المركزي والتعاونيات تَعِدُ بتطور غير مسبوق. لقد فاقت إعادة الإعمار التي تلت الحرب كل التوقعات، وانتشرت المصانع التي تمتلكها وتديرها الدولة، بواسطة الناس أنفسهم. وكان يجري بناء مناطق سكنية جديدة في الضواحي، وجميع الخدمات الطبية مجانية. كل شيء قرأوه، وكل شيء سمعوا به كان صحيحاً. كل كلمة منه.

وبالمقابل، ذهب آخرون إلى الاتحاد السوفييتي، وتحدثوا بعد عودتهم عن تجربة مختلفة تماماً. لكن الاشتراكيين الشبان لم يتأثروا بذلك الكلام. كان المنتقدون خَدَماً للرأسمالية. لقد خانوا القضية: الصراع من أجل مجتمع عادل.

نجحت الراية الحمراء في ضم المزيد والمزيد من الأعضاء إليها. وكانت اجتماعاتها تغص بالحاضرين. انتُخب بالإجماع رئيساً للمجموعة، ولفت بسرعة أنظار كبار المسؤولين في الحزب الاشتراكي. وفي سنته الأخيرة في المدرسة، بات واضحاً أنه كان مشروع قائد مستقبلي.

ابتعد عن النافذة، وسار نحو الصورة المعلّقة فوق البيانو، والتي التُقطت في حفل التخرج من المدرسة. نظر إلى الأوجه تحت القبعات البيضاء التقليدية. الطلاب الذكور أمام مبنى المدرسة يرتدون بذلات سوداء، والفتيات يرتدين أثواباً. كانت قبعاتهم البيضاء تلمع تحت الشمس المتوهجة. كان ثاني أفضل طالب في ذلك العام. مسَّد الصورة بيده. كان يحنُّ لتلك السنين، ويفتقد ذاك الزمن حين كان اعتقاده قوياً لدرجة أن شيئاً لم يكن باستطاعته كسره.

في سنته الأخيرة في المدرسة، عُرض عليه عمل في صحيفة الحزب. وكان قد عمل في عطلته الصيفية في الميناء، وتعرَّف على الحمّالين وعمال السفن، وتحدث معهم في السياسة، غير أن الكثيرين منهم كانوا رجعيين صريحين؛ حيث أسموه «الشيوعي». كان مهتماً بالصحافة، ويعرف أن الصحيفة تمثِّل أحد أعمدة الحزب. قبل أن يبدأ بالعمل هناك، أخذه رئيس الحركة الشبابية إلى منزل نائب القائد. وهناك جلس في غرفة المعيشة الصغيرة واستمع لنائب القائد النحيل، الجالس على كرسي وثير ذي مسندين وهو يخبرهما - بينما كان يمسح نظارته بمنديل - عن تأسيس دولة اشتراكية في آيسلندا. كل شيء قاله بصوته الرقيق كان صحيحاً وحقيقياً؛ لدرجة أن قشعريرة سرت عبر عموده الفقري أثناء جلوسه هناك، ملتهماً كل كلمة يسمعها.

كان طالباً موهوباً. جميع المواد، سواء أكانت مادة التاريخ أم الرياضيات أم أي مادة أخرى، كانت سهلة بالنسبة إليه. وأية معلومة تدخل ذهنه كان يحتفظ بها من أجل الاستدعاء الفوري. وقد عادت ذاكرته الممتازة وموهبته في الدراسة عليه بالفائدة في ميدان الصحافة، إذ كان سريع التعلُّم. كان يعمل ويفكر بسرعة فائقة، وكان قادراً على إجراء مقابلات طويلة من دون الحاجة لتدوين أكثر من بضع جمل. كان يعرف أنه لم يكن صحفياً محايداً، لكن الجميع كانوا كذلك في تلك الأيام.

كان يخطط للتسجّل في جامعة آيسلندا في ذلك الخريف، لكنهم طلبوا منه البقاء في الصحيفة للشتاء، ولم يكن بحاجة للتفكير مرتين. في منتصف الشتاء، دعاه نائب القائد إلى منزله. كان الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية يقدم أماكن لعدة طلاب آيسلنديين في جامعة لايبزيغ، وإذا قبِل بذلك فسيكون مضطراً لشق طريقه بنفسه هناك، لكنهم سيؤمِّنون له المسكن

والطعام.

كان يريد الذهاب إلى أوروبا الشرقية أو الاتحاد السوفييتي كي يرى بنفسه إعادة البناء بعد الحرب. كان يريد السفر، واكتشاف ثقافات مختلفة، وتعلُّم لغات أخرى. كان يريد رؤية الاشتراكية تُنفَّذ على أرض الواقع. كان يفكر مسبقاً في التقدّم لجامعة موسكو، ولم يكن قد حزم أمره بعد عندما زار نائب القائد. بينما كان يمسح نظارته، قال نائب القائد إن الدراسة في لايبزيغ تمثل فرصة فريدة بالنسبة إليه لمشاهدة طريقة عمل الدولة الشيوعية والتدرُّب على خدمة بلده بصورة أفضل.

وضع نائب القائد نظارته، ثم أضاف: «وخدمة القضية. سوف تحب العيش هناك. لايبزيغ مدينة تاريخية، ولها روابط مع الثقافة الآيسلندية. لقد زار هالدر لاكسنس صديقه الشاعر يوهان جونسون هناك. ونُشرت مجموعة الحكايات الشعبية لجون آرناسون بواسطة هينريش فيرلاغ في لايبزيغ عام 1862».

هز برأسه مؤيداً. لقد قرأ كل ما كتبه لاكسنس حول الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وأُعجب بقدرته الفائقة على الإقناع.

خطرت له فكرة الذهاب بواسطة سفينة وشق طريقه بنفسه. لم يكن تأمين العبور صعباً، فعمُّه كان يعرف شخصاً في شركة الشحن. كانت عائلته تشعر بسرور غامر؛ إذ لم يسبق لأي فرد منها أن سافر إلى الخارج؛ من دون أن نذكر الدراسة في بلد آخر. لقد كتبوا لبعضهم بعضاً، واتصلوا هاتفياً لمناقشة الخبر الرائع. كانوا يقولون: «سوف يصبح شخصاً مهماً... لن يدهشني إذا انتهى به الأمر في الحكومة!».

كانت جزر الفارو أول محطة ينزل فيها، وبعد ذلك كوبنهاغن، ثم روتردام، فهامبورغ. ومن هناك استقل القطار إلى برلين، وقضى الليلة في محطة القطار. وفي منتصف ظهر اليوم التالي، استقل قطاراً متجهاً إلى لايبزيغ. كان يعرف أن أحداً لن يكون في استقباله هناك. لكنه كان يحمل عنواناً مكتوباً على ورقة موضوعة في جيبه، وقد سأل حول الاتجاهات عند وصوله إلى وجهته المقصودة.

تنهَّد بعمق بينما كان واقفاً أمام صورة المدرسة، وهو ينظر إلى وجه صديقه من لايبزيغ. كانا في الصف نفسه في المدرسة. ليته كان يعرف بما سيحصل!

تساءل إن كانت الشرطة ستكتشف الحقيقة حول الرجل في البحيرة.

وواسى نفسه بأن ما حدث وقع منذ وقت طويل ولم يعد مهماً.
لم يعد هناك أحد يكترث للرجل الميت في البحيرة.

4

كان فريق الأدلة الجنائية قد نصب خيمة فوق الهيكل العظمي. وكانت إيلينبورغ تقف خارجها عندما شاهدت إرلندور وسيغوردور أولي يهرعان نحوها عبر قاع البحيرة الرملي. لقد غادرت جميع وسائل الإعلام في تلك الساعة المتأخرة من المساء، واستعادت المنطقة المحيطة بالبحيرة هدوءها مجدداً بعد أن كانت تغص بحركة المرور؛ إثر انتشار خبر الاكتشاف.

قالت إيلينبورغ بينما كانا يقتربان: «لطف منكما أن تجدا الوقت للقدوم».

قال إرلندور بانزعاج: «اضطر سيغوردور للتوقف على الطريق من أجل ابتياع برغر. ماذا يجري؟».

قالت وهي تفتح الخيمة: «تعاليا معي. أخصائية الأمراض هنا».

نظر إرلندور إلى البحيرة في هدوء المساء، وفكَّر في الشقوق المنتشرة في قعرها. كانت الشمس لا تزال في السماء، وكان المكان مضاءً تماماً بضوء النهار. ثم حدَّق إلى السحابة البيضاء الموجودة فوقه تماماً، متأمّلاً باستغراب في حقيقة أن البحيرة كانت ذات يوم بعمق أربعة أمتار حيث كان يقف الآن.

أصبح بوسعهم حينئذ رؤية الهيكل العظمي بأكمله بعد أن أخرجه فريق الأدلة الجنائية من تحت الرمال. لم تكن هناك أي قطعة لحم أو خرقة قماش باقية عليه. كانت هناك امرأة في الأربعين من عمرها تقريباً راكعة بجانبه، تنقر على الحوض بقلم رصاص أصفر.

قالت: «إنه ذكر. وهو متوسط الطول وربما متوسط العمر، لكنني بحاجة إلى التحقق من ذلك بدقة أكبر. لا أعرف كم مضى على وجوده في الماء، ربما مضت أربعون أو خمسون عاماً، وربما أكثر من ذلك. لكنه مجرد تخمين. يمكنني أن أكون أكثر دقةً حالما أنقله إلى المشرحة من أجل دراسته بشكل صحيح».

وقفت وحيَّتهما. كان إرلندور يعرف أن اسمها ماتيلدر، وأنها عُيِّنت كأخصائية أمراض منذ فترة قريبة. كان يتوق ليسألها حول السبب الذي دفعها للتحقيق في الجرائم. لماذا لم تصبح مجرد طبيبة مثل الآخرين وتستفيد من الخدمة الصحية؟

سألها إرلندور: «هل ضُرب على الرأس؟».

أجابت ماتيلدر: «يبدو ذلك. ولكن، من الصعب التأكد من نوع الأداة

المستخدَمة. جميع العلامات حول الثقب اختفت».

سألها سيغوردور أولي: «هل نتحدث عن جريمة مقصودة؟».

أجابته ماتيلدر: «جميع الجرائم مقصودة. لكن بعضها أغبى من الأخرى فقط».

قالت إيلينبورغ التي كانت تصغي للحديث: «ما من شك في أنها جريمة».

انحنت فوق الهيكل العظمي، وأشارت إلى حفرة كبيرة في الأسفل حفرها خبراء الأدلة الجنائية. اقترب إرلندور منها، وشاهد داخل الحفرة صندوقاً معدنياً كبيراً مربوطاً بحبل مع الهيكل العظمي. وبالرغم من أن معظمه كان لا يزال مدفوناً في الرمال، ولكن كان بوسعهم رؤية ما بدا أنه مقابض تحكم سوداء وأزرار سوداء. كان الصندوق مخدوشاً ومفتوحاً وفي داخله رمال.

سأل سيغوردور أولي: «ما هذا؟».

أجابته إيلينبورغ: «الله أعلم. لكنه استُخدم لإغراقه».

سأل إرلندور بدوره: «هل هو نوع من أجهزة القياس؟».

أجابته إيلينبورغ: «لم أرَ شيئاً مثله من قبل. قال خبراء الأدلة الجنائية إنه جهاز إرسال لاسلكي قديم. لقد ذهبوا ليجدوا شيئاً يأكلوه».

سأل إرلندور: «جهاز إرسال! أي نوع من أجهزة الإرسال؟».

«إنهم لا يعرفون. يحتاجون إلى إخراجه أولاً لتحديد ذلك».

نظر إرلندور إلى الحبل المربوط حول الهيكل العظمي، وإلى الصندوق الأسود المستخدَم لإغراق الجثة. تخيَّل رجالاً يُخرجون الجثة من داخل سيارة، ويوثقونها بجهاز إرسال، ويضعونها على متن قارب، ويجذفون إلى داخل البحيرة، ثم يلقونها مع الصندوق في المياه.

ثم قال: «إذاً، لقد أُغرق؟».

ردَّ سيغوردور أولي على الفور: «يستحيل أن يكون قد فعل ذلك بنفسه. لا يمكن أن يجذف إلى داخل البحيرة، ويربط نفسه بجهاز إرسال، ويرفعه، ويسقط على رأسه، ثم يهتم بالوقوع في البحيرة كي يضمن اختفاءه. ذلك سيكون أسخف حادث انتحار في التاريخ».

قال إرلندور محاولاً احتواء انزعاجه من سيغوردور أولي: «هل تظنين أن جهاز الإرسال ثقيل؟».

أجابت ماتيلدر: «يبدو ثقيلاً حقاً بالنسبة إليّ».

قالت إيلينبورغ: «هل ثمة فائدة من تمشيط قعر البحيرة بحثاً عن

أداة الجريمة؟ بواسطة كاشف المعادن، إن كانت مطرقة، أو شيئاً يشبه ذلك؟ ربما تكون قد رُميت مع الجثة».

قال إرلندور وهو يقرفص بجانب الصندوق الأسود: «سيهتم فريق الأدلة الجنائية بذلك». ومسح الرمال عن الصندوق.

قال سيغوردور أولي: «لعله كان من هواة الأجهزة اللاسلكية».

سألتهما إيلينبورغ: «هل ستأتيان إلى حفل توقيع كتابي؟».

فأجابها سيغوردور أولي: «ألا يتوجب علينا فعل ذلك؟».

«لن أرغمكما».

استفسر إرلندور: «ما عنوان الكتاب؟».

أجابته إيلينبورغ: «أكثر من مجرد حلويات. إن المعنى مجازي، فيه لعب على الكلمات. فقط حلويات - فهمت؟ - وليست مجرد حلويات...».

«هذا مسلٍّ جداً». قال إرلندور وهو ينظر باندهاش إلى سيغوردور أولي الذي كان يحاول كبت ضحكته.

كانت إيفا ليند تجلس قبالته على المقعد، طاويةً ساقيها تحتها، ومرتديةً ثوباً أبيض، وتلفُّ بشرود شعرها حول سبّابتها، دائرةً بعد أخرى، كما لو أنها مُنوَّمةٌ مغناطيسياً. في العادة، لم يكن يُسمَح للمرضى المقيمين باستقبال الضيوف، لكن إدارة المشفى كانت تعرف إرلندور جيداً فلم تعترض عندما طلب رؤيتها. جلسا بصمت لفترة طويلة بعض الشيء. كانا جالسين في غرفة جلوس المرضى المقيمين المزينة جدرانها بصور كبيرة تحذِّر من إساءة استخدام الأدوية.

«أما زلت ترى تلك العجوز المترهلة؟». سألته إيفا، وهي تعبث بشعرها.

أجابها إرلندور: «توقفي عن مناداتها بالعجوز المترهلة. فالجيردر أصغر مني بسنتين».

«صحيح، عجوز مترهلة. أما زلت تراها؟».

«أجل».

«و... هل تأتي إلى منزلك؟».

«لقد فعلتْ ذلك، مرةً واحدة».

«أنتما تتقابلان في الفنادق».

«شيء من هذا القبيل. كيف حالك؟ سيغوردور أولي يرسل لك تحياته، ويقول إن كتفه تتحسَّن».

«لقد أخطأت. كنت أريد إصابته على رأسه».

«يمكنك حقاً أن تكوني غبيةً جداً في بعض الأحيان».

«هل تركتْ زوجها؟ إنها لا تزال متزوجة، أليس كذلك؟ فالجيردر تلك».

«هذا ليس شأنك».

«إذاً، هي تخونه. أي إنك تمرح مع امرأة متزوجة. ما هو شعورك حيال ذلك؟».

«لا. وهذا ليس شأنك. وكفِّي عن استخدام هذه اللغة القذرة!».

«هل أنت متأكد؟».

«ألا يُفترَض أنك تتناولين الأدوية هنا؟ لعلاج غضبك؟».

وقفَ فلاحقته بعينيها، ثم قالت: «لم أطلب منك أن تضعني هنا. لم أطلب منك التدخُّل في حياتي. أريدك أن تتركني وحدي؛ وحدي تماماً».

خرج من الغرفة من دون أن يودّعها.

صاحت من ورائه، وهي لا تزال تعبث بشعرها: «بلِّغ تحياتي لتلك العجوز المترهلة». ثم أضافت بصوت هامس: «بلِّغ تحياتي لتلك العجوز المترهلة المنحطة».

ركن إرلندور سيارته خارج المبنى الذي يقطن فيه، ودخل إلى بيت السلَّم. وعندما وصل إلى طابقه، لاحظ شاباً هزيلاً وطويل الشعر يقف بجانب الباب ويدخِّن. لم يستطع إرلندور تمييز وجهه لأن الجزء العلوي من جسده كان مغطى بالظل. في البداية، ظنَّ أنه مجرم جاء ليكمل عمله معه. فقد كانوا يتَّصلون به أحياناً عندما يكونون ثملين، ويهدِّدونه بسبب انتهاكه حياتهم البائسة بطريقة أو بأخرى.

قوَّم الشاب وقفته عندما شاهد إرلندور قادماً.

«هل يمكنني المكوث عندك؟». سأله والحيرة بادية عليه بشأن ما يجب عليه فعله بعقب سيجارته. لاحظ إرلندور عقبين آخرين على السجادة.

«من أنـ...؟».

«سيندري». قال الشاب وهو يتقدم خطوة مبتعداً عن الظلال. «ابنك. ألم تعرفني؟».

سأل إرلندور باندهاش: «سيندري؟».

أجابه سيندري: «لقد عدت إلى المدينة، وفكَّرت في البحث عنك».

كان سيغوردور أولي في الفراش بجانب بيرجثورا عندما رن الهاتف. نظر إلى اسم المتصل، وعندما عرفه، قرَّر ألا يجيب. وعند الرنّة السادسة وكزته بيرجثورا بيدها.

ثم قالت: «ارفع السماعة. سيفيده التحدث إليك، فهو يعتقد أنك تساعده».

قال سيغوردور أولي: «لن أدعه يعتقد أنه يستطيع الاتصال بمنزلي في منتصف الليل».

«هيا». قالت وهي تمد يدها فوقه من جانبها من السرير.

رفعت السماعة وقالت: «أجل، إنه هنا. لحظة فقط».

أعطت سيغوردور أولي السماعة، وقالت مبتسمة: «إنه لك».

قال صوت من الطرف الآخر من الخط: «هل كنت نائماً؟».

«أجل. طلبت منك عدم الاتصال بي في المنزل. لا أريدك أن تفعل ذلك مجدداً».

قال الصوت: «أنا آسف. لا أستطيع النوم. أتناول أدوية ومهدئات وأقراصاً منوِّمة لكنّ أياً منها لا يؤثر بي».

قال سيغوردور أولي: «لا يمكنك الاتصال بي متى شئت».

أجابه الرجل: «آسف. أشعر أنني لست بخير».

فرد عليه سيغوردور أولي: «لا بأس».

فخاطبه الرجل: «مضت سنة. حتى اليوم».

أجابه سيغوردور أولي: «أجل، أعرف».

فرد الرجل: «سنة كاملة من الجحيم».

قال سيغوردور أولي: «حاولْ عدم التفكير في الأمر. حان الوقت للتوقف عن تعذيب نفسك بهذه الطريقة. هذا لا يساعدك».

قال الرجل: «من السهل عليك قول ذلك».

قال سيغوردور أولي: «أعرف. ولكن، حاولْ فقط».

سأله الرجل: «بماذا كنت أفكر مع تلك الفراولات (*strawberries*) اللعينة؟».

خاطبه سيغوردور أولي وهو يهز رأسه وينظر إلى بيرجثورا: «لقد قلنا هذا الكلام ألف مرة. إنه لم يكن خطأك. توقف عن تعذيب نفسك».

ردّ الرجل: «بالتأكيد كان خطئي. بالتأكيد كان خطئي. كله كان خطئي».

ثم أنهى المكالمة.

5

نظرت المرأة إليهما بالتناوب، ثم رسمت ابتسامة صغيرة على وجهها ودعتهما للدخول. دخلت إيلينبورغ أولاً، فيما أغلق إرلندور الباب خلفه. لقد اتصلا بها مسبقاً، ولهذا وضعت المرأة بعض الكعك الدائري وكيك الصويا على الطاولة، فيما كانت رائحة القهوة تفوح من المطبخ. كان المنزل يقع في ضاحية بريدهولت. عرفت إيلينبورغ من حديثها مع المرأة عبر الهاتف أنها تزوجت مجدداً، وأن ابنها من الزواج السابق يدرس لنيل شهادة عليا في الطب في الولايات المتحدة، كما أنجبت ولدين آخرين من زوجها الثاني. ومن شدة اندهاشها، أخذت إجازة من العمل لفترة بعد الظهر لكي تقابلها وإرلندور في المنزل.

سألت وهي تشير إليهما بالجلوس: «هل هو من عثرتم على هيكله العظمي؟». كان اسمها كريستين، وكانت فوق الستين، وقد زاد وزنها مع العمر. لقد سمعتْ في الأخبار حول الهيكل العظمي الذي وُجد في بحيرة كلايفارفاتن.

أجابها إرلندور: «لا نعرف. نعلم أنه ذكر، لكننا ننتظر فحصاً أكثر دقةً لمعرفة عمره».

مضت بضعة أيام على اكتشاف الهيكل العظمي، وقد أُرسلت بعض العظام إلى التحليل الكربوني، لكن أخصائية الأمراض استخدمت طريقة أخرى أيضاً؛ الأمر الذي دفع إيلينبورغ إلى الاعتقاد أن ذلك يمكن أن يسرِّع النتائج.

سألها إرلندور: «يسرِّع النتائج! كيف؟».

«إنها تستخدم صاهر الألمنيوم في ستراومسفيك».

«الصاهر؟».

«إنها تدرس تاريخ التلوث منه. وهذا يتعلق بثاني أوكسيد الكبريت والفلوراید وأشياء من هذا القبيل. هل سمعت بذلك؟».

«لا».

«تنبعث كمية معينة من ثاني أوكسيد الكبريت في الجو، وتسقط على الأرض والبحر. لقد وُجد في بحيرات قريبة من الصاهر، كلايفارفاتن. لقد قلَّلوا الكمية الآن باتباع مراقبة تلوُّث محسَّنة. قالت إنها وجدت أثراً في العظام. وفي تخمين مؤقت جداً تقول إن الجثة رُميت في البحيرة قبل عام 1970».

«تقريباً؟».

«خمس سنوات قبل أو بعد».

في هذه المرحلة، تركَّز التحقيق المرتبط بالهيكل العظمي حول ذكور اختفوا بين 1960 و1975. وكانت هناك خمس حالات في آيسلاندا كلها. خمسة أشخاص عاشوا في ريكيافيك أو بجوارها.

كان زوج كريستين الأول واحداً منهم، وهي نفسها التي أبلغت عن اختفائه. لقد قرأ المحققون الملفات. ذات يوم لم يعد من العمل. كانت قد أعدَّت له الغداء، وكان ابنهما يلعب على الأرض. حمَّمت الصبي ووضعته في السرير ثم رتَّبت المطبخ. وبعد ذلك جلست وانتظرت. كانت ستشاهد التلفاز لولا أنه في تلك الأيام لم يكن هناك بث أيام الخميس.

حدث هذا في خريف العام 1969. كانوا يعيشون في شقة صغيرة اشتروها قبل فترة قصيرة. كان يعمل وكيلاً عقاريًّا، وكان يكسب منه مالاً لا بأس به. عندما تقابلا، كانت قد أنهت لتوها دراستها في كلية التجارة. وبعد سنة واحدة تزوَّجا وأنجبا ابنهما. كان زوجها يحبه حباً جماً.

«لهذا السبب لم أستطع فهم ذلك». قالت كريستين موزعةً نظراتها بينهما.

شعر إرلندور أنها كانت لا تزال تنتظر الزوج الذي اختفى بشكل مفاجئ وغير مبرر من حياتها. تخيَّلها تنتظره وحدها في كآبة الخريف، وتتصل بالأشخاص الذين كانوا يعرفونه، وبأصدقائهما، وبأفراد العائلة الذين تجمَّعوا بهدوء في الشقة في الأيام التالية لمنحها القوة والمساندة في محنتها.

«كنا سعيدين، وكان ابننا الصغير بيني قرَّة أعيننا. حصلتُ على عمل في غرفة التجارة، وعلمت أن زوجي كان يبلي بلاءً حسناً في عمله. إذ كان يعمل في وكالة عقارية كبيرة، وكان بائعاً عظيماً. لم يكن جيداً جداً في الجامعة، فتركها بعد عامين، لكنه عمل بجد، وأعتقد أنه كان سعيداً في حياته. لم يوحِ لي بعكس ذلك قطّ».

صبَّت القهوة في فنجانيهما.

استأنفت كريستين كلامها: «لم ألاحظ أي شيء غير عادي في اليوم الأخير. ودَّعني في الصباح، واتصَّل بي في وقت الغداء فقط كي يلقي عليَّ التحية، وأيضاً كي يخبرني أنه سيتأخر قليلاً. وذلك كان آخر شيء أسمعه منه».

قالت إيلينبورغ: «ولكن، ألم يكن يعاني من مشاكل في العمل، حتى لو لم يخبرك بذلك؟ لقد قرأنا التقارير و...».

«كانت ستجري عملية إنهاء عمل بعض الموظفين. لقد أُبلغ بذلك قبل بضعة أيام لكنه لم يكن يعرف من بالضبط. ثم اتصلوا به في ذلك اليوم وأخبروه أنهم لم يعودوا بحاجة إليه. أخبرني المالك بذلك لاحقاً. قال إن زوجي لم يُظهر أي رد فعل حيال فصله، لم يحتجَّ، ولم يطلب تفسيراً، بل عاد إلى مكتبه وجلس وراء طاولته وحسب. لم يردّ».

سألتها إيلينبورغ: «ألم يتصل بك لإخبارك؟».

أجابت: «لا». أحسَّ إرلندور بأن الحزن لا يزال يكتنفها. «كما أخبرتكما، لقد اتصل لكنه لم يقل كلمة حول فقدانه عمله».

سألها إرلندور: «لماذا فُصل؟».

«لم أحصل قطّ على إجابة مقنعة عن هذا السؤال. أعتقد أن المالك أراد إظهار تعاطفه أو اهتمامه عندما أخبرني بذلك. قال إنهم كانوا بحاجة إلى تخفيض عدد الموظفين لأن المبيعات كانت منخفضة، لكنني سمعت لاحقاً أن راجنر في ما يبدو فقَدَ اهتمامه بالعمل؛ فقَدَ اهتمامه بما كان يقوم به. بعد أحد اجتماعات لمِّ الشمل لزملاء الجامعة، تحدّث حول التسجّل في الجامعة مجدداً وإنهاء دراسته. لقد دُعي إلى اجتماع لمِّ الشمل بالرغم من أنه ترك الدراسة، وبالرغم من أن كل أصدقائه القدامى أصبحوا أطباء ومحامين ومهندسين. بهذه الطريقة تحدَّث. كما لو أن ذلك دمَّره، أقصدُ ترْك الدراسة».

سألها إرلندور: «هل تربطين ذلك باختفائه بشكل من الأشكال؟».

«لا، ليس بالتحديد. يمكنني إرجاع السبب إلى شجار صغير دار بيننا في اليوم السابق، أو إلى أن ابننا كان يتعبنا في الليل، أو إلى أنه لم يكن بوسعه شراء سيارة جديدة. حقاً، لا أعرف بماذا أفكر».

سألتها إيلينبورغ: «هل كان مكتئباً؟».

«ليس أكثر من معظم الآيسلنديين. لقد فُقد في الخريف؛ إذا كان ذلك يعني شيئاً ما».

قال إرلندور: «في ذلك الحين، استبعدتِ احتمال أن يكون اختفاؤه جنائياً».

«أجل. لم أستطع تخيُّل ذلك. لم يكن متورطاً بأي شيء من هذا القبيل. وإذا كان قد التقى شخصاً ما قتله، فهذا سيكون مجرّد سوء حظ. إن فكرة حدوث شيء كهذا لم تخطر ببالي قط، ولا بذهنكم أنتم في الشرطة. لم تتعاملوا مع اختفائه على أنه قضية جنائية مطلقاً. لقد بقي في العمل إلى أن غادر الجميع، وكانت تلك آخر مرة يُرى فيها».

سألتها إيلينبورغ: «ألم يُحقَّق في اختفائه على أنه مسألة جرمية مطلقاً؟».

أجابتها كريستين: «لا».

فسألها إرلندور: «أخبريني شيئاً آخر. هل كان زوجك هاوياً لاسلكياً؟».

«هاوياً لاسلكياً؟! ماذا يعني ذلك؟».

«كي أكون صادقاً معك، أنا نفسي لست متأكداً من ذلك». قال إرلندور وهو ينظر إلى إيلينبورغ طلباً للمساعدة، لكنها لم تنبس ببنت شفة. ثم استأنف كلامه قائلاً: «إنهم يتصلون لاسلكياً مع أشخاص آخرين في مختلف أنحاء العالم. سيحتاج، أو كان سيحتاج إلى جهاز بث قوي جداً لبث إشارته. هل امتلك أي جهاز كهذا؟».

قالت كريستين: «لا. هاوٍ لاسلكي!».

سألتها إيلينبورغ: «هل كانت لديه أي علاقة مع وسائل الاتصال الإلكترونية؟ هل كان يملك جهاز بث لاسلكي أو...؟».

نظرت كريستين إليها بذهول وقالت: «ماذا وجدتم في تلك البحيرة؟ لم يمتلك جهازاً لاسلكياً مطلقاً. أي نوع من أجهزة اللاسلكي؟».

لم تجبها إيلينبورغ، بل واصلت طرح أسئلتها: «هل ذهب مرةً للصيد في كلايفارفاتن؟ أو هل كان يعرف شيئاً حول ذلك؟».

«لا، أبداً. لم يكن مهتماً بالصيد. أخي صياد سلمون بارع، وقد حاول إقناعه بالذهاب معه، لكنه لم يفعل قطّ. كان مثلي في هذا الأمر؛ لم نكن نحب قتل أي شيء من أجل الرياضة أو المتعة. ولم نذهب مطلقاً إلى كلايفارفاتن».

لاحظ إرلندور صورة فوتوغرافية ذات إطار جميل على أحد الرفوف في غرفة الجلوس. كانت تُظهر كريستين مع فتى صغير اعتقد إرلندور أنه ابنها الذي فقد أباه، وراح يفكر في ابنه سيندري. لم يدرك على الفور سبب زيارته له، فسيندري كان يتجنب أباه دائماً، بعكس إيفا ليند التي كانت تريد جعله يشعر بالذنب لتجاهله إياها وشقيقها في طفولتهما. لقد طلَّق إرلندور أمهما بعد زواج قصير. ومع مرور السنين، شعر بندم متزايد لعدم وجود صلة تربطه بولديه.

تصافحا بارتباك كغريبين أمام باب شقته، ثم أدخل سيندري وأعدَّ القهوة. قال سيندري إنه يبحث عن شقة أو غرفة، فقال له إرلندور إنه لا يعرف أي شقق فارغة، لكنه وعده بإبلاغه إن سمع بأي شيء.

قال سيندري وهو ينظر إلى المكتبة في غرفة الجلوس: «هل يمكنني المكوث هنا في الوقت الحالي؟».

«هنا!؟». قال إرلندور باستغراب مع ظهوره في مدخل المطبخ. لقد عرف سبب زيارة سيندري.

«قالت إيفا إنك تملك غرفة إضافية مليئة بأشياء عديمة القيمة».

نظر إرلندور إلى ابنه. كانت توجد حقاً غرفة إضافية في شقته. والأشياء عديمة القيمة التي ذكرتها إيفا كانت تعود لوالديه، وقد احتفظ بها لأنه لم يستطع حمل نفسه على رميها. أشياء من منزل طفولته. خزانة مليئة برسائل كُتبت من قبل والديه وأقربائه الراحلين، ورفٌّ منقوش، وكتب، وقضبان صيد، وبندقية ثقيلة قديمة ومكسورة كان جده يمتلكها.

قال إرلندور: «ماذا عن أمك؟ ألا يمكنك البقاء معها؟».

قال سيندري: «بالطبع. سأفعل ذلك، لاحقاً».

صمتا قليلاً.

ثم قال إرلندور: «لا، ليس ثمة مكان في تلك الغرفة. لذا... لا أعرف...».

قال سيندري: «إيفا مكثت هنا».

صمت سيندري مطوَّلاً، وفي النهاية أضاف قائلاً: «قالت إنك تغيَّرت».

سأله إرلندور: «وماذا عنك؟ هل تغيَّرت؟».

«لم أشرب قطرة واحدة منذ أشهر. إذا كان هذا ما تقصده».

خرج إرلندور من أفكاره وارتشف قهوته، ثم حوَّل نظره من الصورة الموضوعة على الرف إلى كريستين. كان يريد سيجارة.

قال إرلندور: «إذاً، فالصبي لم يعرف أباه قطّ». شاهد من زاوية عينه إيلينبورغ تحدِّق إليه، لكنه تظاهر بعدم الانتباه. كان يعرف تماماً أنه يتدخّل في الحياة الشخصية لامرأة اختفى زوجها بصورة غامضة منذ أكثر من ثلاثين عاماً ولم تُحَلّ قضية اختفائه بشكل مُرْضٍ قطّ. لم يكن سؤال إرلندور هذا مرتبطاً بتحقيق الشرطة.

«لقد عامله زوجي بصورة حسنة، وعلاقته جيدة جداً مع أخويه. لا يمكنني رؤية أي علاقة لهذا الأمر باختفاء زوجي».

قال إرلندور: «لا، آسف».

قالت إيلينبورغ: «لا أعتقد أن هناك أي شيء آخر، صحيح؟».

سألتها كريستين بينما كانت تنهض لتقف: «هل تظنين أنه هو؟».

أجابتها إيلينبورغ: «لا أعتقد أن هذا مرجَّح، لكننا بحاجة إلى فحصه بدقة أكبر».

وقفوا بجمود لوهلة؛ كما لو أنه بقي شيء ما لم يُقَل. كما لو أن شيئاً ما كان معلَّقاً في الهواء ويحتاج لوضعه في حروف قبل فضِّ اجتماعهم.

أعلنت كريستين: «بعد عام من اختفائه، رمت الأمواج جثة على الشاطئ في سنافيلسنس. اعتقدوا أنه هو، ولكن تبيَّن أن ذلك لم يكن صحيحاً».

شبكت كريستين يديها.

«في بعض الأحيان، حتى هذا اليوم، أظن أنه قد يكون حياً، وأنه لم يمت مطلقاً. أحياناً، أظن أنه تركنا وانتقل إلى الريف - أو الخارج - من دون أن يخبرنا، وكوَّن عائلة جديدة. حتى إنني لمحته هنا في ريكيافيك. منذ نحو خمس سنوات، اعتقدت أنني رأيته، فلحقت بذلك الرجل مثل شخص أبله. حدث ذلك في مركز التسوّق. تبعته إلى أن رأيت بالطبع أنه لم يكن هو».

نظرت إلى إرلندور، وقالت مع ابتسامة حزينة: «لقد رحل. ولكن مع ذلك... إنه لن يرحل أبداً».

قال إرلندور: «أعرف. أعرف ماذا تقصدين».

عندما دخلا إلى السيارة، وبَّخت إيلينبورغ إرلندور بسبب سؤاله القاسي حول ابن كريستين، فطلب منها ألا تكون شديدة الحساسية.

رنّ هاتفه الخلوي، وكانت فالجيردر هي المتصلة. كان يتوقع اتصالها. لقد التقيا في 25 كانون الأول من العام السابق، عندما كان إرلندور يحقق في جريمة وقعت في أحد الفنادق في ريكيافيك. كانت خبيرة بيولوجية، ومنذ ذلك الحين ربطت بينهما علاقة متقطعة. لقد اعترف لها زوجها بعلاقته بامرأة أخرى، ولكن عندما وصلت الأمور إلى اللحظة الحاسمة لم يشأ إنهاء زواجهما. وبدلاً من أن يطلب منها أن تغفر له، وعدها بأن يصلح نفسه. كانت تقول على الدوام إنها ستتركه، لكنها لم تفعل ذلك بعد.

سألته فالجيردر: «هل ابنتك بخير؟». فأخبرها عن زيارته الوجيزة إلى إيفا ليند.

قالت: «ولكن، ألا تعتقد أن ذلك العلاج يساعدها؟».

«آمل ذلك، لكنني لا أعرف حقاً ما الذي سيساعدها. لقد عادت إلى

الذهنية نفسها التي كانت تحملها قبل إجهاضها جنينها».

«ألا يجب أن نحاول اللقاء غداً؟».

أجابها إرلندور: «أجل، لنتقابل غداً». ثم ودّعا بعضهما.

سألته إيلينبورغ التي كانت تدرك أنه مرتبط بعلاقة ما مع امرأة ما: «هل كانت هي؟».

«إذا كنت تقصدين فالجيردر، أجل، إنها هي».

«هل هي قلقة بشأن إيفا ليند؟».

سألها إرلندور كي يغيِّر الموضوع: «ماذا قال خبراء الأدلة الجنائية حول جهاز الإرسال ذاك؟».

«لا يعرفون الكثير. لكنهم يعتقدون حقاً أنه روسي. الاسم والرقم التسلسلي ممحيان، لكنهم يستطيعون تمييز الحرف الغريب، ويعتقدون أنه سيريليكي».

«أهو روسي؟».

«أجل، روسي».

كانت هناك بضعة منازل عند النهاية الجنوبية من كلايفارفاتن، وقد جمع إرلندور وسيغوردور أولي بعض المعلومات حول مالكيها. اتصلوا بهم وسألوهم بصورة عامة عن أشخاص مفقودين يمكن أن يكونوا على صلة بالبحيرة. لكن جهدهم كان بلا جدوى.

ذكَّر سيغوردور أولي أن إيلينبورغ مشغولة بالتحضير لحفل الترويج لكتابها المتعلق بوصفات المأكولات.

قال سيغوردور أولي: «أعتقد أن هذا سيجعلها مشهورة».

سأله إرلندور: «ألا تريد ذلك؟».

فأجابه سيغوردور أولي: «ألا يريد الجميع ذلك؟».

فصرح إرلندور: «تفاهة».

6

قرأ سيغوردور أولي الرسالة الأخيرة لشاب خرج من منزل أبويه عام 1970 ولم يعد مطلقاً.

كان كلا الوالدين يبلغان من العمر 78 عاماً، لكن صحتهما جيدة. كان لديهما ولدان آخران؛ أصبحا آنذاك في العقد الخامس من عمريهما. كان الوالدان يعرفان أن ابنهما الأكبر انتحر، لكنهما لم يكونا يعلمان كيفية انتحاره ولا مكان جثته. سألهما سيغوردور أولي حول كلايفارفاتن وجهاز الإرسال والفجوة في الجمجمة، لكنهما لم يكونا يعلمان أي شيء حول ذلك. لم يتشاجر ابنهما مع أي شخص آخر مطلقاً، ولم يكن لديه أعداء؛ لم يكن هناك أي شك في ذلك.

«إنها فكرة سخيفة أن يكون قد قُتل». قالت الأم وهي تنظر إلى زوجها. كانا لا يزالان قلقين بشأن مصير ابنهما؛ بالرغم من مرور كل تلك السنين.

قال الزوج: «بوسعك معرفة ذلك من الرسالة. من الواضح ما كان يدور في ذهنه».

أعاد سيغوردور أولي قراءة الرسالة.

أمي وأبي العزيزين، سامحاني، ولكنني لا أستطيع فعل أي شيء آخر. إنه أمر لا يُحتمَل، ولا يمكنني التفكير في العيش بعد الآن. لا أستطيع ولا أريد ولا أستطيع.

كانت الرسالة موقَّعة باسم جاكوب.

قالت الزوجة: «إنه خطأ تلك الفتاة».

قال الزوج: «نحن لا نعلم أي شيء حول ذلك».

قالت: «لقد بَدَأَتِ الخروج مع صديقه، وابننا لم يستطع تحمُّل ذلك».

قال الزوج: «هل تعتقد أنه ابننا؟». كانا جالسين على الأريكة قبالة سيغوردور أولي، وينتظران إجابات عن أسئلة لازمتهما منذ اختفاء ابنهما. كانا يعرفان أنه لا يستطيع الإجابة عن السؤال الأصعب؛ السؤال الذي أرَّقهما طوال تلك السنين، والمتعلق بالمسؤوليات والتصرفات الأبوية. ولكن، كان بوسعه إخبارهما إن كان قد وُجد أم لا. قالوا في الأخبار فقط إن هيكلاً عظمياً وُجد في كلايفارفاتن. ولم يذكروا أي شيء حول جهاز الإرسال والجمجمة المكسورة، ولهذا السبب لم يفهما ما عناه سيغوردور أولي عندما استفسر حول كلا الأمرين. كان لديهما سؤال واحد: هل كان هو أم لا؟

قال سيغوردور أولي وهو ينقِّل نظراته بينهما: «لا أعتقد أن ذلك محتمل». لقد خلَّف الاختفاء غير المفهوم لابنهما أثره على حياتهما. لم تُقفَل القضية قطّ. بالنسبة إليهما كان ابنهما لا يزال غائباً ولم يعد إلى المنزل. هكذا كان طوال تلك السنين. لم يكونا يعلمان مكانه، ولا ماذا حصل له، وعدم اليقين هذا ولَّد حالة من الضيق والكآبة لديهما.

قالت الزوجة: «نعتقد أنه ذهب إلى البحر. كان سباحاً جيداً. لطالما اعتقدت أنه ظل يسبح إلى أن أدرك أنه ابتعد كثيراً أو إلى أن قتلته البرودة».

قال الزوج: «أخبرتنا الشرطة في ذلك الحين أنه على الأرجح رمى نفسه في البحر، وذلك بسبب عدم العثور على الجثة».

قالت الزوجة: «بسبب تلك الفتاة».

«لا يمكننا أن نلومها على ذلك».

كان بوسع سيغوردور أولي إدراك أنهما انزلقا إلى روتين قديم، فنهض كي يغادر.

قالت الزوجة: «أحياناً أشعر بغضب شديد منه». لم يعرف سيغوردور أولي إن كانت تشير إلى زوجها أم ابنها.

كانت فالجيردر تنتظر إرلندور في المطعم. كانت ترتدي المعطف الجلدي الطويل نفسه الذي ارتدته في موعدهما الأول. لقد التقيا صدفة، وفي لحظة جنون دعاها لتناول الغداء معه. لم يكن يعرف حينئذ إن كانت متزوجة أم لا، لكنه اكتشف ذلك لاحقاً، كان لديها ولدان ناضجان انتقل كل منهما للعيش بمفرده، وزواج متداعٍ.

في لقائهما الثاني، اعترفت لإرلندور بأنها تعمَّدت استغلاله للرد على ما فعله زوجها.

بعد ذلك بوقت قصير، اتصلت فالجيردر بإرلندور مجدداً، والتقيا عدة مرات منذ ذلك الحين. وذهبت مرة واحدة إلى شقته. حاول إرلندور ترتيب الشقة قدر المستطاع، حيث رمى الجرائد القديمة، ورتَّب الكتب على الرفوف. نادراً ما كان يستقبل ضيوفاً في شقته، وكان متردداً حيال زيارة فالجيردر، لكنها أصرَّت قائلةً إنها تريد رؤية كيف يعيش. كانت إيفا ليند تدعو شقته بالجحر.

سألته فالجيردر عندما كانت تقف في غرفة جلوسه: «انظر إلى كل تلك الكتب. هل قرأتها كلها؟».

فردّ عليها إرلندور: «معظمها. هل تريدين بعض القهوة؟ اشتريت بعض المعجنات الدانماركية».

اقتربت من المكتبة، ومرّرت إصبعها على حواف الكتب مستعرضةً بعض العناوين، ثم أخذت أحد الكتب من الرف.

«هل هذا الكتاب حول المحن والرحلات الجبلية الخطرة؟».

لاحظت بسرعة أن إرلندور كان مهتماً على نحو خاص بالأشخاص المفقودين، وأنه قرأ مجموعات كاملة من التقارير المتعلقة بأشخاص تاهوا واختفوا في براري آيسلندا. كان قد أخبرها بما لم يخبر به أي شخص آخر سواها، باستثناء إيفا ليند، وهو أن شقيقه مات في عمر الثامنة في الهضاب الواقعة شرقي آيسلندا في بداية الشتاء، وكان إرلندور آنذاك في العاشرة من عمره. كانوا ثلاثة أشخاص؛ ولدين وأباهما. إرلندور ووالده وجدا طريقهما إلى المنزل بأمان، لكن شقيقه تجمَّد حتى الموت ولم يُعثَر على جثته.

قالت فالجيردر: «أخبرتني مرةً أنه يوجد تقرير حولك أنت وشقيقك في أحد هذه الكتب».

«أجل».

«هل تمانع أن تريني إياه؟».

قال إرلندور بتردد: «سأفعل. ولكن لاحقاً، ليس الآن. سأريك إياه لاحقاً».

وقفت فالجيردر عندما دخل إلى المطعم وتصافحا كالمعتاد. لم يكن إرلندور يعرف بالضبط نوع هذه العلاقة، لكنها كانت تروق له. لم يعاشرا بعضهما حتى بعد الالتقاء بشكل منتظم لمدة نصف عام تقريباً. كانت علاقتهما بريئة. كانا يجلسان ويتحدثان حول نواحٍ متنوعة من حياتيهما.

«لماذا لم تتركيه؟». سألها بعد الانتهاء من تناول الطعام وشرب القهوة والتحدث حول إيفا ليند وسيندري وولديها والعمل. سألته بضعة أسئلة حول الهيكل العظمي في كلايفارفاتن، ولكن كان هناك القليل من المعلومات التي يمكنه إخبارها بها. كانت الشرطة تتحدث فقط حول أناس فقدوا أعزاء لهم خلال مرحلة معينة تقع قرابة العام 1970.

اكتشفت فالجيردر قبل فترة أن زوجها كان مرتبطاً بعلاقة مع امرأة أخرى خلال العامين السابقين. وكانت قد عرفت من قبل بشأن حادثة سابقة «غير جدية»، بحسب وصفه. أخبرته أنها سوف تتركه، فقطع العلاقة على الفور، ولم يحدث شيء منذ ذلك الحين.

بدأ إرلندور بالقول: «فالجيردر...».

فقالت فالجيردر بسرعة، كما لو أنها كانت تشعر بما سيأتي تالياً: «هل رأيتَ إيفا ليند في مركز التأهيل؟».

«أجل، رأيتها».

«هل تتذكر شيئاً حول اعتقالها؟».

«لا، لا أظن أنها تتذكر أنها اعتُقلت».

«فتاة مسكينة».

«هل ستستمرين معه؟».

رشفت فالجيردر من كأسها ثم قالت: «إنه أمر فائق الصعوبة».

«حقاً!؟».

قالت وهي تنظر إلى عيني إرلندور: «لست مستعدة لإنهاء زواجي، لكنني لا أريد التخلي عنك أيضاً».

عندما عاد إرلندور إلى المنزل في ذلك المساء، كان سيندري مستلقياً على الأريكة، يدخن ويشاهد التلفاز. أومأ برأسه لأبيه وتابع مشاهدته لبرنامج الرسوم الكارتونية. لقد أعطى ابنه مفتاحاً للشقة، ولهذا كان يتوقع مجيئه في أي وقت، لكنه لم يوافق على السماح له بالبقاء.

سأله بينما كان يخلع معطفه: «هل تمانع إطفاءه؟».

«لم أستطع إيجاد جهاز التحكم عن بعد. أليس هذا التلفاز من حقبة ما قبل التاريخ؟».

قال إرلندور: «عمره عشرون عاماً فقط أو نحو ذلك. إنني لا أستخدمه كثيراً».

قال سيندري بينما كان يطفئ سيجارته: «اتصلت إيفا اليوم. هل كان أحد أصدقائك هو الذي اعتقلها؟».

«سيغوردور أولي. لقد ضرَبَتْه بمطرقة. حاولَتْ إفقاده وعيه لكنها أصابته على كتفه. كان يريد اتهامها بالاعتداء ومقاومة الاعتقال».

«لقد عقدْتَ صفقة كي تدخل إلى المصح بدلاً من ذلك».

«لم تكن تريد تلقي العلاج مطلقاً. أسقط سيغوردور أولي التهم من أجلي، وهي ذهبت إلى مركز إعادة التأهيل».

كان هناك بائع مخدرات يُدعى إيدي متورطاً في قضية مخدرات، وقد تعقَّبه سيغوردور أولي ومحقّقان آخران إلى شقة تقع بجوار محطة هليمر للحافلات، ليس بعيداً عن مركز شرطة هفيرفيسجاتا. لم يلقَ الرجال أي مقاومة إلا من إيفا ليند التي كانت فاقدة عقلها تماماً. كان إيدي مستلقياً

شبه عارٍ على الأريكة ولم يتحرك من مكانه، وكانت هناك فتاة أخرى، أصغر من إيفا ليند، ترقد عارية بجانبه. وعندما رأت إيفا ليند الشرطة، استشاطت غضباً. كانت تعرف سيغوردور أولي، وتعرف أنه يعمل مع أبيها. التقطت مطرقة كانت مرميةً على الأرض وحاولت إصابة رأسه بها، لكنها كسرت عظم ترقوته بدلاً من ذلك. سقط سيغوردور على الأرض متألماً بشدة. وبينما كانت تلوِّح بالمطرقة كي تضربه بها ثانيةً، تقدَّم الشرطيان الآخران ورمياها على الأرض وثبَّتاها.

لم يتحدث سيغوردور أولي حول الحادثة، لكن إرلندور سمع من الشرطيَيْن الآخريْن أن سيغوردور أولي تردد عندما رأى إيفا ليند تهجم عليه. لم يكن يريد إيذاءها لأنها ابنة إرلندور، ولهذا السبب تمكَّنت من إصابته.

قال إرلندور: «ظننت أنها ستحسِّن من سلوكها عندما توفي جنينها. لكن التعامل معها أصبح أصعب بمرتين. يبدو كما لو أنه لم يعد هناك أي شيء يهمُّها».

قال سيندري: «أود أن أزورها، لكنهم لا يسمحون بالزيارات».

«سأتحدث معهم».

رنَّ الهاتف فرفع إرلندور السمّاعة.

قال صوت خافت من الطرف الآخر: «إرلندور؟». عرف إرلندور المتصل على الفور.

«ماريون؟».

قال ماريون برايم: «ماذا اكتشفتم في كلايفارفاتن؟».

قال إرلندور: «مجرّد عظام. لا شيء يستدعي اهتمامك».

«أوه، حقاً؟!». قال ماريون الذي تقاعد من الشرطة لكنه يجد صعوبة في عدم التدخل في أي قضية مثيرة يمكن أن يحقق فيها إرلندور.

ساد صمت طويل عبر الهاتف.

سأله إرلندور: «هل تريد شيئاً محدداً؟».

قال ماريون: «ينبغي عليك تفحُّص كلايفارفاتن بصورة أفضل. ولكن، لا تدعني أزعجك. لا أريد أن أزعج صديقاً قديماً يملك الكثير على طبقه مسبقاً».

قال إرلندور: «ماذا بشأن كلايفارفاتن؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

قال ماريون: «لا، وداعاً». ثم أنهى الاتصال.

7

في بعض الأحيان، عندما كان يفكّر في الماضي، كان باستطاعته أن يشم رائحة المقر الرئيس في ديتريتشرينغ؛ الرائحة الكريهة الخانقة للسجاد القذر، والعرَق، والخوف. وكان يتذكر أيضاً الرائحة اللاذعة لدخان الفحم الذي كان يغطي المدينة، ويحجب الشمس.

لم تكن لايبزيغ على الإطلاق كما كان يتخيلها. لقد درس بجد قبل مغادرة آيسلندا، وكان يعرف أنها تقع على ملتقى أنهار إليستر وبارث وبليسي، وأنها كانت مركزاً قديماً للنشر وتجارة الكتب في ألمانيا. لقد دُفن باخ فيها. كما أن المؤلف الموسيقي جون ليفس درس الموسيقى في لايبزيغ وعاش فيها سنوات عديدة. في عين عقله، كان يرى مدينة ألمانية ثقافية عريقة، فإذا به يكتشف مكاناً كئيباً بائساً. لقد احتلَّ الحلفاء لايبزيغ وسلَّموها لاحقاً للسوفييت، وكان لا يزال بالإمكان رؤية ثقوب الرصاص على جدران الأبنية والمنازل نصف المنهارة؛ الدمار الذي خلَّفته الحرب.

وصل القطار إلى لايبزيغ في منتصف الليل. وضع حقيبته كأمانة في محطة القطار، وراح يجوب الشوارع إلى أن بدأت المدينة تستيقظ. كان مركز المدينة مظلماً بسبب وجود نقص في الكهرباء، لكنه شعر بالارتياح لوصوله، واستمتع بمغامرة كونه وحيداً في مكان بعيد جداً عن وطنه. مشى إلى نيكولاكيرتشه، وعندما وصل إلى توماسكيرتشه جلس على أحد المقاعد. تذكَّر وصف الكاتب هالدور لاكسنس والشاعر يوهان جونسون عندما مشيا معاً عبر المدينة منذ سنوات بعيدة جداً. تخيَّلهما ينظران إلى توماسكيرتشه في ضوء الفجر كما فعل هو نفسه، ويتأملان المنظر بإعجاب قبل أن يتابعا سيرهما.

مرت فتاة تبيع الزهور بجانبه، وعرضت عليه باقة، لكنه لم يكن يملك نقوداً كافيةً فابتسم لها معتذراً.

كان يتطلع بشوق لكل ما هو آتٍ. كان سيد نفسه، سيد مصيره. وبالرغم من أنه لم يكن يعرف ما كان ينتظره، إلا أنه كان ينوي مواجهته بذهن منفتح. كان يعرف أنه لن يشعر بالحنين إلى الوطن لأنه انطلق في مغامرة سوف تغيِّر حياته بشكل دائم. وبالرغم من إدراكه أن منهاجه سوف يكون مجهداً، إلا أنه كان مستعداً لبذل كل طاقاته من أجل الوصول إلى غايته. كان يملك اهتماماً شغوفاً بالهندسة، ويعرف أنه سيقابل أناساً جدداً ويكوِّن صداقات جديدة. كان متلهفاً للبدء بالدراسة.

عند الفجر، جلب حقيبته، وذهب إلى الجامعة، ووجد مكتب التسجيل من دون أن تعترضه أي مشكلة. أُرشد إلى مسكن طلابي ليس بعيداً عن المبنى الرئيس، وكان عبارة عن فيلا قديمة أنيقة استولت عليها الجامعة. وكان سيشارك إحدى الغرف مع طالبيْن آخرين. أحدهما يُدعى إميل، وهو زميل صفه من المدرسة، والآخر كان تشيكوسلوفاكياً؛ كما قيل له. لم يكن أي منهما في الغرفة عندما وصل. كانت الفيلا مكونة من ثلاث طبقات مع حمّام ومطبخ مشترك في الطابق الأوسط. كان ورق الجدران متقشراً، وكانت الأرضيات الخشبية قذرة، ورائحة العفونة متغلغلة في المبنى. وفي غرفته، كانت توجد ثلاثة أسرَّة ومنضدة قديمة، ومصباح مكشوف متدل من السقف الذي تقشَّرت طبقة الجص فيه كاشفةً عن ألواح خشبية متعفنة. وكانت في الغرفة نافذتان؛ إحداهما مغلقة بألواح خشبية لأن الزجاج مكسور.

كان الطلاب الناعسون يخرجون من غرفهم. وكان رتل منهم مصطفاً خارج الحمّام، في حين ذهب بعضهم للتبوّل خارج المبنى. وفي المطبخ، كانت توجد قدر ضخمة مملوءة بالماء وتسخّن على موقد قديم، وبجانبه فرن عتيق الطراز. تلفَّت حوله باحثاً عن صديقه، لكنه لم يتمكن من رؤيته. وبينما كان ينظر إلى المجموعة الموجودة في المطبخ أدرك فجأة أن المسكن كان مختلطاً.

اقتربت إحدى الشابات منه وقالت شيئاً بالألمانية، لكنه لم يفهم ما قالته؛ بالرغم من أنه درس اللغة الألمانية في المدرسة. فطلب منها بلغة ألمانية متلعثمة أن تتحدث ببطء أكثر.

سألته الفتاة: «هل تبحث عن شخص ما؟».

«أبحث عن إميل. إنه من آيسلندا».

«هل أنت من آيسلندا أيضاً؟».

«أجل. وماذا عنك؟ من أين أنت؟».

قالت الفتاة: «من دريسدن. أنا ماريا».

«اسمي توماس». قال وتصافحا.

«توماس؟ يوجد عدد قليل من الآيسلنديين في الجامعة. غالباً ما يزورون إميل. في بعض الأحيان نضطر إلى رميهم في الخارج لأنهم يُغنّون طوال الليل. ألمانيتك ليست سيئة جداً».

«شكراً، إنها ألمانيَّة تلميذ مدرسة ابتدائية. هل تعرفين شيئاً عن إميل؟».

«لديه واجب جرذان. إنه في الأسفل، في القبو. المكان يعج بالجرذان

هنا. هل تريد فنجاناً من الشاي؟ سوف ينشئون مقهى في الطابق العلوي، ولكن حتى ذلك الحين نحن مضطرون لإعداد الطعام بأنفسنا».

«واجب جرذان؟!».

«إنها تخرج في الليل. ذلك هو الوقت الأمثل للإمساك بها».

«هل يوجد الكثير منها؟».

«إذا قتلنا عشرة، يحل محلها عشرون. لكن الوضع الآن أفضل مما كان عليه خلال الحرب».

نظر بشكل لا شعوري إلى الأرض، كما لو أنه يتوقع رؤية تلك المخلوقات تندفع بين أقدام الطلاب. إذا كان هناك ما يثير قرفه فهو الجرذان.

شعر بتربيتة على كتفه، وعندما التفت رأى صديقه يقف خلفه مبتسماً. رفع جرذين ضخمين كان يحملهما من ذنبيهما، في حين كان يحمل بيده الأخرى مجرفة.

قال إميل: «المجرفة أفضل أداة لقتلها».

تأقلم مع محيطه بسرعة: رائحة الرطوبة، والرائحة المروِّعة الآتية من الحمام في الطابق الأوسط والمنتشرة في المبنى بأكمله، والفُرُش المتعفنة، وصرير الكراسي، وأدوات الطبخ البدائية. أبعد كل ذلك عن ذهنه ببساطة، وأدرك أن إعادة البناء بعد الحرب ستأخذ وقتاً طويلاً.

كانت الجامعة ممتازة بالرغم من مرافقها القليلة، وكان الكادر التدريسي عالي الكفاءة، والطلاب متحمسين. تعرَّف إلى طلاب الهندسة الذين كانوا إما من لايبزيغ أو من مدن ألمانية أخرى، أو من بلدان مجاورة، وخاصة من أوروبا الشرقية. والبعض منهم كانوا يدرسون، مثله، بناءً على منح مقدمة من حكومة ألمانيا الشرقية. في الواقع، كان الطلاب في جامعة كارل ماركس يبدون كما لو أنهم قدموا من جميع أنحاء العالم. وسرعان ما تعرَّف إلى طلاب فيتناميين وصينيين كانوا يميلون للانطواء على أنفسهم. وكان هناك نيجيريون أيضاً. وفي الغرفة المجاورة لغرفته في الفيلا القديمة، كان هناك طالب هندي لطيف يُدعى ديبيندرا.

كانت مجموعة الآيسلنديين الصغيرة في المدينة تبقى ملتصقة ببعضها بعضاً. جاء كارل من قرية صيد صغيرة، وكان يدرس الصحافة. كان يُقال إن كلِّيته - التي كانت تُلقَّب باسم الديْر الأحمر - لم تكن تقبل إلا المتشددين الحزبيين. وجاءت روت من أوكوريري؛ حيث كانت ترأس الحركة

الشبابية فيها، وكانت تدرس الأدب وتتخصص في الأدب الروسي. في حين كانت هرافنهيلدر تدرس اللغة والأدب الألمانيين. أما إميل فجاء من غرب آيسلندا، وكان يدرس الاقتصاد. ومعظمهم تم اختيارهم بطريقة أو بأخرى من قبل الحزب الاشتراكي الآيسلندي للدراسة على سبيل المنحة في ألمانيا الشرقية. كانوا يلتقون في المساء ويلعبون الورق أو يستمعون إلى أسطوانات الجاز الخاصة بديبيندرا، أو يذهبون إلى المشرب المحلي وينشدون أغاني آيسلندية. وكانت الجامعة تدير نادياً سينمائياً نشطاً، حيث شاهدوا فيلم «السفينة الحربية بوتمكين» وناقشوه كوسيلة دعائية. وكانوا يتحدثون في السياسة مع طلاب آخرين. كان الحضور إلزامياً في الاجتماعات، وكانت المناقشات تُعقد بواسطة المنظمة الطلابية «شباب ألمانيا الحر» (*Freie Deutsche Jugend* - FDJ ؛ المنظمة الوحيدة التي كان يُسمَح لها بالعمل في الجامعة. الجميع كان يريد تشكيل عالم جديد وأفضل.

الجميع باستثناء شخص واحد، يُدعى هانز، أقدم الآيسلنديين وجوداً في لايبزيغ. لكنه كان يتجَّنب الآخرين، ولم يقابله توماس إلا بعد شهرين من قدومه. كان توماس يسمع عن هانز منذ أن كان في ريكيافيك؛ إذ كان الحزب يملك خططاً كبيرة من أجله، وقد ذكره الرئيس في أحد الاجتماعات التحريرية، وأشار إليه بأنه مشروع للمستقبل. ومثل توماس، عمل هانز كصحفي في جريدة الحزب، وسمع توماس قصصاً عنه من المراسلين، كما رأى هانز يتحدث في اجتماعات في ريكيافيك وتأثَّر بحماسته، وتعابيره حول إمكانية شراء رعاة البقر، ومشعلي الحروب، وحول السياسيين الآيسلنديين الذين كانوا دمىً في أيدي الإمبرياليين الأميركيين. صاح ذات مرة على وقع تصفيق هادر: «إن الديمقراطية في هذا البلد لا تساوي شيئاً ما دام الجيش الأميركي ينشر قذارته على التراب الآيسلندي!». خلال سنواته الأولى في ألمانيا الشرقية، كان هانز يكتب عموداً دورياً تحت عنوان «رسالة من الشرق»، يصف فيه عجائب النظام الشيوعي؛ إلى أن توقفت المقالات عن الظهور فجأة. لم يكن الآيسلنديون الآخرون في المدينة يملكون الكثير من المعلومات للتحدث بها حول هانز، وذلك لأنه أبعد نفسه عنهم تدريجياً وسلك طريقه الخاص. وبالرغم من أنهم كانوا يناقشون هذا الأمر بين الحين والآخر، إلا أنهم كانوا يرفعون أكتافهم كما لو أن هذا لم يكن يعنيهم.

ذات يوم، صادف هانز في مكتبة الجامعة. كان المساء قد حلّ، ولم يكن هناك سوى بضعة طلاب جالسين خلف المناضد، أما هانز فكان يدفن رأسه بين كتبه. كان الطقس بارداً وعاصفاً في الخارج. في بعض الأحيان،

يكون الجو شديد البرودة داخل المكتبة لدرجة أن أنفاس الطلاب كانت تتبخَّر عندما يتحدثون. كان هانز يرتدي معطفاً طويلاً، ويعتمر قلنسوة، ويضع ما يقي أذنيه. وكانت المكتبة متضررة بشدة من الغارات الجوية، حيث لم يكن يُستخدَم إلا جزء منها فقط.

سأله بنبرة ودية: «ألست هانز؟ نحن لم نتقابل مطلقاً من قبل».

رفع هانز رأسه عن كتبه.

«أنا توماس». ثم مدَّ يده.

حدَّق هانز إليه وإلى اليد الممدودة، ثم دفن رأسه مجدداً في كتبه، وقال: «دعني وحدي».

ذُهل توماس، فهو لم يتوقع مثل هذا الاستقبال من ابن بلده ورفيقه في الحزب، وخاصة هذا الرجل الذي كان يتمتع باحترام كبير، فضلاً عن الإعجاب الشديد الذي كان يكنُّه له شخصياً.

قال توماس: «آسف. لم أقصد إزعاجك. بالطبع، أنت تدرس».

بدلاً من الإجابة، تابع هانز كتابة الملاحظات من الكتب المفتوحة على الطاولة أمامه. كان يكتب بسرعة بقلم رصاص، وكان يرتدي قفازين من دون أصابع لإبقاء يديه دافئتين.

تابع توماس كلامه: «كنت أتساءل إن كان بوسعنا شرب القهوة في وقت ما».

وقف توماس بجانبه منتظراً نوعاً ما من الرد، لكنه عندما لم يجد شيئاً تراجع ببطء عن الطاولة، ثم التفت وبدأ السير. كان قد قطع منتصف الطريق نحو الخروج من المكتبة عندما رفع هانز رأسه عن كتبه الضخمة وأجابه أخيراً.

«هل قلت توماس؟».

«أجل، نحن لم نلتقِ من قبل، لكنني سمعت...».

قاطعه هانز قائلاً: «أعرف من أنت. كنتُ مثلك ذات مرة. ماذا تريد مني؟».

«لا شيء. فقط جئت لأسلِّم عليك. كنت جالساً هناك في ذلك الجانب أراقبك. أردت فقط أن أسلِّم عليك. ذهبتُ إلى اجتماع مرةً عندما كنتَ...».

قاطعه هانز مجدداً: «ما رأيك في لايبزيغ؟».

«طقس شديد البرودة وطعام سيئ، لكن الجامعة جيدة».

ابتسم هانز وقال: «هذا صحيح، الشراب هو أفضل شيء في هذا المكان».

قال توماس: «قد نشرب إبريقاً معاً ذات يوم».

قال هانز: «ربما». ثم عاد إلى كتبه. لقد انتهت المحادثة.

سأله توماس بتردد: «ماذا تقصد بقولك عندما كنتَ مثلي ذات مرة؟! ماذا يعني ذلك؟».

قال هانز وهو يرفع رأسه ويتمعَّن فيه: «لا شيء». تردد لوهلة ثم قال: «لا تكترث. هذا لن يفيدك في شيء».

خرج توماس من المكتبة محتاراً إلى ريح الشتاء القارس. وفي طريقه إلى المهجع التقى إميل وروت، وكانا قد ذهبا لجلب طرد أُرسل لها من آيسلندا. كان طرداً من المأكولات، وكانا يتحدثان بسعادة حوله. لم يذكر لهما التقاءه بهانز لأنه لم يفهم ما قصَدَه.

قال إميل: «لوثر كان يبحث عنك. أخبرته أنك في المكتبة».

قال توماس: «لم أره. هل تعرف ماذا كان يريد؟».

قال إميل: «ليست لدي أي فكرة».

كان لوثر هو المسؤول عن رعاية شؤونه. إذ إن كل طالب أجنبي في الجامعة كان يملك راعياً (*Betreuer*) لمساعدته عند الحاجة. وكان لوثر قد أصبح صديقاً للآيسلنديين في المهجع، إذ كان يساعدهم في الجامعة، وفي بعض الأحيان كان يدفع الفاتورة عندما كانوا يذهبون لاحتساء الشراب، كما عرض عليهم جولة حول المدينة كي يريهم معالمها. قال لهم إنه كان يريد الذهاب إلى آيسلندا من أجل دراسة اللغة الآيسلندية؛ مع أنه كان يتحدث اللغة بشكل جيد، بل كان باستطاعته غناء أحدث الأغنيات الرائجة. وقال إنه كان مهتماً بالملاحم الآيسلندية القديمة، حيث قرأ ملحمة نيال (*Njal*) ويرغب في ترجمتها.

قالت روت فجأة: «ها هو المبنى. ذاك هو المكتب. توجد زنزانات في الداخل».

نظرا إلى المبنى الحجري الكئيب المكوَّن من أربعة طوابق. كانت نوافذ الطابق الأرضي كلها مغلقة بواسطة ألواح من الخشب المعاكس. رأى اسم الشارع: ديتريتشرينغ. رقم 24.

سأل توماس: «زنزانات؟! ما هذا المكان؟».

قال إميل بصوت خافت كما لو أنه يخشى أن يسمعه أحد: «شرطة الأمن هنا».

قالت روت: «ستاسي».

نظر إلى المبنى مجدداً. كانت مصابيح الشارع الشاحبة تُلقي ظلاً كئيباً

على جدرانه الحجرية ونوافذه، فَسَرَتْ قشعريرة خفيفة في جسده. أحسَّ بوضوح أنه لم يكن يرغب بدخول ذلك المكان، لكن لم يكن بإمكانه حينئذ معرفة كم كانت أمنياته ضعيفة التأثير.

تنهَّد ونظر إلى البحر، فرأى قارباً شراعياً صغيراً يشق طريقه على سطح الماء.

بعد عقود، عندما انهار الاتحاد السوفييتي والشيوعية، عاد إلى المقر الرئيس ولاحظ على الفور الرائحة المقرفة القديمة. لقد جعلته الرائحة يشعر بالشعور نفسه الذي أحسّ به عندما علق جرذ خلف موقد المهجع فشووه من دون قصد مرةً بعد مرة إلى أن أصبحت رائحة الفيلا القديمة لا تُطاق.

8

راقب إرلندور ماريون وهو يجلس على كرسي في غرفة المعيشة ويتنفس عبر قناع أوكسجين. كانت آخر مرة رأى فيها رئيسه السابق في قسم التحقيقات في العام السابق، ولم يكن يعرف أن المرض قد أقعد ماريون منذ ذلك الحين. لقد اكتشف أن عقوداً من التدخين دمرت رئتي ماريون، وتسببت خثرة بشلل جانبه الأيمن؛ الذراع وجزء من الوجه. كانت الشقة معتمة بالرغم من سطوع الشمس في الخارج، مع طبقة سميكة من الغبار على الطاولات. كانت هناك ممرضة تزوره مرة في اليوم، وكانت على وشك المغادرة عندما اتصل إرلندور.

جلس على الأريكة العريضة قبالة ماريون، وفكَّر في الحالة المؤسفة التي وصل إليها زميله القديم. كانت عظامه بالكاد مغطاة باللحم، وكان رأسه الضخم يهتز ببطء فوق جسده الضعيف. كل عظمة في وجه ماريون كانت واضحة، وكانت العينان غارقتين تحت شعر أشعث أصفر اللون. حدَّق إرلندور إلى الأصابع المبقعة بالتبغ والأظافر المجعَّدة المرتاحة على ذراع الكرسي البالي. كان ماريون نائماً.

لقد أدخلت الممرضة إرلندور، وجلست بصمت منتظرةً استيقاظ ماريون. تذكَّر المرة الأولى التي وصل فيها إلى العمل في قسم التحقيقات.

كان أول شيء قاله ماريون له هو: «ما بك؟ ألا تبتسم أبداً؟».

لم يعرف حينئذ ماذا يقول. لم يعرف ماذا يتوقّع من هذا الشخص القصير الذي لم يكن يفارق علبة سجائره Camel ، والذي كان مغلَّفاً على الدوام بغيمة من الدخان الأزرق كريه الرائحة.

تابع ماريون كلامه عندما لم يجبه إرلندور: «لماذا تريد التحقيق في الجرائم؟ لماذا لم تستمر في تنظيم المرور؟».

أجابه إرلندور: «اعتقدت أنني قد أكون قادراً على المساعدة».

كان المكتب صغيراً، ويعج بالأوراق والملفات، إضافة إلى منفضة سجائر كبيرة ومليئة بأعقاب السجائر. كان الهواء سميكاً وضبابياً في الداخل، لكن إرلندور لم ينتبه إلى ذلك، وأخرج سيجارة من علبة السجائر الخاصة به.

سأله ماريون: «هل تملك اهتماماً خاصاً بالجريمة؟».

أجابه إرلندور وهو يخرج علبة ثقاب من جيبه: «بعضها».

«بعضها؟».

قال إرلندور: «إنني مهتم بالأشخاص المفقودين».

«الأشخاص المفقودون! لماذا؟».

قال إرلندور: «لطالما كنت مهتماً بذلك. أنا...». ثم سكت.

«ماذا؟ ماذا كنت ستقول؟». أشعل ماريون سيجارة كاميل جديدة من عقب سيجارته التي كان يدخنها. «تحدَّث في صلب الموضوع! إذا كنت ستتردد هكذا في العمل، فلن تكون لي أي علاقة بك. تكلَّم بصراحة!».

قال إرلندور: «أعتقد أن صلتها بالجرائم قد تكون أكبر مما يعتقد الناس. ليس لدي ما يدعم تفكيري هذا، بل إنه مجرد حدس».

أخرج إرلندور نفسه من تلك الذكرى، وراح يراقب ماريون بينما كان يستنشق الأوكسجين. نظر عبر نافذة غرفة المعيشة وفكَّر في سرّه، مجرد حدس.

فتح ماريون برايم عينيه على مهل، فرأى إرلندور جالساً على الأريكة. عندما التقت عيونهما، أبعد ماريون قناع الأوكسجين، ثم قال بصوت أجش بطيء عبر فمٍ ملتوٍ بفعل الشلل: «هل نسي الجميع أولئك الشيوعيين الملعونين؟».

سأله إرلندور: «كيف تشعر؟».

رسم ماريون ابتسامة خاطفة على وجهه؛ أو لعلها كانت تكشيرة ألم.

«ستكون أعجوبة إن بقيت حتى نهاية العام».

«لماذا لم تخبرني؟».

«وما الفائدة؟ هل يمكنك أن تؤمِّن لي رئتين جديدتين؟».

«هل أنت مصاب بالسرطان؟».

أومأ ماريون برأسه دلالة على التأكيد.

قال إرلندور: «كنت تدخن كثيراً جداً».

قال ماريون: «كنت سأفعل أي شيء مقابل سيجارة».

وضع ماريون القناع مجدداً، وراقب إرلندور كما لو أنه كان يتوقع منه إخراج سجائره. بيد أن إرلندور اكتفى بهز رأسه. كان التلفاز الموجود في إحدى زوايا الغرفة مشغَّلاً، فالتفتت عينا مريض السرطان نحو الشاشة، ثم أنزل قناع الأكسجين مجدداً.

«ما هي أخبار الهيكل العظمي؟ هل نسي الجميع الشيوعيين؟».

«ما سبب كل هذا الكلام حول الشيوعيين؟».

«جاء رئيسك ليلقي عليّ التحية البارحة، أو ربما ليودعني. لم يعجبني قطّ هذا الرئيس الجديد. لا أعرف لماذا لا تريد أن تكون واحداً من أولئك

الرؤساء. ما هو التفسير؟ هل يمكنك أن تخبرني بذلك؟ ينبغي أن تقوم بنصف عملك الآن مقابل ضعف الأجر الذي تأخذه منذ سنوات طويلة».

قال إرلندور: «ليس هناك تفسير».

«سَرَّب لي خبر أن الهيكل العظمي كان مربوطاً بجهاز إرسال لاسلكي روسي».

«أجل. نعتقد أنه روسي ونعتقد أنه جهاز إرسال لاسلكي».

«ألن تعطيني سيجارة؟».

«لا».

«لم يبقَ لدي وقت طويل. هل تعتقد أنها ستؤثر؟».

«لن تحصل على سيجارة مني. ألهذا السبب هاتفتني؟ كي أتمكن أخيراً من إنهاء حياتك؟ لم لا تطلب مني ببساطة أن أضع رصاصة في رأسك؟».

«هل ستفعل ذلك من أجلي؟».

ابتسم إرلندور، وأشرق وجه ماريون لبرهة.

«الإصابة بجلطة دماغية أسوأ من ذلك. إنني أتحدث مثل أبله، ولا يمكنني تحريك رأسي».

«ما سبب كل هذا الكلام حول الشيوعيين؟».

«كان ذلك قبل بضع سنوات من انضمامك إلينا. متى كان ذلك مرة أخرى؟».

قال إرلندور: «1977».

«قلتَ إنك كنت مهتماً بالأشخاص المفقودين، أتذكَّرُ ذلك»، قال ماريون برايم. كانت قسمات وجهه تدل على أنه كان يتألم. أعاد وضع قناع الأوكسجين، وأسند ظهره مغمضاً عينيه. وانقضى وقت طويل. تلفَّت إرلندور حوله في الغرفة. كانت الشقة تذكِّره على نحو غير مريح بشقته.

«هل تريدني أن أستدعي شخصاً ما؟».

قال ماريون وهو ينزع القناع: «لا. يمكنك أن تساعدني في إعداد القهوة لنا لاحقاً. أحتاج فقط إلى استجماع قوتي. لكنك بالتأكيد تتذكَّر عندما وجدنا تلك الأجهزة».

«أي أجهزة؟».

«في بحيرة كلايفارفاتن. ألم يعد هناك أحد يتذكَّر شيئاً؟».

نظر ماريون إليه، وبصوت ضعيف راح يعيد سرد قصة الأجهزة التي وُجدت في البحيرة. وفجأةً تذكَّر إرلندور ما كان رئيسه السابق يتحدث عنه. لم يكن يتذكَّر القصة بوضوح، ولم يربطها مطلقاً بالهيكل العظمي المكتشَف

في البحيرة؛ بالرغم من أنه كان ينبغي عليه إدراك ذلك على الفور.

«في 10 أيلول 1973 رنَّ جرس الهاتف في مركز شرطة هافنارفيوردر. وجد ضفدعان بشريان من ريكيافيك - «لم يعودوا يُسمَّون ضفادع بشرية الآن»، قال ماريون وقهقه بألم - كومة أجهزة بالصدفة في البحيرة. كان ذلك على عمق عشرة أمتار. وسرعان ما أصبح واضحاً أن معظمها كان روسياً، وأن الأحرف السيريليكية كانت ممحية. استُدعي مهندسو الهاتف إلى المكان لفحصها، فأكدوا أنها كانت نوعاً من أجهزة الاتصال اللاسلكية والتنصت.

قال ماريون: «كانت هناك أكداس منها؛ مسجلات كاسيت، وأجهزة راديو، وأجهزة إرسال».

قال إرلندور: «هل تولَّيتَ القضية؟».

«كنت في البحيرة عندما أخرجوها، لكنني لم أكن مسؤولاً عن التحقيق. حصلت القضية على الكثير من الدعاية. حدث ذلك في ذروة الحرب الباردة، وكان معروفاً أنه كان هناك تجسس روسي في آيسلندا. بالطبع، الأميركيون كانوا يتجسسون أيضاً، لكنهم كانوا دولة صديقة، أما روسيا فكانت العدو».

«أجهزة إرسال لاسلكية؟!».

«أجل، وأجهزة استقبال. تبيَّن أن بعضها كان مولَّفاً على طول موجة القاعدة الأميركية في كافلافيك».

«إذاً، أنت تريد أن تربط بين الهيكل العظمي الذي تم العثور عليه في البحيرة وتلك المعدات؟».

«ما رأيك؟». قال ماريون ثم أغمض عينيه مجدداً.

«ربما، هذا ليس بعيد الاحتمال».

قال ماريون بإنهاك: «ضع ذلك في ذهنك».

«هل هناك شيء يمكنني فعله من أجلك؟ أي شيء يمكنني جلبه لك؟».

قال ماريون بعد فترة صمت طويلة: «إنني أشاهد أحياناً أفلاماً غربية». كان لا يزال مغمض العينين.

لم يكن إرلندور متأكداً مما إذا كان قد سمعه بشكل صحيح.

فقال: «تشاهد أفلاماً غربية؟ هل تقصد أفلام رعاة البقر؟».

«هل يمكنك أن تجلب لي فيلماً غربياً جيداً؟».

«أي نوع من الأفلام الغربية الجيدة؟».

قال ماريون بصوت متلاشٍ: «جون واين».

جلس إرلندور بجانب ماريون لبعض الوقت، في حال استيقظ رئيسه السابق مجدداً. كان منتصف الظهيرة يقترب. ذهب إلى المطبخ، وأعد القهوة وصبَّ فنجانين. تذكَّر أن ماريون كان يشرب القهوة من دون سكر مثله، ووضع فنجاناً بجانب ذراع الكرسي. لم يكن يعرف ماذا ينبغي عليه فعله سوى ذلك.

عصر ذلك اليوم، جاء سيغوردور أولي إلى مكتب إرلندور. لقد اتصل الرجل به مجدداً في منتصف الليل معلناً أنه سيقدم على الانتحار، فأرسل سيغوردور أولي سيارة شرطة إلى منزله لكنهم لم يجدوا أحداً. كان الرجل يعيش وحيداً في منزل صغير منعزل. اقتحم عناصر الشرطة المنزل بناءً على أوامر سيغوردور أولي، لكنهم لم يجدوا أحداً في الداخل.

قال سيغوردور أولي بعد وصف الحادثة: «اتصل بي مرة ثانية هذا الصباح. كان حينئذ قد عاد إلى منزله. لم يحصل شيء لكنني بدأت أسأم منه».

«هل هو الشخص الذي فقد زوجته وطفلته؟».

«أجل. إنه يلوم نفسه على نحو غير مبرر، ويرفض الاستماع إلى أي شيء غير ذلك».

«كانت تلك مصادفة محضة، أليس كذلك؟».

«ليس في عقله».

كان قد أُوكل لسيغوردور أولي مؤقتاً التحقيق في حوادث الطرق. في تلك الفترة، اصطدمت سيارة رينج روفر بإحدى السيارات عند أحد التقاطعات على طريق بريدهولت، وقُتلَت أم مع ابنتها ذات السنوات الخمس التي كانت تجلس في الخلف وتضع حزام الأمان. كان سائق الرينج روفر الثمل قد تجاوز الإشارة الحمراء، وكانت سيارة الضحيتين تقف في آخر صف طويل في اللحظة التي أسرعت فيها الرينج روفر متجاوزةً الإشارة الحمراء. فلو انتظرت الأم الإشارة الخضراء التالية لكانت سيارة الرينج روفر قد عبرت من دون أن تسبب أي ضرر وأكملت طريقها. ربما كان السائق الثمل سيتسبب بحادث في مكان آخر، ولكن ليس في ذلك التقاطع.

قال سيغوردور أولي لإرلندور: «ولكن، هكذا تحصل معظم الحوادث؛ مصادفات غير معقولة. وهذا ما لا يفهمه الرجل».

قال إرلندور: «مصادفته هذه تقتله. ينبغي عليك أن تُظهر شيئاً من

التفهُّم».

«التفهُّم؟! إنه يتصل بي في المنزل في منتصف الليل. كيف يمكنني أن أُظهر له أي تفهُّم؟».

كانت المرأة تتسوّق مع ابنتها في السوبرماركت في سمارالیند. وكانت تقف عند طاولة دفع الحساب عندما اتصل بها زوجها على هاتفها الخلوي ليطلب منها أن تجلب له سلّة صغيرة من الفراولة، ففعلت، لكن هذا أخَّرها بضع دقائق. وكان الرجل مقتنعاً بأنه لو لم يتصل بها، لما كانت عند التقاطع عندما اصطدمت بها الرينج روفر، ولهذا السبب كان يحمِّل نفسه المسؤولية. لقد وقع الحادث لأنه اتصل بها.

كان مشهد الحادث مروِّعاً؛ إذ كانت سيارة المرأة محطمة لدرجة أنه لم يعد بالإمكان إصلاحها، في حين كانت الرينج روفر منقلبة خارج الطريق. تعرَّض السائق لإصابة خطرة في الرأس وكسور مضاعفة، وكان فاقد الوعي عندما وصلت سيارة الإسعاف وأخذته إلى المستشفى. أما الأم والبنت فقد توفيتا على الفور. وقد اضطرَّ المسعفون إلى قص السيارة من أجل إخراجهما، وكان الدم يسيل على الطريق.

ذهب سيغوردور أولي لزيارة الزوج مع رجل دين. كانت السيارة مسجلة باسم الزوج. وكان في ذلك الحين قد بدأ يشعر بالقلق على زوجته وابنته، فأُصيب بصدمة عندما رأى سيغوردور أولي ورجل الدين عند الباب. وعندما أخبراه بما حدث، انهار فوراً فاتصلا بطبيب. ومنذ ذلك الحين، بات يتصل بشكل متقطع ورغماً عن إرادته بسيغوردور أولي الذي أصبح أشبه بشخص موثوق بالنسبة إليه.

قال سيغوردور أولي: «لا أريد أن أكون الرجل اللعين الذي يصغي لاعترافاته. لكنه لا يدعني وشأني. اتصالات في الليل، وأحاديث حول قتله نفسه! لماذا لا يتابع زياراته إلى رجل الدين؟ لقد ذهب إلى هناك أيضاً».

«اطلب منه أن يستشير طبيباً نفسياً».

«إنه يرى واحداً بشكل دوري».

قال إرلندور: «بالطبع، يستحيل أن تضع نفسك مكانه. لا بد أن معاناته فظيعة».

قال سيغوردور أولي: «أجل».

«وهل يحاول الانتحار؟».

«هكذا يقول. وهو قادر بسهولة على فعل شيء غبي. لا يمكنني ببساطة تحمُّل كل هذا».

«ما هو رأي بيرجثورا؟».
«تعتقد أنني أستطيع مساعدته».
«فراولة؟».
«أعرف. أخبره دائماً. إنه أمر مضحك».

9

جلس إرلندور وسيغوردور أولي واستمعا لتقرير حول شخص فُقد في الستينيات. هذه المرة، كان رجلاً في أواخر عقده الثالث.

لقد أشار الفحص الأولي للهيكل العظمي إلى أن الجثة المكتشفة في كلايفارفاتن كانت تعود لرجل يبلغ من العمر ما بين 35 و40 عاماً. واستناداً إلى عمر الجهاز الروسي المرافق، يُعتقَد أن الجهاز قد تُرك في البحيرة في وقت ما بعد العام 1961. لقد أُجريت دراسة مفصَّلة على الصندوق الأسود المكتشَف تحت الهيكل العظمي، وتبيَّن أنه جهاز تنصُّت – كان يُعرَف في تلك الأيام باسم مستقبل موجات عالية التردد- قادر على اعتراض التردد المستخدَم من قبل الناتو في الستينيات. وكان معلَّماً بسنة تصنيعه 1961، لكن العلامة لم تُمحَ تماماً، وتلك النقوش كانت روسية بوضوح، لكنها كانت تنتظر تحليل رموزها.

اطّلع إرلندور على تقارير صحفية من العام 1973 حول المعدات الروسية التي اكتُشفت في بحيرة كلايفارفاتن، فتبيَّن له أن معظم ما أخبره به ماريون برايم كان يتفق مع تلك التقارير. لقد اكتُشفت الأجهزة على عمق عشرة أمتار، على مسافة قريبة من رأس جيرشوفدي، في مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الذي وُجد فيه الهيكل العظمي. أخبر إرلندور سيغوردور أولي وإيلينبورغ بذلك، وناقشا إمكانية أن تكون الأجهزة ذات صلة بهيكلهم العظمي. كانت إيلينبورغ تعتقد أن هذا جلي. ولو أن الشرطة استكشفت المكان بشكل أوسع عندما وجدت المعدات الروسية، لربما كانت قد وجدت الجثة أيضاً.

وفقاً لتقارير شرطية في ذلك الحين، رأى الغطاسون سيارة ليموزين سوداء على الطريق إلى كلايفارفاتن عندما ذهبوا إلى هناك في الأسبوع السابق. ظنوا على الفور أنها سيارة دبلوماسية. لم تُجب السفارة السوفييتية على الاستفسارات المتعلقة بالقضية، وكذلك الأمر بالنسبة لممثلي دول أوروبية شرقية أخرى في ريكيافيك. وجد إرلندور تقريراً وجيزاً يذكر أن المعدات روسية، وكانت تتضمن أجهزة تنصت يبلغ مداها 160 كيلومتراً، ولعلها كانت تُستخدَم لاعتراض محادثات هاتفية في ريكيافيك وحول قاعدة كيفلافيك. ويُعتقَد أن تاريخ تصنيع تلك الأجهزة يعود للستينيات، وكانت تستخدم الصمامات التي أبطلتها تقنية الترانزيستور، وتُشغَّل بالبطاريات، ويمكن وضعها داخل حقيبة عادية.

كانت المرأة الجالسة قبالتهما توشك أن تبلغ السبعين من عمرها، لكنها كانت بصحة ممتازة. لم تكن قد أنجبت أطفالاً بعد عند اختفاء شريكها المفاجئ. لم يكونا متزوجين، لكنهما كانا قد ناقشا الذهاب إلى المسؤول عن تسجيل الزواج. ولم تعش مع أي شخص آخر منذ ذلك الحين؛ أخبرتهما ذلك بخجل إلى حد ما، لكن صوتها وَشَى بوجود شيء من الندم أيضاً.

قالت المرأة: «كان لطيفاً جداً، وكنت دائماً أعتقد أنه سيعود. كان الاعتقاد بذلك أفضل من التفكير في أنه كان ميتاً. لم يكن بوسعي تقبُّل ذلك. ولم أتقبّله مطلقاً».

لقد وجدا لنفسيهما شقة صغيرة، وكانا ينويان إنجاب الأطفال. كانت تعمل في أحد المحلات التابعة لسلسلة محلات تبيع منتجات الحليب، وحصل هذا في عام 1968.

قالت لإرلندور: «لا بد أنك تذكرها». ثم نظرت إلى سيغوردور أولي وقالت: «وربما أنت أيضاً. كانت محلات مختصة ببيع الحليب والألبان وما يشبه ذلك. لا شيء إلا منتجات الحليب».

هز إرلندور رأسه بهدوء، في حين كان سيغوردور أولي قد فَقَدَ الاهتمام مسبقاً.

أخبرها شريكها أنه سيقلّها من العمل كما كان يفعل كل يوم، فانتظرته أمام المحل لكنه لم يأتِ.

قالت وهي تنظر إلى إرلندور: «لقد مضت على ذلك أكثر من ثلاثين عاماً الآن، وأشعر كما لو أنني لا أزال أقف أمام المحل وأنتظر. كل هذه السنوات. كان دقيقاً في مواعيده دائماً، وأذكر أنني قلت لنفسي: كم تأخَّر! بعد مضي عشر دقائق فقط، ثم بعد مضي أول ربع ساعة ونصف ساعة. أذكر كم كان الوقت طويلاً. بدا لي كما لو أنه نَسيَني».

تنهَّدتْ ثم أضافت: «في ما بعد، أصبح الأمر كما لو أنه لم يكن موجوداً قطّ».

لقد قرآ التقارير التي تقول إنها أبلغت عن اختفائه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. وقد ذهبت الشرطة إلى منزلها، وأُبلغ عن اختفائه في الصحف والراديو والتلفزيون. أخبرها رجال الشرطة أنه سيظهر حتماً بعد وقت قريب، وسألوها إن كان يعاقر الشراب أو إن سبق له أن اختفى بهذه الطريقة من قبل، أو إذا كانت تعرف بوجود امرأة أخرى في حياته، فأنكرت كل ذلك، لكن هذه الأسئلة جعلتها تفكر في الرجل بطريقة

مختلفة كلياً. هل كانت هناك امرأة أخرى؟ هل كان غير مخلص؟ كان بائعاً يجوب مختلف أنحاء البلد. كان يبيع المعدات والآليات الزراعية؛ مثل الجرّارات والحفّارات والبلدوزرات، وكان يسافر كثيراً. وبعض رحلاته الطويلة كانت تستغرق أحياناً عدة أسابيع. وكان قد عاد من واحدة من تلك الرحلات قبل أيام قليلة فقط من اختفائه.

قالت وهي تنقِّل نظراتها بين المحققَيْن: «لا أعرف ماذا يمكن أن يفعل في كلايفارفاتن. لم نقصد ذلك المكان مطلقاً».

لم يخبراها بشأن أجهزة التجسس السوفييتية أو الجمجمة المكسورة، وإنما فقط عن الهيكل العظمي الذي وُجد في المكان الذي جفَّت فيه مياه البحيرة، وأنهما كانا يحققان حول أشخاص أُبلغ عن اختفائهم في فترة محددة.

قالت المرأة: «لم يتعرَّف أي شخص على شريكي من الأوصاف التي نُشرت. ولم تكن لدي صور له. وهو لم يكن يملك صوراً لي. لم تكن قد مضت مدة طويلة على علاقتنا، ولم نكن نملك كاميرا. لم نذهب معاً إلى أي مكان. ألا يستخدم الناس الكاميرات غالباً حينئذ؟».

قال سيغوردور أولي: «وفي العيد».

قالت موافقة: «أجل، في العيد».

«وماذا عن والديه؟».

«كانا قد توفيا قبل ذلك بمدة طويلة. لقد أمضى زمناً طويلاً في الخارج، وعمل على متن سفن تجارية، وعاش في بريطانيا وفرنسا أيضاً. كان يتكلم بلكنة خفيفة، بسبب غيابه كل تلك المدة. حوالى ثلاثين حافلة كانت قد غادرت المحطة متوجهةً إلى مختلف أنحاء آيسلندا بين وقت اختفائه والوقت الذي وُجدت فيه السيارة في محطة الحافلات، لكن أياً من السائقين لم يستطع القول إنه كان موجوداً على متن إحدى تلك الحافلات. لم يكونوا يظنون ذلك. كانت الشرطة واثقة أن شخصاً ما كان سيلاحظه لو كان على متن إحدى الحافلات، لكنني أعرف أنهم كانوا يحاولون مواساتي فقط. أعتقد أنهم كانوا يفترضون أنه كان يعاقر الشراب في المدينة، وأنه سيظهر في النهاية. قالوا إن بعض الزوجات القلقات كن يتصلن بالشرطة عندما كان أزواجهن يعاقرون الشراب خارج المنزل».

سكتت المرأة لبعض الوقت ثم قالت: «لا أعتقد أنهم حققوا في الأمر بعناية شديدة. لم أشعر بأنهم كانوا مهتمين على نحو خاص بالقضية».

قال إرلندور: «لماذا تعتقدين أنه أخذ السيارة إلى محطة الحافلات؟».

رأى إرلندور سيغوردور أولي يدوّن ملاحظات حول عمل الشرطة.

«لم تكن لدي أدنى فكرة».

«هل تعتقدين أن شخصاً آخر يمكن أن يكون قد قادها إلى هناك؟ كي يضللك ربما، أو يضلل الشرطة؟ ليجعل الناس يعتقدون أنه غادر المدينة؟».

«لا أعرف. بالطبع، لقد تساءلت كثيراً عمّا إذا كان قد قُتل ببساطة. لكنني لا أفهم من يُفترَض أن يكون قد فعل ذلك. وما لا أفهمه أكثر هو: لماذا؟ لا أفهم ذلك وحسب».

قال إرلندور: «غالباً ما تكون مصادفة بسيطة. لا حاجة إلى أن يكون هناك تفسير دائماً. في آيسلندا، نادراً ما يكون هناك دافع حقيقي خلف الجريمة. فإما أن تكون حادثة أو قراراً سريعاً. أي إنها ليست متعمدة، وفي أغلب الحالات تُرتكَب من دون سبب واضح».

بحسب تقارير الشرطة، ذهب الرجل في رحلة مبيعات قصيرة في وقت مبكر من ذلك اليوم، وكان ينوي العودة إلى المنزل بعدها. كان هناك مربِّي أبقار خارج ريكيافيك مهتماً بشراء جرّار، وكان الرجل يخطط لزيارته كي ينهي عملية البيع. قال المزارع إن الرجل لم يتصل به مطلقاً، وإنه انتظره طوال اليوم لكنه لم يأتِ.

قال سيغوردور أولي: «كل شيء يبدو رائعاً، وبعد ذلك يجعل نفسه يختفي. ماذا حدث برأيك الشخصي؟».

«إنه لم يجعل نفسه يختفي. لماذا تقول ذلك؟».

قال سيغوردور أولي: «لا، آسف. بالتأكيد لا. لقد اختفى. آسف».

قالت المرأة: «لا أعلم. كان في بعض الأحيان مكتئباً قليلاً وصامتاً ومنغلقاً على نفسه. ربما لو كان لدينا أطفال... ربما كان سيتغير كل شيء لو كان لدينا أطفال».

سكت الجميع، وتخيَّل إرلندور المرأة وهي تنتظر خارج محل الألبان والأجبان بقلق وخيبة أمل.

قال إرلندور: «هل كان على صلة بأي من السفارات في ريكيافيك؟».

«السفارات!».

قال إرلندور: «أجل، السفارات. هل كان على صلة بها، سفارات أوروبا الشرقية بالتحديد؟».

«لا، أبداً. إنني لا أفهم... ماذا تعني؟».

«ألم يكن يعرف أي شخص من السفارات؟ أقصد شخصاً يعمل

لصالحها أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«لا، بالتأكيد لا، أو على الأقل ليس بعد أن قابلته. ليس على حد علمي».

قال إرلندور: «ما هو نوع السيارة التي كان يملكها؟». لم يتذكَّر إرلندور أنه قرأ أي ذكر لنوع السيارة في الملفات.

«كانت فورد. أعتقد أنها كانت فالكون».

«من ملفات القضية، لا يبدو أنه كانت هناك أي أدلة في السيارة على اختفائه».

«لا، لم يتمكنوا من إيجاد أي شيء. سُرق أحد أغطية العجلات، ولكن هذا كل شيء».

قال سيغوردور أولي: «أمام محطة الحافلات!».

«هذا ما كانوا يعتقدونه».

«غطاء عجلة؟».

«أجل».

«ماذا حدث للسيارة؟».

«بعتها. كنت بحاجة إلى نقود. لم أملك قطّ الكثير من النقود».

تذكَّرَت رقم لوحة الرخصة، فكرّرته بشكل تلقائي لهما، فدوَّنه سيغوردور أولي. أومأ إرلندور له، فوقفا وشكراها على الوقت الذي منحتهما إيّاه. ظلت المرأة جالسة على كرسيها. فكَّر إرلندور بأنها كانت حتماً تشعر بوحدة مرَّة.

فسألها، لا لشيء، وإنما لمجرد قول شيء ما: «من أين كانت تأتي كل تلك الآليات التي كان يبيعها؟».

«الآليات الزراعية؟ كانت تأتي من روسيا وألمانيا الشرقية. كان يقول إنها لم تكن جيدة مثل الآليات الأميركية، لكنها كانت أرخص بكثير».

لم يكن باستطاعة إرلندور أن يتخيل ماذا كان سيندري سناير يريد منه. كان ابنه مختلفاً تماماً عن أخته إيفا التي كانت تشعر بأن إرلندور لم يضغط بما يكفي للتمتع بحقه برؤية ولديه. لم يكونا ليعرفا بأنه كان موجوداً لو لم تكن أمهما تتحدث عنه بالسوء دائماً. عندما كبرت إيفا بحثت عن والدها إلى أن وجدته، ونفَّست عن غضبها بقسوة. أما سيندري فلم يكن يملك الهدف نفسه على ما يبدو. فهو لم يستجوب والده بشأن تدمير عائلته، ولم يُدنْه لعدم اهتمامه به وبإيفا عندما كانا مجرد طفلين

يعتقدان أن أباهما كان سيئاً لأنه تخلى عنهما.

عندما وصل إرلندور إلى المنزل كان سيندري يسلق السباجيتي. كان المطبخ مرتَّباً؛ ما يعني أنه رمى بضعة أكياس وجبات خاصة بالمايكروويف، وغسل بضع شوكات، ونظَّف داخل ماكينة القهوة وخارجها. دخل إرلندور إلى غرفة الجلوس، وشاهد أخبار التلفزيون. كان الهيكل العظمي من بحيرة كلايفارفاتن الخبر الخامس. لقد حرصت الشرطة على عدم ذكر الأجهزة السوفييتية.

جلسا، وأكلا السباجيتي بصمت. كان إرلندور يقطِّعها بشوكته ويمسحها بالزبدة، في حين كان سيندري يغمسها بالكاتشَب ويزمُّ شفتيه ويشفطها. سأله إرلندور عن أمه، فقال سيندري إنه لم يسمع أي شيء منها منذ أن جاء إلى المدينة. بدأ برنامج حواري مع نجم موسيقى شعبية كان يروي انتصاراته في الحياة.

قال سيندري فجأة وهو يمسح فمه بمنديل ورقي: «أخبرتني إيفا ليند في الأيام الأولى من السنة بأنك كنت تملك شقيقاً توفي».

«هذا صحيح». قال إرلندور بعد لحظات من التفكير، فهو لم يكن يتوقع سماع ذلك.

«قالت إيفا إن ذلك ترك أثراً كبيراً عليك».

«هذا صحيح».

«ويفسِّر قليلاً شخصيتك».

«يفسِّر شخصيتي؟! لا أعلم ما هي شخصيتي، ولا إيفا أيضاً».

تابعا الأكل، سيندري يشفط السباجيتي، وإرلندور يبذل جهداً لموازنتها على شوكته. فكر إرلندور في سرّه أنه سيشتري بعض الشوفان المجروش والسجق الإسكتلندي المخلَّل في المرة الثانية التي يمرُّ فيها بجانب أحد المحلات.

قال سيندري: «إنها ليست غلطتي».

«ماذا؟».

«أنا بالكاد أعرف من أنت».

قال إرلندور: «لا، إنها ليست غلطتك».

تابعا الأكل بصمت. وضع سيندري شوكته، ومسح فمه بمنديل ورقي مرة ثانية، ثم وقف وأخذ فنجان قهوة كبيراً وملأه بالماء من الصنبور، ثم جلس مجدداً بجانب المائدة.

«قالت إنه لم يُعثَر عليه قطّ».

«أجل، هذا صحيح. لم يُعثَر عليه قطّ».

«إذاً، هو لا يزال هناك؟».

توقف إرلندور عن الأكل، ووضع شوكته على المائدة.

قال وهو ينظر إلى عيني ابنه: «أتوقع ذلك، أجل. إلى أين تريد أن تصل بهذا الكلام؟».

«هل تبحث عنه في بعض الأحيان؟».

«أبحث عنه!؟».

«هل ما زلت تبحث عنه؟».

«ماذا تريد مني يا سيندري؟».

«كنت أعمل في الشرق. في إسكيفيوردر. لم يكونوا يعرفون أننا...» بحث سيندري عن الكلمة المناسبة... «نعرف بعضنا. ولكن، بعد أن أخبرتني إيفا بتلك القصة عن أخيك، بدأت أسأل السكان المحليين، أقصد الكبار الذين كانوا يعملون في مصنع الأسماك معي».

«بدأت تسأل عني!».

«ليس بشكل مباشر. ليس عنك. سألت عن الأيام القديمة، والناس الذين اعتادوا العيش هناك والمزارعين. أبوك كان مزارعاً، صحيح؟ جدي».

لم يُجب إرلندور.

قال سيندري: «بعضهم كان يتذكَّرها بشكل جيد».

«يتذكرون ماذا؟».

«يتذكرون الصّبيين اللذين ذهبا إلى الجبال مع أبيهما، ومات أصغرهما، كما يتذكرون انتقال العائلة إلى ريكيافيك بعد ذلك».

«أي أشخاص كنت تتحدث معهم؟».

«أشخاص يعيشون بعيداً في الشرق».

قال إرلندور بحدة: «هل كنت تتجسس عليّ؟».

«لم أكن أتجسس عليك على الإطلاق. أخبرتني إيفا ليند بالحادثة، وأنا سألت الناس حول ما حدث».

«وماذا حدث؟».

«كان الطقس مجنوناً. وصل والدك إلى المنزل واستدعى فريق الإنقاذ. وُجدتَ مدفوناً في كومة ثلج. لم يشترك والدك في البحث. قال الناس إنه غرق في الحزن، وبعد ذلك فقدَ توازنه».

قال إرلندور بغضب: «فقدَ توازنه! هذا غير صحيح!».

تابع سيندري كلامه: «أمك كانت أشد صلابة. كانت تخرج للبحث عنه

كل يوم مع فريق الإنقاذ، وبعد فترة طويلة من ذلك. إلى أن انتقلتم بعد سنتين، كانت دائماً تذهب إلى البراري للبحث عن ابنها. كان ذلك هاجساً بالنسبة إليها».

«كانت تريد أن يتسنّى لها دفنه. إذا كنت تسمّي هذا هاجساً».

«أخبرني الناس عنك أيضاً».

«ينبغي عليك عدم الإصغاء للإشاعات».

«قالوا إن الصبي الأكبر، الصبي الذي أُنقذ، كان يعود إلى المنطقة بشكل منتظم ويجوب الجبال والبراري. يمكن أن تفصل بين زياراته سنوات، وقد مضت على آخر زيارة له عدة سنوات الآن، لكنهم دائماً يتوقَّعون مجيئه. إنه يذهب بمفرده، مع خيمة، ويستأجر بعض الخيول ويتوجَّه إلى الجبال، ويعود بعد أسبوع أو عشرة أيام، أو ربما أسبوعين، ثم يقود سيارته ويغادر. إنه لا يتحدث مع أي شخص إلا عندما يستأجر الخيول؛ وحتى عندئذ لا يتحدث كثيراً».

«هل الناس في الشرق البعيد لا يزالون يتحدثون عن ذلك؟».

قال سيندري: «لا أظن ذلك. ليس كثيراً. كنت فضولياً وحسب، وتحدثت مع أشخاص كانوا يتذكرون الأمر ويتذكرونك. تحدثتُ إلى المزارع الذي تستأجر منه الخيول».

«لماذا فعلت ذلك؟ أنت لا...».

«قالت إيفا ليند إنها فهمتك بشكل أفضل بعد أن أخبرتَها حول الأمر. إنها ترغب في التحدث عنك دائماً، أما أنا فلا أفكّر فيك أبداً. لا يمكنني أن أفهم ما الذي تمثِّلُه بالنسبة إليها. إنك لا تهمُّني أبداً. ولا بأس في ذلك بالنسبة إلي. إنني سعيد لأنني لست بحاجة إليك. ولم أحتج إليك يوماً. أما إيفا فتحتاج إليك. لطالما احتاجت إليك».

«أحاول أن أفعل كل ما بوسعي من أجل إيفا».

«أعرف. أخبرتني بذلك. أحياناً تعتقد أنك تتدخَّل في شؤونها، لكنني أظن أنها تفهم ما تحاول فعله من أجلها».

قال إرلندور: «البقايا البشرية يمكن إيجادها بعد مرور جيل بأكمله؛ حتى بعد مئات السنين، بمحض الصدفة. هناك قصص كثيرة حول ذلك».

قال سيندري وهو ينظر إلى رفوف الكتب: «إنني واثق من هذا. أخبرتني إيفا أنك تشعر بالمسؤولية عما حدث له؛ لأنك أفلتّ يده. ألهذا السبب تذهب إلى الشرق للبحث عنه؟».

«أعتقد أن...». لم يكمل إرلندور الجملة.

سأله سيندري: «أبسبب ضميرك؟».
أجاب إرلندور مع ابتسامة غامضة: «لا أعرف إن كان ضميري أم لا».
«لكنك لم تجده مطلقاً».
«لا».
«ولهذا السبب تعود».
«أحب الذهاب إلى الشرق، وتغيير المحيط، والبقاء مع نفسي قليلاً».
«رأيتُ المنزل الذي كنت تعيش فيه. إنه مهجور منذ سنوات طويلة».
قال إرلندور: «أجل. منذ سنوات طويلة جداً. إنه شبه متداعٍ. أحياناً أخطط لتحويله إلى منزل صيفي، ولكن...».
«إنه في مكان معزول».
نظر إرلندور إلى سيندري وقال: «إنه لشيء لطيف النوم هناك؛ مع الأشباح».

عندما خلدا للنوم في تلك الليلة، فكَّر إرلندور في كلام ابنه. كان سيندري محقاً. لقد ذهب إلى الشرق عدة مرات خلال الصيف للبحث عن شقيقه. لم يكن باستطاعته الإفصاح عن السبب، عدا عن السبب الواضح، وهو إيجاد بقاياه وإغلاق القضية؛ بالرغم من أنه كان يعرف في داخله أن إيجاد أي شيء في تلك المرحلة كان أملاً يائساً. كان دائماً ينام في المنزل القديم المهجور في الليلة الأولى والأخيرة. كان ينام على أرضية غرفة المعيشة، وينظر عبر النوافذ المكسورة إلى السماء، ويفكر في تلك الأيام البعيدة؛ عندما كان يجلس في الغرفة نفسها مع عائلته وأقربائه أو الناس المحليين. كان ينظر إلى الباب المطلي بعناية، ويرى أمه تدخل إلى الغرفة حاملةً إبريق القهوة، وتملأ فناجين الضيوف تحت أضواء غرفة المعيشة. كان والده يقف عند الباب ويبتسم لشيء قيل. يدخل أخوه الخجل بسبب الضيوف، ويسأله إن كان بوسعه تناول كعكة أخرى. أما هو فكان يقف بجانب النافذة وينظر إلى الخيول. لقد جاء ضيوف آخرون على صهوات جيادهم، فرحين وصاخبين.
تلك هي أشباحه.

10

بدا ماريون برايم أكثر نشاطاً بقليل عندما زاره إرلندور في صباح اليوم التالي. لقد نجح في إيجاد فيلم لجون واين بعنوان الباحثون، وبدا أنه أفرح ماريون الذي طلب منه وضعه في مشغِّل أفلام الفيديو.

قال إرلندور: «منذ متى تشاهد أفلام الغرب المتوحش؟».

«لطالما أحببت أفلام الغرب المتوحش». كان قناع الأوكسجين مستلقياً على الطاولة بجانب الكرسي في غرفة الجلوس. «أفضلها تتحدث عن قصص بسيطة حول أناس بسطاء. كنت أعتقد أنك ستستمتع بهذا النوع من القصص. قصص غربية. رجل بسيط ريفي مثلك».

قال إرلندور: «لم تعجبني السينما قطّ».

قال ماريون: «هل تحققون أي تقدم في كلايفارفاتن؟».

قال إرلندور: «ما الذي يعنيه اكتشاف هيكل عظمي يعود إلى الستينيات مربوط بجهاز تنصُّت روسي؟».

«هل هناك سوى احتمال واحد؟».

«تجسس؟».

«أجل».

«هل تعتقد أنه يمكن أن يكون جاسوساً آيسلندياً أصيلاً في البحيرة؟».

«من قال إنه آيسلندي؟».

«أليس هذا افتراضاً مباشراً معقولاً؟».

«ليس هناك ما يدفع للقول إنه آيسلندي». قال ماريون هذا، ثم هاجمته نوبة سعال مفاجئة، وأصبح يجد صعوبة في التنفس. «أعطني الأوكسجين، أشعر بحال أفضل عندما أحصل على الأوكسجين».

مدَّ إرلندور يده، وأمسك بالقناع، ووضعه على وجه ماريون، ثم فتح صنبور أسطوانة الأوكسجين. تساءل إن كان ينبغي عليه استدعاء ممرضة أم طبيب، وبدا أن ماريون قد قرأ أفكاره.

فقال: «اهدأ. لا أحتاج إلى المزيد من المساعدة. ستأتي الممرضة لاحقاً».

«لا ينبغي علي إرهاقك بهذه الطريقة».

«لا تذهب الآن. أنت الزائر الوحيد الذي لا أتضايق من التحدث إليه. والشخص الوحيد الذي يمكنه – بتصوري - أن يعطيني سيجارة».

«لن أعطيك سيجارة».

صمتا إلى أن رفع ماريون القناع مجدداً.

قال إرلندور: «هل تجسَّسَ أي آيسلندي خلال الحرب الباردة؟».

«لا أعرف. أعرف أن أشخاصاً حاولوا استمالة آخرين لفعل ذلك. أتذكَّرُ رجلاً جاء إلينا وأخبرنا أن الروس لم يكونوا يتركونه وشأنه». أغمض ماريون عينيه. «كانت قصة تجسسية غريبة على نحو استثنائي، ولكنها آيسلندية جداً بالطبع».

كان الروس قد اتصلوا بالرجل ليسألوه إن كان بإمكانه مساعدتهم. كانوا بحاجة إلى معلومات حول قاعدة كيفلافيك ومبانيها. أخذ الروس المسألة بجدية، وأرادوا مقابلة الرجل في مكان منعزل خارج المدينة. وهو وجدهم لحوحين جداً، ولم يستطع التخلص منهم. وبالرغم من أنه رفض فعل ما طلبوه منهم، إلا أنهم لم يصغوا إليه، وفي النهاية استسلم لهم. اتصل الرجل بالشرطة، وأُعدَّت خطة سرية بسيطة. عندما انطلق الرجل بالسيارة لمقابلة الروس بجانب بحيرة هافرافاتن، كان هناك شرطيان معه في السيارة، وكانا مختبئين تحت بطانية، في حين أخذ أفراد آخرون من الشرطة مواقعهم في أماكن مجاورة. لم يشتبه الروس في أي شيء إلى أن خرج رجلا الشرطة من سيارة الرجل واعتقلاهما.

قال ماريون مع ابتسامة متألمة لفكرة محاولات الروس الهاوية في التجسس. «لقد طُردا. أتذكَّر اسميهما دائماً، كيسيليف وديمتريييف».

قال إرلندور: «أردت أن أعرف إن كنت تتذكر شخصاً من ريكيافيك فُقد في الستينيات؛ رجلاً كان يبيع آليات وحفَّارات زراعية. لم يأتِ لمقابلة مزارع خارج المدينة، ولم يُسمَع عنه أي شيء منذ ذلك الحين».

«أتذكر ذلك جيداً. نيلز استلم القضية؛ السافل الكسول».

قال إرلندور الذي كان يعرف نيلز: «أجل، تماماً. كان الرجل يقود سيارة فورد فالكون وُجدت خارج محطة الحافلات. وكان غطاء إحدى العجلات مفقوداً».

«ألم يكن يريد التخلص من فتاته القديمة؟ حسبما أذكر كان هذا هو استنتاجنا؛ أقصد أنه قتل نفسه».

«ربما».

أغمض ماريون عينيه ثانيةً. جلس إرلندور على الأريكة بصمت لبعض الوقت، وشاهد الفيلم أثناء نوم ماريون. كانت علبة شريط الفيديو تحوي مقطعاً تعريفياً بالفيلم يقول إن جون واين يمثِّل دور محارب اتحادي قديم من الحرب الأهلية الأميركية يتعقب الهنود الذين قتلوا شقيقه وزوجته واختطفوا ابنتهما. أمضى الجندي سنوات في البحث عن الفتاة، وعندما

وجدها أخيراً كانت قد نسيت من أين أتت وأصبحت هي نفسها هندية.

بعد عشرين دقيقة، نهض إرلندور وقال وداعاً لماريون الذي كان لا يزال نائماً؛ تحت القناع.

عندما وصل إلى مركز الشرطة، جلس إرلندور مع إيلينبورغ التي كانت تكتب خطابها من أجل حفل ترويج الكتاب، وسيغوردور أولي في مكتب إيلينبورغ. قال سيغوردور أولي إنه تتبَّع تاريخ بيع سيارة الفورد فالكون إلى آخر مالكيها.

قال سيغوردور أولي: «بيعت السيارة إلى تاجر قطع تبديل في كوبافوغر قبل العام 1980 ببعض الوقت. لا تزال الشركة تعمل، لكنهم لا يجيبون على الهاتف. لعلهم في عطلة».

سأل إرلندور: «هل ثمة شيء جديد من خبراء الأدلة الجنائية حول جهاز التنصُّت؟». لاحظ إرلندور أن إيلينبورغ تحرك شفتيها بينما كانت تحدِّق إلى شاشة الكمبيوتر؛ كما لو أنها كانت تجرِّب كيف سيبدو الخطاب.

قال بشكل مفاجئ: «إيلينبورغ!».

رفعت إصبعها طالبةً منه الانتظار.

قرأتْ بصوت عالٍ من الشاشة: «... وآمل أن يجلب لكم كتابي هذا متعة دائمة في المطبخ ويوسِّع آفاقكم. حاولتُ أن أبقيه واضحاً وبسيطاً، كما حاولت التركيز على روح الأسرة، لأن الطبخ والمطبخ هما مركز اهتمام...».

قال إرلندور: «جيد جداً».

قالت إيلينبورغ: «انتظرْ... مركز اهتمام كل أسرة جيدة؛ حيث تجتمع العائلة كل يوم للاسترخاء والاستمتاع بأوقات سعيدة معاً».

قال سيغوردور أولي: «إيلينبورغ».

سألت إيلينبورغ بوجه مستفهم: «هل هو عاطفي جداً؟».

قال سيغوردور أولي: «إنه يجعلني أشعر بالغثيان».

نظرت إيلينبورغ إلى إرلندور، فسألها: «ماذا قال خبراء الأدلة الجنائية حول الجهاز؟».

أجابته إيلينبورغ: «لا يزالون يفحصونه. يحاولون الاتصال بخبراء من شركة آيسلاند تيليكوم».

قال سيغوردور أولي: «كنت أفكر في جميع المعدات التي وُجدت في كلايفارفاتن منذ سنوات، وفي الجهاز المربوط مع الهيكل العظمي. ألا ينبغي علينا التحدث مع رجل عجوز ما من السلك الدبلوماسي؟».

قال إرلندور: «بلى. جدْ من يمكننا التحدث معه؛ شخصاً يتذكر الحرب

الباردة».

قالت إيلينبورغ: «هل نتحدث عن تجسس في آيسلندا؟».

قال إرلندور: «لا أعلم».

سألت إيلينبورغ: «أليس هذا سخيفاً للغاية؟».

قال سيغوردور أولي: «ليس أكثر سخافة من قولك حيث تجتمع العائلة كل يوم للاسترخاء والاستمتاع بأوقات سعيدة معاً».

قالت إيلينبورغ: «أوه، اخرسْ». ومحت ما كتبته.

كانت السيارات الخربة تُجمَّع خلف سياج كبير في أكداس تبلغ في بعض الأماكن ست سيارات فوق بعضها بعضاً. بعضها لم يكن بالإمكان إصلاحه، في حين كان البعض الآخر مجرد سيارات قديمة بالية. وكان تاجر قطع التبديل يبدو تماماً مثلها. فهو رجل منهك يقارب الستين، يرتدي أوفيرول ممزقاً وقذراً كان لونه ذات يوم أزرق فاتحاً. كان يحاول خلع مصد أمامي من سيارة يابانية جديدة أُصيبت من الخلف فتجعَّدت كالأكورديون حتى المقعدين الأماميين.

كان إرلندور واقفاً يقيِّم الحطام إلى أن رفع الرجل رأسه وشاهده.

قال الرجل: «اصطدمت شاحنة كبيرة بمؤخرها. لحسن الحظ، لم يكن هناك أحد على المقعد الخلفي».

«إنها سيارة جديدة تماماً أيضاً».

«عم تبحث؟».

«أبحث عن فورد فالكون سوداء. بيعت أو أُعطيت لهذه الساحة في العام 1980 تقريباً».

«فورد فالكون؟».

قال إرلندور: «لا أمل فيها بالطبع، أعرف».

قال الرجل وهو يُخرج قطعة قماش لمسح يديه: «لا بد أنها كانت قديمة عندما أُحضِرت إلى هنا. لقد توقفوا عن صنع سيارات الفالكون قرابة العام 1970، وربما قبل ذلك».

«أتعني أنك لم تستخدم أي شيء منها؟».

«معظم سيارات الفالكون اختفت من الطرقات قبل وقت طويل من عام 1980. لماذا تبحث عنها؟ هل تحتاج إلى قطع تبديل؟ هل ستصلحها؟».

أخبره إرلندور أنه من الشرطة، وأن السيارة مرتبطة بقضية قديمة حول شخص مفقود؛ الأمر الذي أثار اهتمام الرجل فقال له إنه اشترى

هذه الشركة من رجل يُدعى هوكر في منتصف الثمانينيات، لكنه لا يذكر أي فورد فالكون في الساحة. وأضاف التاجر أن المالك القديم، الذي مات قبل سنوات، كان يحتفظ بسجل لكل السيارات المحطمة التي اشتراها، وقاد إرلندور إلى غرفة صغيرة مليئة حتى السقف بملفات وصناديق مليئة بالأوراق.

قال الرجل مع ابتسامة معتذرة: «هذه هي ملفاتنا. نحن لا نرمي أي شيء أبداً. تفضَّل وألقِ نظرة. لم يكن بوسعي تكبُّد عناء الاحتفاظ بسجلات السيارات، لم أفهم الغاية من ذلك، لكنه كان يحرص على فعل ذلك».

شكره إرلندور، وبدأ بتفحّص الملفات التي كانت معلَّمة بإحدى السنوات على ظهر كل ملف. وعندما رأى كدسة تعود للسبعينيات، بدأ منها. لم يكن يعرف لماذا كان يبحث عن هذه السيارة، وحتى لو كانت موجودة، لم يكن يعرف كيف يمكن أن يساعده هذا الاكتشاف. لقد سأله سيغوردور أولي حول سبب اهتمامه بهذا الشخص المفقود بالذات دون الآخرين الذين اختفوا في السنوات السابقة. لم يكن إرلندور يملك إجابة مناسبة. لم يكن سيغوردور أولي سيفهم قطّ ما يعنيه لو أخبره إرلندور أنه كان مسكوناً بصورة امرأة وحيدة اعتقدت أنها وجدت السعادة أخيراً. كانت تقف بقلق خارج محل للألبان والأجبان، وتنظر إلى ساعتها، وتنتظر الرجل الذي أحبَّته.

بعد ثلاث ساعات، عندما أوشك إرلندور على الاستسلام، وجد ما كان يبحث عنه: فاتورة السيارة. لقد باع التاجر سيارة فورد فالكون سوداء في 21 تشرين الأول 1979، المحرك غير قابل للإصلاح، الداخل في حالة مقبولة، الطلاء جيد. كانت الفاتورة مثبتة بمشبك مع ورقة تصف عملية البيع بأنه تم الاتفاق عليها مبدئياً: فالكون 1967. 35,000 كرونر. المشتري: هيرمان ألبيرتسون.

11

كان السكرتير الأول في السفارة الروسية في ريكيافيك يماثل إرلندور من حيث العمر، لكنه كان أكثر نحافةً، ويبدو من هيئته أنه أفضل صحةً بدرجة ملحوظة. بدا واضحاً أثناء استقباله لهما في مكتبه أنه كان يبذل جهداً خاصاً كي يبدو طبيعياً. ورغم أنه كان يرتدي سروالاً كاكياً فقد قال لهما - مع ابتسامة – إنه كان في طريقه إلى ملعب الجولف. أرشدهما إلى مقعديهما، ثم جلس خلف طاولة مكتب ضخمة، ورسم ابتسامة عريضة على وجهه. استغرب إرلندور سماعه حجة لعب الجولف لأن موعد الاجتماع حُدِّد مسبقاً، وقبل وقت طويل نسبياً، ثم أدرك أن ذلك يعني الاستعجال في الاجتماع ثم المغادرة. وبالرغم من أن السكرتير الأول كان يعرف سبب التحقيق، إلا أن إيلينبورغ كرّرت بشكل موجز الحاجة للقاء؛ متحدثةً باللغة الإنكليزية. لقد وُجد جهاز تنصُّت روسي مربوطاً بهيكل عظمي لرجل يُعتقَد أنه قُتل ورُمي في بحيرة كلايفارفاتن بعد وقت ما من العام 1961 . ولم يكن خبر اكتشاف الجهاز الروسي قد سُرِّب بعد إلى الصحافة.

قال السكرتير مبتسماً بثقة كما لو أن أياً مما قالاه لم يكن يعنيه في شيء: «كان هناك عدد من السفراء السوفييت والروس في آيسلندا منذ العام 1960. وأولئك الذين كانوا هنا في الستينيات وبداية السبعينيات ماتوا منذ وقت طويل. وأشك في أنهم كانوا يعرفون أي شيء حول المعدات الروسية في تلك البحيرة. والأمر نفسه ينطبق عليّ».

ابتسمَ فبادله إرلندور الابتسام وقال: «لكن، هل تجسستم هنا في آيسلندا خلال الحرب الباردة؟ أو على الأقل حاولتم».

قال السكرتير: «كان هذا قبل زمني. لا يمكنني تأكيد ذلك».

«هل تعني أنكم لم تعودوا تتجسسون الآن؟».

«ولماذا نتجسس؟ نحن ندخل إلى الإنترنت مثل الآخرين جميعاً. وإضافة إلى ذلك، إن قاعدتكم العسكرية لم تعد مهمة جداً الآن؛ هذا إن كانت مهمة في الأساس. لقد تغيرت مناطق الصراع، ولم تعد أميركا بحاجة لحاملة طائرات في آيسلندا. لا أحد يمكنه أن يفهم ماذا يفعلون هنا مع تلك القاعدة المكلفة. لو كنّا في تركيا لكان بوسعي الفهم».

قالت إيلينبورغ: «إنها ليست قاعدتنا».

وأردف إرلندور: «نعلم أن بعض موظفي السفارة طُردوا من آيسلندا للاشتباه بالتجسس؛ عندما كانت الأمور متوترة جداً في الحرب الباردة».

قال السكرتير: «يبدو أنك تعرف أكثر مني». ثم أضاف موجِّهاً كلامه إلى إيلينبورغ: «وبالطبع إنها قاعدتكم. إذا كنا نملك جواسيس في هذه السفارة حينئذ، فمن المؤكد أن عدد عملاء السي آي أيه في السفارة الأميركية كانوا ضعف عددهم. هل سألتموهم؟ إن وصف الهيكل العظمي الذي وجدتموه يوحي إليَّ – كيف يمكنني التعبير عن ذلك- بعملية قتل مافيوية. هل خطر لكم ذلك؟ ثقل إسمنتي مربوط بالقدمين ومياه عميقة. كأنه فيلم عصابات أميركي».

قال إرلندور: «كان جهاز روسي مربوطاً بالجسد. الهيكل العظمي...».

قال السكرتير: «هذا لا يخبرنا بأي شيء. كانت هناك سفارات أو مكاتب من بلدان أخرى من حلف وارسو تستخدم المعدات الروسية. لا يمكن ربط ذلك بسفارتنا بالضرورة».

«بحوزتنا وصف مفصَّل للجهاز، وصور»، قالت له إيلينبورغ وهي تعطيه إياها، «هل يمكنك أن تخبرنا أي شيء حول كيفية استخدامه؟ ومن كان يستخدمه؟».

أجابها السكرتير وهو ينظر إلى الصور: «لست مطَّلعاً على هذا الجهاز. آسف. لكنني سأستفسر عنه. ولكن، حتى لو تعرَّفنا عليه، فليس بوسعنا مساعدتكم كثيراً».

سأله إرلندور: «ألا يمكنك أن تجرِّب؟».

ابتسم السكرتير وقال: «يتوجَّب عليك أن تصدِّقني. ليست هناك أي علاقة للهيكل العظمي في البحيرة بهذه السفارة أو بموظفيها. لا في الوقت الحاضر ولا في الماضي».

قالت إيلينبورغ: «نعتقد أنه جهاز تنصُّت. إنه مولَّف على الموجة القديمة للقوات الأميركية في كيفلافيك».

رد السكرتير وهو ينظر إلى ساعته: «لا يمكنني التعليق على هذا». كانت جولة الجولف تنتظره.

سأله إرلندور: «إذا كنتم تتجسسون في الماضي، وهو ما لم تفعلوه، فبماذا يمكن أن تهتموا؟».

تردَّد السكرتير لوهلة، ثم قال: «إذا كنا نقوم بأي شيء من هذا القبيل حينئذ فمن الواضح أننا كنا نرغب في مراقبة القاعدة؛ حركة المعدات العسكرية، وتحركات السفن الحربية، والطائرات، والغواصات. كنا سنرغب في معرفة القدرة الأميركية في أي وقت. هذا واضح. كنا سنرغب في معرفة ما كان يجري في القاعدة والمنشآت العسكرية الأخرى في آيسلندا.

كانت في جميع أنحاء البلاد وليس فقط في كيفلافيك. كانت هناك أنشطة في مختلف أرجاء آيسلندا. كنا أيضاً سنراقب أنشطة السفارات الأخرى؛ السياسة المحلية، والأحزاب السياسية، ومثل هذه الأشياء».

قال إرلندور: «وُجدت معدات كثيرة في بحيرة كلايفارفاتن في العام 1973: أجهزة إرسال، مستقبلات موجات عالية التردد، مسجِّلات أشرطة، وحتى أجهزة راديو. كلها من بلدان حلف وارسو. ومعظمها من الاتحاد السوفييتي».

قال السكرتير: «لست على علم بالحادثة».

قال إرلندور: «لا، بالطبع لا. ولكن، ما هو السبب الذي يمكن أن يكون وراء رمي كل تلك المعدات في البحيرة؟ هل كنتم تستخدمون طريقة معينة للتخلص من الأشياء القديمة؟».

أجابه السكرتير بجفاء: «أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك في هذا الخصوص. حاولت أن أجيبكما عن أسئلتكما بأقصى استطاعتي، ولكن هناك أشياء لا أعرفها ببساطة. وهذا كل شيء».

وقف إرلندور وإيلينبورغ. كان هناك شيء من التعجرف لدى ذلك الرجل لم يعجب إرلندور. قاعدتكم! ماذا يعرف عن القواعد العسكرية في آيسلندا؟

سأله إرلندور: «هل بطُل استخدام الجهاز ولهذا لم تكن هناك جدوى من إعادته إلى البلد في حقيبة دبلوماسية؟ ألم يكن بوسعكم رميه مثل أي قمامة أخرى؟ هذا الجهاز يُظهر بوضوح أن التجسس كان سارياً في آيسلندا؛ عندما كان العالم أشد بساطة وكانت الخطوط مرسومة بوضوح».

رد السكرتير عليه وهو يقف: «يمكنك قول ما شئت حوله. يجب عليّ أن أكون في مكان آخر».

«الرجل الذي وُجدت جثته في كلايفارفاتن، هل يمكن أن يكون موظفاً في السفارة؟».

«أعتقد أن هذا خارج موضوع النقاش».

«أو من سفارة أخرى من الجبهة الشرقية؟».

«لا أعتقد أن هذا ممكن أبداً. والآن، لا بد أن أطلب منكما الـ -».

«هل هناك أشخاص مفقودون لديكم من تلك الفترة؟».

«لا».

«هل أنت متأكد من ذلك؟! ألستَ بحاجة إلى التحقق؟».

«لقد تحققت. لا يوجد أي شخص مفقود».

«ألا يوجد أشخاص اختفوا وأنت لا تعرف ما حصل لهم؟».
ردّ السكرتير مبتسماً: «الوداع». كان قد فتح الباب مسبقاً.
سأله إرلندور بينما كان يخرج من الباب إلى الممر: «ألم يختفِ أي شخص قطعاً؟».
أجابه السكرتير: «لا أحد». وأغلق الباب في وجهيهما.

رُفض طلب سيغوردور أولي لمقابلة السفير الأميركي أو مساعديه، وتلقى بدلاً من ذلك رسالة من السفارة معلَّمة بدمغ «سري» تفيد بعدم الإبلاغ عن اختفاء أي مواطن أميركي في آيسلندا خلال الفترة المذكورة. كان سيغوردور أولي يريد متابعة المسألة والإصرار على إجراء لقاء، لكن طلبه رُفض من كبار المسؤولين في قسم التحقيقات الجنائية. كانت الشرطة بحاجة إلى شيء ملموس يربط الجثة المكتشفة في البحيرة بالسفارة الأميركية أو القاعدة الأميركية أو المواطنين الأميركيين في آيسلندا.
اتصل سيغوردور أولي برئيس أحد الأقسام في إدارة الدفاع التابعة لوزارة الشؤون الخارجية - وكان صديقه - ليسأله إن كان بوسعه تحديد أي موظف سابق يمكنه أن يخبر الشرطة حول موظفي سفارة أجنبية في الستينيات والسبعينيات. حاول أن يكشف له عن أقل قدر ممكن من المعلومات الخاصة بالتحقيق كي يثير اهتمامه، فوعده صديقه بالاتصال به لاحقاً.

وقف إرلندور بصورة تنمُّ عن عدم ارتياح، حاملاً بيده كأساً، ومتمعِّناً في الحشد المجتمع في حفل ترويج كتاب إيلينبورغ. لقد وجد صعوبة بالغة في اتخاذ قراره بشأن الحضور، لكنه في النهاية قرر الذهاب. كانت التجمعات تزعجه؛ رغم قلّة ما اختبره منها. رشف من كأسه وتجهَّم، لأن الشراب كان مرّاً، وتذكَّر بحزن الزجاجة في بيته.
ابتسم لإيلينبورغ التي كانت تقف ضمن الحشد وتلوِّح له. كانت تتحدث للصحافة. لقد حصل كتابها على الكثير من الدعاية، وذلك لأنها امرأةٌ من قسم التحقيقات الجنائية في ريكيافيك والكتاب حول الطبخ، لكن إرلندور كان مسروراً لرؤية إيلينبورغ مستمتعةً بذلك الاهتمام. ذات يوم، دَعَتْهُ وسيغوردور أولي وزوجته بيرجثورا للعشاء من أجل اختبار طبق دجاج هندي جديد قالت إنه سيكون في الكتاب. وقد كانت الوجبة غنية بالتوابل ولذيذة لدرجة أنهم أكثروا من مدح إيلينبورغ إلى أن احمرَّ وجهها خجلاً.

لم يكن إرلندور يعرف الكثير من الحضور باستثناء أفراد الشرطة، وقد شعر بالارتياح عندما رأى سيغوردور أولي وبيرجثورا قادمين نحوه.

قالت بيرجثورا وهي تقبِّله على وجنته: «حاولْ أن تبتسم مرةً واحدة عندما ترانا». شرب نخباً، ثم شربوا معاً نخب نجاح إيلينبورغ.

سألته بيرجثورا: «متى سنلتقي المرأة التي تقابلها؟». لاحظ إرلندور توتُّر سيغوردور أولي بجانبها، وذلك لأن قلَّة من الأشخاص كانوا يتجرّأون على التحدث في المسألة، رغم أن علاقة إرلندور كانت موضوع حديث قسم التحقيقات الجنائية.

أجابها إرلندور: «ذات يوم ربما. في ذكرى ميلادك الثمانين».

قالت بيرجثورا: «لا أستطيع الانتظار». ابتسم إرلندور، ثم أضافت بيرجثورا وهي تستعرض الحشد بناظريها: «من كل هؤلاء الناس؟».

قال سيغوردور أولي: «أعرف عناصر الشرطة فقط. وأعتقد أن كل أولئك البدناء هناك من معارف إيلينبورغ».

قالت بيرجثورا وهي تلوِّح لزوج إيلينبورغ: «ذاك تيدي».

نقر شخص ما بملعقة على كأس فتوقفت الهمهمة. وفي الزاوية البعيدة من القاعة، بدأ رجل بالتحدث، فلم يتمكنوا من سماع أي كلمة مما قاله، لكن الجميع ضحكوا. شاهدوا إيلينبورغ تشق طريقها نحوه، وتُخرج الخطاب الذي كتبته. اقتربوا ببطء شديد كي يسمعوها، لكنهم لم ينجحوا إلا في التقاط كلمات شكرها الختامية لعائلتها وزملائها لصبرهم ودعمهم. ثم صفَّق الحضور.

سألهم إرلندور الذي بدا كما لو أنه يستعد للمغادرة: «هل ستبقون لوقت طويل؟».

قالت بيرجثورا: «لا تكن غبياً. استرخِ. متِّع نفسك قليلاً».

التقطت كأساً من الصينية القريبة، ثم قالت: «أفرغْ هذا في جوفك».

جاءت إيلينبورغ وحيَّتهم جميعاً مع طبع قبلة على خدِّ كل واحد منهم، ثم سألتهم إن كانوا يشعرون بالملل، ونظرت إلى إرلندور فأخذ جرعة كبيرة من الشراب المر. ثم بدأت وبيرجثورا الحديث حول شخصية تلفزيونية شهيرة كانت موجودة في القاعة ومرتبطة بعلاقة بأحد رجال الأعمال. صافح سيغوردور أولي شخصاً لم يكن إرلندور يعرفه، وكان إرلندور يوشك على الخروج خلسةً عندما صادف زميلاً قديماً له. كان الرجل يقترب من التقاعد، وكان إرلندور يعرف أن ذلك يخيفه.

«سمعت حول ماريون»، قال الرجل ورشف من كأسه. «رئتان تالفتان.

هكذا قيل لي. إنه يقبع في المنزل فقط ويعاني».

قال إرلندور: «هذا صحيح. ويشاهد أفلام الغرب المتوحش».

سأله الرجل: «هل كنتَ تجري تحقيقات حول سيارة فالكون؟». ثم أفرغ كل كأسه في جوفه، وأمسك كأساً أخرى من صينية كانت بجانبهما. «فالكون!؟».

«كانوا يتحدثون حولها في المركز. كنتَ تتقصى المعلومات حول أشخاص مفقودين على علاقة بالهيكل العظمي الذي وُجد في كلايفارفاتن».

سأله إرلندور: «هل تتذكر أي شيء حول الفالكون؟».

«لا، ليس تماماً. لقد وجدناها خارج محطة الحافلات. كان نيلز مسؤولاً عن التحقيق. رأيته هنا الآن. إنه كتاب جيد ذاك الذي كتبته تلك الفتاة. كنت أتصفَّحه منذ قليل. صور جيدة».

«أعتقد أن الفتاة التي تتحدث عنها في العقد الرابع. وأجل، إنه كتاب جيد حقاً».

بحث إرلندور عن نيلز فوجده جالساً على حافة نافذة عريضة. جلس بجانبه، وتذكَّر كم كان يحسده ذات يوم. كان نيلز يملك تاريخاً طويلاً في الشرطة، وعائلة يفخر بها أي شخص؛ فزوجته رسامة معروفة، وقد أنجبا أربعة أولاد حازوا كلهم على شهادات جامعية، وكانوا في ذلك الحين يزوِّدونهما بسلسة متعاقبة من الأحفاد. وكان الزوجان يمتلكان منزلاً كبيراً في ضاحية جرافارفوغر – مصمَّماً على نحو رائع من قبل الفنانة نفسها- وسيارتين، ولم يكن هناك شيء يُلقي بأي ظل على سعادتهما الأبدية. أما إرلندور فكان في بعض الأحيان يتساءل إن كانت هناك إمكانية لأن تكون الحياة أكثر سعادةً أو نجاحاً. لم يكونا صديقين مقرَّبين قط، فإرلندور كان يجده دائماً كسولاً وغير مناسب لعمل المحقق. ولم يفلح نجاح نيلز الشخصي في التقليل من مشاعر إرلندور السلبية نحوه.

قال نيلز عندما جلس إرلندور بجانبه: «ماريون مريض حقاً، كما أسمع».

«مع ذلك، أنا على ثقة أنه لا يزال يملك بعض الوقت»، قال إرلندور بعكس تخمينه الحقيقي. «كيف العمل؟».

سأله هذا السؤال بدافع التهذيب فقط، لأنه كان يعرف تماماً كيف يعمل نيلز دائماً.

أجابه نيلز: «لقد توقفت عن محاولة الفهم. لقد اعتقلنا الشخص نفسه لمحاولته السرقة خمس مرات في عطلة نهاية أسبوع واحدة. وفي كل

مرة، يعترف ويُطلَق سراحه لأن القضية حُلَّت، ثم يدخل مجدداً إلى مكان آخر، ويُعتقَل، ويُطلَق سراحه، وبعد ذلك يعيد الكرَّة في مكان مختلف. هذا غباء. لماذا لا يضعون نظاماً هنا لإرسال مثل هؤلاء الحمقى مباشرة إلى السجن؟ إنهم يرتكبون نحو عشرين جريمة قبل أن يصدر بحقهم الحكم الأدنى بالسجن. وبعد ذلك، في اللحظة التي يخرجون فيها تحت الاختبار نقوم باعتقالهم من جديد. ما الفائدة من مثل هذا الجنون؟ لماذا لا يُعطى هؤلاء السفلة الحكم المناسب؟».

قال إرلندور: «لن تجد نظاماً أشد سوءاً من النظام القضائي الآيسلندي».

ردّ نيلز عليه: «أولئك الحمقى يسخرون من القضاة. ثم هنالك المعتدون على الأطفال! والمضطربون ذهنياً!».

صمتا معاً. كان النقاش حول التساهل يضرب عصباً حساساً عند أفراد الشرطة الذين كانوا يجلبون المجرمين والمغتصبين والمعتدين إلى السجن، ثم يسمعون لاحقاً أنهم مُنحوا أحكاماً خفيفة أو أن بعضها عُلِّق تنفيذه.

قال إرلندور: «هناك شيء آخر. هل تذكر الرجل الذي كان يبيع الآليات الزراعية؟ كان يقود فورد فالكون. وقد اختفى من دون أثر».

«أتقصد السيارة خارج محطة الحافلات؟».

«أجل».

«كانت لديه فتاة جميلة، ذلك الرجل. ماذا حصل لها برأيك؟».

قال إرلندور: «إنها لا تزال تنتظر. كان أحد أغطية العجلات مفقوداً من السيارة. هل تتذكر ذلك؟».

«افترضنا أنه سُرق حتماً من خارج محطة الحافلات. لم يكن ثمة أي شيء في القضية يوحي بوجود نشاط جرمي؛ بعيداً عن غطاء العجلة المسروق ربما. إذا كان قد سُرق. يُحتمل أن يكون قد اصطدم بحافة الرصيف. أياً يكن الأمر، لم يُعثَر عليه قطّ؛ شأنه في ذلك شأن من كان يقود السيارة».

سأله إرلندور: «لماذا سيقتل نفسه؟ كان كل شيء يسير في صالحه. حبيبة جميلة، مستقبل مشرق، فورد فالكون».

أجابه نيلز: «أنت تعرف أن كل هذا لا يهم عندما يُقدم الناس على الانتحار».

«هل تعتقد أنه ركب حافلة إلى مكان ما؟».

«اعتقدنا أن ذلك كان ممكناً، إن كنتُ أتذكر بشكل صحيح. تحدثنا

إلى السائقين لكنهم لم يتذكروه. ومع ذلك، هذا لا يعني أنه لم يركب حافلة إلى خارج المدينة».

«هل تظن أنه انتحر؟».

أجابه نيلز: «أجل، ولكن...». تردَّد قليلاً.

«ماذا؟».

«كان ذلك الرجل يلعب لعبة ما».

«كيف؟».

«قالت إن اسمه ليوبولد لكننا لم نتمكن من العثور على أي شخص بهذا الاسم في العمر الذي أخبرَتنا به. لم يكن هناك أي شخص في ملفاتنا أو في السجل الوطني. لا شهادة ميلاد. لا رخصة قيادة. لم يكن يوجد أي ليوبولد يمكن أن يكونه ذاك الرجل».

«ماذا تقصد؟».

«إما أن السجلات الخاصة به قد فُقدت أو...».

«أو كان يخدعها؟».

قال نيلز: «لم يكن يُدعى ليوبولد على الأقل».

«ماذا قالت بشأن ذلك؟ ماذا قالت الصديقة عندما سألتموها حول الأمر؟».

أجاب نيلز بعد لحظات من التفكير: «تولَّد لدينا شعور بأنه كان يخدعها. شعرنا بالأسى حيالها. لم تكن تملك حتى صورة له. بماذا يخبرك ذلك؟ لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك الرجل».

«إذاً؟».

«لم نخبرها».

«لم تخبروها بماذا؟».

ردّ نيلز: «بأننا لم نكن نملك ملفات حول ليوبولد ذاك. كان الأمر واضحاً بالنسبة إلينا. لقد كذب عليها ثم تركها».

صمت إرلندور بينما كان يحاول استيعاب مضامين ما قاله نيلز.

قال نيلز: «مراعاةً لها».

«ألا تزال جاهلة بذلك؟».

«لا أظن ذلك».

«لماذا أبقيتم ذلك سراً؟».

«ربما بدافع الشفقة».

قال إرلندور: «إنها لا تزال تنتظره. كانا سيتزوجان».

«هذا ما أقنعها به قبل مغادرته».

«ماذا لو أنه قُتل؟».

«اعتقدنا حينها أن هذا غير مرجَّح. إنه سيناريو نادر، لكنه بالتأكيد ليس معدوماً. فالرجال يكذبون للدخول إلى حياة بعض النساء، ثم... كيف ينبغي أن أعبِّر عن ذلك، يسترخون، وبعد ذلك يختفون. أعتقد أنها كانت تعرف ذلك في أعماقها. لم نكن بحاجة إلى إخبارها».

«وماذا عن السيارة؟».

«كانت باسمها. كان قرض شرائها مسجلاً باسمها. كانت تمتلك السيارة».

«كان ينبغي عليكم إخبارها».

«ربما. ولكن، هل كان ذلك سيجعلها أفضل حالاً؟ كانت ستعلم أن الرجل الذي أحبته كان مخادعاً وخائناً للثقة. لم يخبرها بأي شيء عن عائلته. ولم تكن تعلم أي شيء عنه. لم يكن يملك أصدقاء. وكان دائماً يسافر في جولات مبيعات في مختلف أنحاء البلاد. بماذا يخبرك ذلك؟».

أجابه إرلندور: «كانت تعرف أنها تحبه».

«وبتلك الطريقة عاملها ردّاً على حبها».

«ماذا قال المزارع؟ أقصد الرجل الذي كان ذاهباً لمقابلته؟».

«كل هذا موجود في الملفات». قال نيلز ذلك مع إيماءة من رأسه وابتسامة لإيلينبورغ التي كانت منغمسة في الحديث مع ناشرها. ذكرت إيلينبورغ مرةً أن اسمه أنتون.

«هيا، ليس كل شيء يدخل الملفات».

قال نيلز: «لم يقابل ذلك المزارع». لاحظ إرلندور كيف كان نيلز يحاول استرجاع تفاصيل القضية. كلهم كانوا يتذكرون القضايا الكبيرة: جرائم القتل أو حالات الاختفاء، كل عملية اعتقال هامة، كل اعتداء واغتصاب.

قال إرلندور: «ألم يكن بوسعكم المعرفة من الفالكون إن كان قد التقى المزارع أم لا؟».

«لم نجد أي شيء في السيارة يشير إلى أنه ذهب إلى المزرعة».

«هل أخذتم عينات من الأرضية بجانب المقعدين الأماميين، تحت الدوّاسات؟».

«هذا موجود في الملفات».

«لم أره. كان بوسعكم التأكد مما إذا كان قد زار المزرعة أم لا. كانت ستعلق أشياء على حذائه».

«لم تكن قضية معقدة يا إرلندور، ولم يشأ أحد أن يحوِّلها إلى قضية

معقدة. لقد أخفى الرجل نفسه. ربما يكون قد انتحر. نحن لا نجد الجثث دائماً. أنت تعلم ذلك. وحتى لو وجدنا شيئاً ما تحت الدواسات، فهذا يمكن أن يكون من أي مكان. كان يسافر كثيراً ويبيع آليات زراعية».

«ماذا قالوا في مكان عمله؟».

فكَّر نيلز في السؤال قبل أن يجيب قائلاً: «حدث هذا منذ وقت طويل جداً إرلندور».

«حاولْ أن تتذكر».

«لم يكن على سجل الرواتب، أذكر ذلك، وهذا كان نادراً في تلك الأيام. كان يتقاضى نسبة من أرباح المبيعات ويعمل بشكل مستقل».

«ما يعني أنه كان يتوجب عليه دفع ضرائبه بنفسه».

«كما قلتُ، لم يكن هناك أي ذكر له في السجلات تحت اسم ليوبولد. لا شيء».

«حسناً، أنت تفترض أنه كان يمرح مع تلك المرأة عندما يتواجد في ريكيافيك، لكنه كان يعيش في مكان آخر».

قال نيلز: «بل حتى كان يملك عائلة. يوجد أشخاص مثله».

رشف إرلندور من شرابه، ونظر إلى عقدة ربطة عنق نيلز المثالية تحت ياقة قميصه. لم يكن محققاً جيداً. بالنسبة إليه، لم تكن هناك أية قضية معقدة.

«كان ينبغي عليكم إخبارها بالحقيقة».

«قد يكون ذلك صحيحاً، لكنها كانت تملك ذكريات سعيدة عنه. واستنتجنا أن القضية لم تكن جنائية. لم يُحقَّق في الاختفاء قطّ على أنه جريمة؛ نظراً إلى عدم العثور على أي أدلة تبرر ذلك».

توقفا عن الحديث لأن همهمة الضيوف أصبحت جداراً صلباً من الضجيج.

سأل نيلز: «ما زلتَ مهتماً بأولئك الأشخاص المفقودين. لماذا هذا الاهتمام؟ عم تبحث؟».

«لا أعرف».

قال نيلز: «كان اختفاءً روتينياً. كنا بحاجة إلى شيء آخر لتحويل التحقيق إلى تحقيق في جريمة قتل. لم تظهر أية أدلة تدعم هذا التوجُّه».

«لا، ربما لا».

سأله نيلز: «ألا تسأم من كل هذا أبداً؟».

«أحياناً».

«وابنتك، إنها تتورط دائماً في المشكلة القديمة نفسها». قال نيلز الذي يعلم أن أولاده المتعلمين الأربعة أسسوا عائلات جميلة، وكانوا يعيشون حيوات مثالية، لا شائبة فيها؛ مثله تماماً.

كان إرلندور يعلم أن المركز بأكمله كان يعلم بأمر اعتقال إيفا ليند ومهاجمتها لسيغوردور أولي. كانت الشرطة تعتقلها في بعض الأحيان، لكنها لم تكن تتلقى أي معاملة خاصة لكونها ابنته. نظر إرلندور إلى نيلز، إلى ثيابه الأنيقة وأظافره المقلَّمة، وتساءل إن كانت الحياة السعيدة تجعل بعض الناس أكثر إثارة للسأم مما هم عليه في الأساس.

قال إرلندور: «أجل. إنها فاشلة كما هي دائماً».

12

عندما وصل إرلندور إلى المنزل في ذلك المساء لم يكن سيندري هناك للترحيب به. وخلد للنوم قبل منتصف الليل بقليل، ولم يكن ساندي قد أتى بعد. بحث إرلندور عن أي رسالة أو رقم هاتف كي يتصل به فلم يجد شيئاً. لقد افتقد صحبته. اتصل بخدمة الاستعلامات لكن رقم هاتف سيندري الخلوي لم يكن مسجَّلاً.

كان على وشك أن يغفو عندما رنّ الهاتف.

قالت إيفا ليند بصوت غير واضح: «هل تعلم أنهم يخدرونك هنا».

«كنتُ نائماً».

قالت إيفا: «إنهم يعطونك أقراصاً لتنويمك. لم أكن مخدرة إلى هذه الدرجة في حياتي. ماذا تفعل؟».

أجابها إرلندور: «أحاول النوم. هل كنت تسببين المشاكل؟».

قالت إيفا من دون أن تجيبه عن سؤاله: «زارني سيندري اليوم. قال إنكما تحدثتما».

«هل تعرفين أين هو؟».

«أليس معك؟».

ردّ إرلندور: «أعتقد أنه غادر. لعله في منزل أمك. هل يُسمَح لك بإجراء اتصالات هاتفية من ذلك المكان الذي تحبينه؟».

«من اللطيف سماع أخبارك أيضاً. وأنا لا أسبب أي مشكلة سافلة». وأنهت الاتصال في وجهه.

استلقى إرلندور على سريره محدِّقاً في الظلمة. فكَّر في ولديه، إيفا ليند وسيندري سناير، وأمهما التي كانت تكرهه. فكَّر في شقيقه الذي ظل يبحث عنه طوال تلك السنين من دون أي جدوى. كانت عظامه قابعة في مكان. ربما في أحد الشقوق العميقة، أو على قمة جبل شاهق الارتفاع، أعلى من قدرته على تخيُّل إمكانية حدوث ذلك؛ بالرغم من أنه قصد أماكن مرتفعة في المناطق الجبلية محاولاً استكشاف العلوّ الذي يمكن أن يبلغه فتىً في الثامنة تاه في ظروف سيئة وعاصفة ثلجية تعمي البصر.

«ألا تسأم من كل هذا أبداً؟».

ألا تسأم من هذا البحث الذي لا يعرف نهاية؟

فتح هيرمان ألبرتسون الباب له قبل منتصف ظهيرة اليوم التالي بقليل.

كان رجلاً يقارب الستين من عمره، نحيلاً، وسريع الحركة، ويرتدي سروال جينز بالياً وقميصاً قطنياً أحمر ذا مربعات، وابتسامته لا تكاد تفارق وجهه أبداً. كانت رائحة سمك حدوق مسلوق تنبعث من المطبخ. أخبر إرلندور، من دون أن يُسأَل، بأنه يعيش وحده، وكان كذلك على الدوام. كانت تفوح منه رائحة زيت محركات.

«تناولْ بعض الحدوق». قال لإرلندور عندما لحقه إلى المطبخ.

رفض إرلندور بصرامة، لكن هيرمان تجاهله وأعدَّ له مكاناً على الطاولة، وقبل أن يدري وجد نفسه جالساً مع شخص غريب، يتناول سمك حدوق نصف مسلوق وبطاطا مع الزبدة. كلاهما أكلا الطبقة السطحية من الحدوق والبطاطا، ولوهلة تحوَّلت أفكار إرلندور إلى إيلينبورغ وكتابها. عندما كانت تعمل على إنجاز الكتاب، استخدمته كفأر تجارب لتذوق سمكة مع صلصة اللومي المصفرَّة لاحتوائها على ربع كيلو من الزبدة. كان سلق السمكة يستغرق طوال النهار والليل إلى أن يبقى منها في أسفل القدر أربع ملاعق فقط. كانت إيلينبورغ تسهر طوال الليل من أجل إزالة الزبدة من الماء. الصلصة هي كل شيء، هذا هو شعار إيلينبورغ. ابتسم إرلندور لنفسه. كانت سمكة الحدوق لذيذة.

«أنا أصلحت سيارة الفالكون تلك»، قال هيرمان بينما كان يضع قطعة كبيرة من البطاطا في فمه. كان يعمل ميكانيكي سيارات، وعلى سبيل الهواية كان يعيد إصلاح السيارات القديمة ويحاول بيعها. أخبر إرلندور أن هذا الأمر كان يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، إذ لم يعد هناك أحد يهتم بالسيارات القديمة، وإنما فقط بسيارات الرينج روفر الجديدة التي لم تكن تواجه ظروفاً أقسى من الزحام المروري الخانق على الطريق إلى مركز المدينة.

سأله إرلندور: «هل ما زلت تملكها؟».

فقال هيرمان: «بعتها في العام 1987. إنني أملك كريسلر 1979 الآن، وهي تشبه الليموزين حقاً. مضى عليّ وأنا تحت سقفها حوالى ست سنوات».

«هل ستستبدلها بأي شيء؟».

«لا». قال هيرمان وهو يعرض عليه بعض القهوة. «ولا أريد بيعها أيضاً».

«أنت لم تسجل الفالكون عندما امتلكتها».

«لا، لم تكن فيها لوحات عندما كانت هنا. لقد عملت على إصلاحها

بضع سنوات، وكان ذلك مسلياً. كنت أقودها في الجوار، وإذا أردتُ أخذها إلى ثينجفيلر أو مكان ما كنت أستعير لوحتي سيارتي. لم أكن أعتقد أنها كانت تستحق دفع التأمين».

قال إرلندور: «لم نجدها مسجلة في أي مكان، أي إن المالك الجديد لم يشترِ لوحتي ترخيص لها أيضاً».

ملأ هيرمان فنجانين وقال: «قد لا يكون هذا ما حدث. لعله فقد الأمل وتخلى عنها».

«أخبرني شيئاً آخر. أغطية عجلات الفالكون، هل كانت مميزة بطريقة ما؟ هل كانت مطلوبة؟».

كان إرلندور قد طلب من إيلينبورغ أن تبحث على الإنترنت فوجدا في موقع « ford.com » صوراً لسيارات فورد فالكون قديمة. كانت إحداها سوداء، وعندما طبعت إيلينبورغ الصورة له، كانت أغطية العجلات بارزة بوضوح.

قال هيرمان مفكِّراً: «كانت بديعة تماماً. تلك الأغطية في السيارات الأميركية».

قال إرلندور: «أحد الأغطية كان مفقوداً في ذلك الحين».

«حقاً؟».

«هل اشتريت غطاء عجلة جديداً عندما حصلت عليها؟».

«لا، أحد المالكين السابقين اشترى مجموعة جديدة قبل مدة طويلة. لم تكن الأصلية موجودة عندما اشتريتها».

«هل كانت الفالكون سيارة مميزة؟».

أجابه هيرمان: «الشيء المميز فيها هو أنها لم تكن كبيرة. لم تكن ضخمة مثل معظم السيارات الأميركية؛ مثل سيارتي الكريسلر. كانت الفالكون صغيرة وفعّالة وجيدة للقيادة. ليست سيارة فاخرة على الإطلاق. كانت بعيدة جداً عن ذلك».

تبيَّن أن المالكة الأخيرة للسيارة أرملة تكبر إرلندور ببضع سنين وتعيش في كوبافوجر. لقد مات زوجها - وكان صانع مفروشات يهوى السيارات - من جراء نوبة قلبية قبل بضع سنوات.

قالت المرأة وهي تفتح باب المرأب لإرلندور: «كانت في حالة جيدة». كانت السيارة مغطاة بغطاء سميك من الجنفاص. سألها إرلندور إن كان بوسعه نزعه فأومأت برأسها موافقةً.

قالت بصوت ضعيف: «كان زوجي يهتم كثيراً بهذه السيارة. كان يقضي كل وقته هنا. لقد اشترى قطع تبديل غالية حقاً من أجلها. وكان يسافر إلى مختلف أنحاء البلاد لإيجادها».

سألها إرلندور بينما كان يكافح لحلِّ إحدى العقد: «ألم يكن يقودها مطلقاً؟».

«في الجوار فقط. مظهرها جميل، لكن أولادي غير مهتمين بها ولم يسعوا لبيعها. لا يوجد الكثير من المولعين بالسيارات القديمة في هذه الأيام. كان زوجي ينوي وضع لوحتي ترخيص عليها عندما مات. لقد مات في ورشته. كان معتاداً على العمل وحده. وعندما لم يأتِ لتناول الغداء ولم يُجب على الهاتف، أرسلت ابني إليه فوجده ممدداً على الأرض».

صرّح إرلندور: «لا بد أن ذلك كان قاسياً».

قالت المرأة: «هنالك مشاكل قلب في عائلته. ماتت أمه بهذه الطريقة، وكذلك ابن عمه».

راقبت إرلندور بينما كان يحل أربطة الغطاء. لم تعطِ انطباعاً بأنها كانت تفتقد لزوجها كثيراً. لعلها تغلّبت على حزنها وتحاول القيام ببداية جديدة.

سألتْه: «ما هي مشكلة هذه السيارة؟».

كان إرلندور لا يزال غير قادر على إيجاد طريقة لإخبارها عن سبب اهتمامه بالسيارة من دون الإفصاح عن ملابسات القضية؛ رغم أنها طرحت عليه السؤال نفسه عندما اتصل بها. كان يريد تجنب الخوض في التفاصيل، وعدم قول الكثير في ذلك الحين. حتى هو نفسه لم يكن يعرف تماماً سبب مطاردته لهذه السيارة، أو ما إذا كانت ستفيد القضية أم لا.

قال إرلندور بتردد: «كانت لها علاقة ذات مرة بمسألة تتعلق بالشرطة. أردت أن أعرف فقط إن كانت لا تزال موجودة أم لا، قطعة واحدة».

سألت المرأة: «هل كانت قضية شهيرة؟».

«لا، أبداً. ليست شهيرة على الإطلاق».

فسألته المرأة مجدداً: «هل تريد أن تشتريها أم...؟».

أجابها إرلندور: «لا. لا أريد أن أشتريها. السيارات القديمة لا تستهويني كثيراً».

«كما قلت، إنها في حالة جيدة. فالدي، زوجي، كان يقول إن المشكلة الأساسية تكمن في الطلاء التحتي. لقد صدأت فاضطر لمعالجة هذا الأمر. ما عدا ذلك، كانت على ما يُرام. أنزل فالدي المحرك، ونظَّف كل قطعة فيه،

واشترى قطعاً جديدة حين احتاج لذلك». سكتت قليلاً، ثم أضافت: «لم يكن لديه مانع في إنفاق المال على السيارة، في حين أنه لم يكن يشتري لي شيئاً قطّ. لكن الرجال يحبون ذلك».

جذب إرلندور الغطاء فانزلق عن السيارة وسقط على الأرض. وقف للحظات ينظر إلى الشكل الخارجي المصقول والجميل لسيارة الفورد فالكون التي كانت ذات يوم مملوكة من قبل الرجل الذي اختفى خارج محطة الحافلات. ركع بجانب إحدى العجلتين الأماميتين، وتساءل أين يمكن أن يكون قد انتهى المطاف بذلك الغطاء المفقود، كما كان مُفترضاً.

رنَّ هاتفه الخلوي في جيبه، وكان المتصل رئيس فريق الأدلة الجنائية الذي أخبره من دون أي مقدمات أو مجاملات أن الجهاز الروسي الذي عثر عليه في كلايفارفاتن لم يكن يعمل عندما وُضع في البحيرة.

قال إرلندور باستغراب: «أوه!».

قال رئيس فريق الأدلة الجنائية: «أجل. من المؤكد أنه كان بلا فائدة عندما أُنزل في الماء. قعر البحيرة رملي وذو مسامات، ومحتويات الصندوق متضررة لدرجة لا يمكن تفسيرها بوضعه في الماء. إنه لم يكن يعمل عندما وصل إلى هناك».

13

مشى الزوجان على الرصيف، الرجل متقدم على المرأة قليلاً. كان مساءً ربيعياً بديعاً، فأشعة الشمس كانت تسقط على سطح البحر، والمطر كان ينهمر في مكان بعيد. بدا له وكأن الزوجين لم يكونا متأثرين بالجمال الذي يحيط بهما. كانت خطواتهما سريعة، وبدا الرجل منفعلاً، إذ كان يتحدث من دون توقف، في حين كانت زوجته تلحقه بصمت محاولةً عدم التخلُّف عنه.

راقبهما إلى أن اجتازا نافذته، ثم نظر إلى الشمس، وعادت به أفكاره إلى الماضي عندما كان شاباً، وعندما بدأ العالم بالتحوّل ليصبح معقداً وخارجاً عن السيطرة إلى درجة غير معقولة.

عندما بدأت المأساة.

أنهى سنته الجامعية الأولى بتقدير ممتاز، وعاد إلى آيسلندا في الصيف. خلال العطلة، عمل في جريدة الحزب، وكتب مقالات حول إعادة إعمار لايبزيغ. وفي اجتماعات الحزب كان يصف تجربته كطالب هناك، ويناقش الروابط التاريخية والثقافية التي تربط بين آيسلندا ولايبزيغ. التقى قياديين في الحزب كانوا يعدُّون خططاً كبيرة من أجله. كان يتحرَّق شوقاً للعودة، وشعر أن لديه دوراً يلعبه، وربما دوره أكبر من أدوار الآخرين. قيل إنه شخص واعد إلى أبعد الحدود.

عاد إلى ألمانيا الشرقية في ذلك الخريف، كان ثاني كانون له في السكن الجامعي يقترب. تطلع الآيسلنديون إلى قدوم الخامس والعشرين من كانون لأن بعضهم كانوا ينتظرون طروداً من الأطعمة مُرسلة من الوطن: أطعمة آيسلندية لذيذة خاصة مثل لحم الحَمَل المدخَّن، والأسماك المملَّحة، والأسماك المجففة، والحلويات، وحتى الكتب أيضاً. كان كارل قد حصل مسبقاً على طرده، وعندما بدأ بسلق ساق حَمَل ضخمة من هونافاتنسيلسا - حيث كان عمه المزارع يعيش - ملأت الرائحة الفيلا القديمة. وكانت في الصندوق أيضاً زجاجة شنابس طلبها إميل.

وحدها روت كانت تستطيع دفع تكاليف العودة إلى آيسلندا من أجل الاحتفال. وكانت الوحيدة أيضاً التي شعرت بالحنين إلى الوطن بعد عودتها من العطلة الصيفية؛ حيث قال البعض إنها قد لا تعود عندما غادرت في العطلة. كانت الفيلا القديمة فارغة أكثر من المعتاد لأن معظم

الطلاب الألمان ذهبوا إلى منازلهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض الطلاب القادمين من أوروبا الشرقية حيث كان يُسمَح لهم بالسفر، وكانوا يُمنَحون تذاكر سفر رخيصة على متن القطار.

وهكذا، كانت مجموعة صغيرة تلك التي اجتمعت في المطبخ حول ساق الحمل المدخَّن وزجاجة الشنابس التي وضعها إميل في وسط الطاولة. قدَّم طالبان سويديان البطاطا، وجلب آخرون الملفوف الأحمر، في حين تمكَّن كارل بطريقة ما من تأمين صلصة بيضاء محترمة للحم. جاء لوثر وايزر - الراعي المحلي الذي كوَّن صداقات خاصة مع الآيسلنديين – لزيارتهم، فدعوه للانضمام إلى الوليمة. كلهم كانوا يحبون لوثر. كان شخصاً مسلياً ودمثاً، وكان مهتماً بشدة بالسياسة، وفي بعض الأحيان كان يستطلع آراءهم حول الجامعة ولايبزيغ والجمهورية الديمقراطية الألمانية والسكرتير الأول - والتر أولبريتش - واقتصاده الذي تتحكَّم به الحكومة. كان يتساءل إن كانوا يعتقدون أن أولتريتش وثيق الارتباط بالحكومة السوفييتية، وكان يسألهم بشكل متكرر عن الأحداث في هنغاريا، ومحاولات الرأسماليين الأميركيين لغرس إسفين في صداقتها مع الاتحاد السوفييتي عبر برامجهم الإذاعية وحملاتهم الدعائية المستمرة ضد الشيوعية. كان يشعر على نحو خاص أن الشبّان اليافعين كانوا سُذَّجاً وقابلين للانخداع بواسطة الحملات الدعائية وغير قادرين على رؤية النوايا الحقيقية للحكومات الرأسمالية الغربية.

عندما شرع لوثر بالحديث عن أولتريتش، قال كارل: «ألا يمكننا الاستمتاع قليلاً؟». ثم شرب جرعة من الشنابس، وغضَّن وجهه بصورة تنم عن اشمئزاز شديد وقال إنه لم يحب يوماً الشنابس الآيسلندي.

قال لوثر: «أجل، أجل، بالتأكيد». ثم ضحك وأضاف: «يكفي سياسة».

كان يتحدَّث بالآيسلندية التي قال إنه تعلَّمها في ألمانيا، وهذه عبقرية لغوية برأيهم، لأنه كان يتحدث اللغة بالطلاقة التي كانوا يتحدثون بها تقريباً، من دون أن يزور البلد ولو لمرة واحدة. وعندما سألوه كيف استطاع امتلاك هذه القدرة، أجابهم أنه كان يستمع لتسجيلات وبرامج إذاعية. وأكثر ما كان يسلّيهم هو عندما كان يغني لهم أغاني فولكلورية قديمة تُغنّى للأطفال كي يناموا.

وكانت هناك عبارة أخرى يكررها باستمرار، وهي «مطر وشيك»، أخذها من نشرات الطقس الآيسلندية.

كانت في الصندوق رسالتان مرسلتان لكارل تتضمنان الأخبار الرئيسة في آيسلندا منذ الخريف، إلى جانب بعض قصاصات الجرائد. تحدثوا حول

الأخبار الآتية من آيسلندا، وعلَّق أحدهم قائلاً إن هانز غائب كالعادة.

قال لوثر مع ابتسامة احتقار: «أجل، هانز».

فرد إميل عليه وهو يُفرغ كأسه في فمه: «لقد أخبرته بذلك».

فما كان من هرافنهيلدر إلا أن قال: «لماذا هو غامض إلى هذه الدرجة؟».

فردد لوثر: «أجل، غامض».

بدوره قال إميل: «هذا أمر غريب جداً. إنه لا يأتي أبداً إلى اجتماعات منظمة «شباب ألمانيا الحر» أو إلى محاضراتها. لم أره قطّ يقوم بعمل تطوعي. هل هو أرفع شأناً من أن يعمل في الأنقاض؟ ألسنا جيدين كفاية بالنسبة إليه؟ هل يعتقد أنه أفضل منا؟ توماس، أنت تحدثت معه».

رفع توماس كتفيه وقال: «أظن أن هانز يريد فقط إنهاء دراسته. إنه في سنته الأخيرة».

أجابه كارل: «الجميع يتحدثون دائماً عنه كنجم مستقبلي للحزب. وقد وُصف على الدوام بأنه مؤهَّل للقيادة. لا يبدو أنه واعدٌ جداً هنا. أعتقد أنني رأيته مرتين فقط في هذا الشتاء وبالكاد قال كلمة واحدة لي».

قال لوثر: «إنكم لا ترونه إلا نادراً... إنه مكتئب نوعاً ما». هز رأسه ورشف من الشنابس، وغضَّن وجهه؛ تماماً كما فعل كارل.

سمعوا صوت الباب الأمامي يُفتَح في الطابق الأرضي، ثم أصوات خطوات سريعة تصعد السلَّم. ظهر شابان وفتاة في النهاية المعتمة للممر. كانوا طلاباً من معارف كارل.

«سمعنا أنكم تقيمون حفلة آيسلندية». قالت الفتاة حال دخولهم إلى المطبخ ورؤيتهم للمائدة. أفسح لهم الحاضرون المجال للجلوس حول الطاولة التي كانت لا تزال تزخر بالكثير من لحم ساق الحمل. أخرج أحد الشابين زجاجتي شراب، فصفَّق الجميع بحماسة شديدة. ثم قدَّموا أنفسهم: الشابان من تشيكوسلوفاكيا والشابة من هنغاريا.

جلست بجانبه فخارت قواه. حاول عدم التحديق إليها بعد ظهورها من عتمة الممر، لكنه عندما رآها هناك للمرة الأولى، اجتاحته موجة من المشاعر لم يعتقد أنه كان قادراً على الإحساس بها، ووجد صعوبة في فهم ما حدث. وفجأة أحسَّ بفرح غريب وغبطة غامرة ممزوجين مع شيء من الخجل. لم يسبق أن أثَّرت فيه فتاة بهذا الشكل مطلقاً من قبل.

التفتت نحوه وسألته بلغة ألمانية جيدة: «هل أنت آيسلندي؟».

«أجل». أجابها متلعثماً بالألمانية أيضاً التي أصبح يتحدث بها بشكل

ممتاز في ذلك الحين. حوَّل ناظريه بعيداً عنها عندما أدرك أنه كان يحدِّق إليها منذ أن جلست بجانبه.

«أي وحشية هذه؟». قالت وهي تشير إلى رأس خروف مسلوق لم يُؤكَل بعد، موضوع على الطاولة.

فقال: «رأس خروف». فغضَّنت وجهها قرفاً.

«أي نوع من الناس يفعل ذلك؟».

قال: «الآيسلنديون. في الحقيقة، إنه لذيذ جداً». ثم أضاف بشيء من التردد: «اللسان والوجنتان...» لكنه سكت عندما أدرك أن ما كان يقوله لم يكن مشهياً تماماً.

من دون أن تحاول إخفاء اشمئزازها، سألته: «هل تأكلون العينين والشفتين أيضاً؟».

«الشفتان».

فسألته: «لا بد أنكم لم تكونوا تملكون الكثير من الطعام فاضطررتم للجوء إلى ذلك».

أجابها وهو يهز برأسه موافقاً: «كنا أمة فقيرة جداً».

مدَّت يدها وقالت: «أنا إيلونا». تبادلا التحية، وأخبرها أنه توماس.

ناداها أحد رفيقيها، وكان يحمل طبقاً مليئاً بلحم الحمل المدخن والبطاطا وحثَّها على تجربته قائلاً إنه لذيذ. وقفت وأخذت طبقاً وقطعت شريحة من اللحم.

فردت عليه وهي تجلس بجانبه مجدداً: «نحن لا نكتفي من اللحم أبداً». ثم أضافت بفم مليء بلحم الحمل المدخن: «ممم، رائع».

قال توماس: «أفضل من عيني الخروف».

سمع المزيد من الطلاب بالحفلة، فامتلأ المنزل بهم. جيء بغراموفون قديم، وشغل أحدهم أسطوانة لسيناترا عليه. وفي وقت متأخر من الليل تبادل الطلاب من القوميات المختلفة الأدوار في غناء أناشيد حول أوطانهم. بدأ كارل وإميل – الشاعران حتماً بتأثيرات الشحنة الآتية من آيسلندا - بغناء قصيدة حزينة لجوناس هالجريمسون. ثم أخذ الهنغاريون دورهم، وتبعهم التشيك، فالسويديون والألمان، ومن ثم طالب من السنغال كان يحنُّ لليالي الأفريقية الحارة. أصرَّت هرافنهيلدر على سماع أجمل الكلمات بلغاتها الأصلية، وبعد بعض اللغط جرى الاتفاق على أن يقف ممثل عن كل بلد ويتلو أجمل ما كُتب بلغته الأم. أجمع الآيسلنديون على أن تقوم هرافنهيلدر بتلاوة أجمل ما كُتب من الشعر الآيسلندي، فوقفت وأنشدت

قائلة:

نجمة الحب
فوق ستيبل روك
حجبتها سحب الليل.
لقد ضحكتْ، ذات مرة، من السماء
للشاب الحزين
في أعماق الوادي المظلم.

بالرغم من أن قلة منهم فهموا القصيدة، إلا أن أداءها السريع والعاطفي جعل الجميع يغرقون لوهلة في الصمت، قبل أن يضج المكان بالتصفيق والتهليل. انحنت هرافنهيلدر انحناءة كبيرة.

كان لا يزال جالساً مع إيلونا التي نظرت إليه بفضول، فأخبرها حول الشخص الذي تتحدث عنه القصيدة، والذي كان يتذكر نزهة طويلة عبر القفار الآيسلندية برفقة شابة كان يحبها، لكنه كان يعرف أنه يستحيل عليهما أن يكونا حبيبين. ومع هذه الأفكار الكئيبة، عاد وحيداً إلى واديه مثقلاً بالحزن والأسى. لمعت فوقه نجمة الحب التي أضاءت ذات يوم طريقه لكنها كانت مختفية خلف غيمة حينئذ، فقال لنفسه إن حبهما، رغم أنه لن يكتمل، إلا أنه سيدوم إلى الأبد.

راقَبَتْه إلى أن انتهى من حديثه. سواء أكانت قصته حول ذلك الشاب العاشق الحزين هي السبب، أم طريقته في سردها، أم بسبب الشنابس الآيسلندي فقط، إلا أنها قبَّلته فجأة على شفتيه؛ برقة فائقة جعلته يشعر كما لو أنه طفل صغير من جديد.

لم تعد روت من العطلة، لكنها بعثت رسائل إلى كل واحد من أصدقائها في لايبزيغ، وفي رسالتها إليه ذكرت له شكاويها من المرافق الخدماتية وغيرها، فأدرك أنها لم تعد تحتمل، أو لعلها كانت تحترق بحنين شديد إلى الوطن. تحدثوا حول الأمر في مطبخ المهجع، فصرح كارل أنه يفتقدها، وهز إميل برأسه مؤيداً، في حين قالت هرافنهيلدر إنها كانت رقيقة.

في المرة التالية التي قابل فيها هانز، سأله عن سبب عدم رغبته في الانضمام إليهم في مقر إقامتهم. حدث هذا بعد محاضرة حول الإجهاد الهيكلي حصل فيها شيء غريب. وكان هانز يحضرها أيضاً. فبعد عشرين دقيقة من بدء المحاضرة، فُتح الباب، ودخل ثلاثة طلاب قالوا إنهم من منظمة شباب ألمانيا الحر ويودّون قول بضع كلمات. وكان برفقتهم شاب

رآه توماس عدة مرات في المكتبة، وافترض أنه كان طالب أدب ألمانياً. كان ذلك الطالب ينظر إلى الأرض. بدأ زعيم المجموعة - الذي عرّف عن نفسه بأنه سكرتير المنظمة - بالحديث حول تضامن الطلاب، وذكَّرهم بالأهداف الأربعة لعمل الجامعة: تعليمهم النظرية الماركسية، ومساعدتهم على أن يصبحوا فاعلين اجتماعياً، ودفعهم للعمل في خدمة المجتمع ضمن برنامج منظَّم من قبل شيوعيين شبان، وتأسيس طبقة من المثقفين الذين سيصبحون لاحقاً محترفين؛ كلٌّ في مجاله الخاص.

التفت إلى الطالب الذي جاء برفقتهم، وشرح للحضور اعترافه بالاستماع إلى برامج إذاعية غربية قبل أن يعِدَ بالعدول عن ذلك. رفع الطالب رأسه وخطا خطوة إلى الأمام، ثم اعترف بجريمته وقال إنه لن يستمع إلى برامج إذاعية غربية مجدداً. قال إنها كانت ملوثة بالإمبريالية والاستغلال الرأسمالي، وحثّ الجميع في القاعة على الاستماع فقط إلى الإذاعات الأوروبية الشرقية في المستقبل.

شكره السكرتير، ثم طلب من الطلاب مشاركته في التعهد بعدم الاستماع إلى الإذاعات الغربية. وبعد أن كرر الجميع القسَم وراءه، التفت السكرتير إلى الأستاذ واعتذر على إزعاجه، ثم غادروا القاعة.

استدار هانز الذي كان يجلس في الصف الثاني، ونظر إليه وعلى وجهه ترتسم ملامح حزن عميق ممزوج بالغضب.

عندما انتهت المحاضرة، أسرع هانز بالخروج، فركض توماس خلفه إلى أن لحق به، وسأله إن كان كل شيء على ما يُرام.

فأجابه هانز: «على ما يُرام؟! هل تعتقد أن ما حدث هنا الآن كان على ما يُرام؟ هل رأيت ذلك الشاب المسكين؟».

«الآن، لا، أنا... ولكن، بالتأكيد... نحن بحاجة -».

قاطعه هانز قائلاً: «اتركني وشأني. فقط اتركني وشأني».

«لماذا لم تأتِ إلى العشاء؟ يعتقد الآخرون أنك مغرور».

ردّ هانز وهو يحث الخطى كما لو أنه كان يريد الهرب منه: «هذا هراء».

«ما المشكلة؟ لماذا تتصرف على هذا النحو؟ ماذا حصل؟ ماذا فعلنا لك؟».

توقف هانز في الممر وقال: «لا شيء. لم تفعلوا شيئاً. أريد فقط أن أكون وحدي. سأتخرَّج في الربيع ثم سينتهي كل شيء. هذا كل ما في الأمر. سأعود إلى آيسلندا وسينتهي كل شيء. هذه المهزلة. ألم تشاهدها. ألم

ترَ كيف عاملوا ذلك الشخص؟ هل هذا ما تريده في آيسلندا؟».

ثم تابع طريقه.

«توماس». سمع صوتاً أنثوياً يناديه من الخلف فاستدار، ورأى إيلونا تلوِّح له فابتسم لها. لقد خططا للالتقاء بعد المحاضرة. في اليوم التالي للوليمة جاءت لزيارته في المهجع، ومنذ ذلك الحين أصبحا يلتقيان بشكل منتظم. وفي هذا اليوم، ذهبا في نزهة طويلة سيراً على الأقدام حول المدينة، وجلسا خارج توماسكيرتشه. أخبرها قصصاً حول أديبيْن صديقيْن آيسلنديْن بقيا ذات يوم في لايبزيغ، وجلسا حيث كانا يجلسان تماماً. أحدهما مات بداء السل، والآخر أصبح أعظم كاتب أنجبته أمته.

قالت مبتسمة: «يبدو عليك الحزن دائماً عندما تتحدث عن الآيسلنديين».

«أعتقد فقط أنها قصة رائعة. لقد سارا في الشوارع نفسها التي أسير فيها في هذه المدينة. شاعران آيسلنديان».

لاحظ أنها كانت قلقة وحذرة. تلفّتت حولها كما لو أنها كانت تبحث عن شخص ما.

فسألها: «هل أنت بخير؟».

فأجابته: «هناك رجل...» ثم توقفت.

«أي رجل؟».

«ذلك الرجل هناك. لا تنظر، لا تدر رأسك، رأيته البارحة أيضاً. لكنني لا أتذكر أين».

«من هو؟ هل تعرفينه؟».

«لم أره من قبل قطّ، لكنني الآن رأيته مرتين في يومين».

«هل هو من الجامعة؟».

«لا، لا أظن ذلك. إنه أكبر سناً».

«هل تعتقدين أنه يراقبك؟».

«لا، تعال».

كانت إيلونا تستأجر غرفة في المدينة بدلاً من العيش في السكن الجامعي، فذهبا إليها. حاول التأكد إن كان الرجل لا يزال يتعقبهما، لكنه لم يتمكن من رؤيته في أي مكان.

كانت الغرفة جزءاً من شقة صغيرة تملكها أرملة تعمل في مطبعة. قالت إيلونا إنها كانت لطيفة جداً، وتسمح لها بالتجول في الشقة كما يحلو لها. لقد فقدت زوجها وابنيها في الحرب. رأى توماس صوراً لهم على

الجدران. كان الولدان يرتديان بذلتين عسكريتين خاصتين بالجيش الألماني.

كان يوجد في غرفة إيلونا أكداس من الكتب، وجرائد ألمانية وهنغارية، وآلة كاتبة متداعية على المنضدة، وسرير. عندما ذهبت إلى المطبخ استعرض كتبها، ونقر على بضعة مفاتيح في الآلة الكاتبة. كانت هناك صور فوتوغرافية معلقة على الحائط فوق السرير فافترض أنها تعود لأقاربها.

عادت إيلونا مع فنجانين من الشاي، ودفعت الباب بكعب قدمها فأغلقته. وضعت الفنجانين الساخنين بحرص بجانب الآلة الكاتبة ثم قالت: «سيكون مناسباً تماماً حالما ننتهي».

اقتربت منه، وقبَّلته قبلة طويلة وعميقة. ذُهل في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما تغلَّب على ذهوله، فعانقها وقبَّلها بشغف إلى اندلعت فيه نيران الشوق. كان قليل الخبرة، فخبرته السابقة تقتصر على محاولتين. الأولى حدثت بعد رقصة وداع المدرسة، والثانية في الحفلة السنوية التي كانت جريدة الحزب تقيمها. أما هي فبدت له بارعة في هذا المجال فترك لها القيادة بسرور.

كانت محقة، لأنه عندما انهار بجانبها بعد أن نالت وطرها منه، كانت درجة حرارة الشاي قد أصبحت مناسبة تماماً.

بعد يومين، في القبو، تحدثا في السياسة، وتجادلا للمرة الأولى والوحيدة. بدأت بوصف الثورة الروسية وكيف أنها أنتجت نظاماً ديكتاتورياً، وقالت إن الديكتاتوريات خطرة بصرف النظر عن الشكل الذي تتخذه.

لم يكن يرغب بالنقاش معها؛ بالرغم من أنه كان واثقاً كل الثقة أنها كانت مخطئة.

قال لها: «بفضل برنامج تصنيع ستالين هُزم النازيون».

فقالت: «وعقد معاهدة مع هتلر أيضاً. النظام الديكتاتوري يرعى الخوف والعبودية. نحن نرزح تحت هذا العبء في هنغاريا الآن. إننا لسنا أمة حرة. لقد أسسوا على نحو منظَّم دولة شيوعية خاضعة للسيطرة السوفييتية. لم يسألنا أحد، نحن الأمة، ماذا نريد. نريد أن ندير شؤوننا لكننا لا نستطيع. الشبان يُزجون في السجون، والبعض يختفي. يُقال إنهم يُرسلون إلى الاتحاد السوفييتي. لديكم جيش أميركي في بلدكم. ماذا ستشعر إذا كان يدير كل شيء بقوته العسكرية؟».

هزَّ رأسه دلالة على عدم التأييد.

تابعت إيلونا حديثها: «انظر إلى الانتخابات هنا. إنهم يدعونها حرة،

ولكن لا يوجد سوى حزب حقيقي واحد ينافس. ما الحرية في ذلك؟ إذا كانت تفكر بشكل مختلف فستُرمى في السجن. ما هذا؟ هل هذه اشتراكية؟ ما هو الشيء الآخر الذي يُفترَض بالناس أن يصوِّتوا له في هذه الانتخابات الحرة؟ هل نسي الجميع الانتفاضة هنا في العام ما قبل الفائت التي سحقها السوفييت بإطلاق النار على المدنيين في الشوارع؛ أناس أرادوا تغييراً!».

«إيلونا...».

واصلت إيلونا كلامها بانفعال: «مراقبة تفاعلية. يقولون إنها تساعدنا. يُفترَض بنا أن نتجسس على أصدقائنا وعائلاتنا، ونبلِّغ عن المواقف المعادية للاشتراكية. إذا كنت تعلم أن أحد زملائك الطلاب يستمع إلى إذاعة غربية، يُفترَض بك أن تبلِّغ عنه، فيُجَرُّ من محاضرة إلى أخرى كي يعترف بذنبه. كما يُشجَّع الأطفال على الإبلاغ عن آبائهم».

قال: «يحتاج الحزب إلى بعض الوقت للتأقلم».

لقد ناقش الآيسلنديون الوضع في لايبزيغ بعد زوال مرحلة التكيف مع وجودهم في مكان جديد واصطدامهم بالواقع. وكان توماس قد توصل إلى استنتاج حاسم حول مجتمع المراقبة، أو ما يُدعى «المراقبة التفاعلية» التي يراقب فيها كل مواطن جميع المواطنين الآخرين. وكذلك حول ديكتاتورية الحزب الشيوعي، وحظر حرية التعبير، والحضور الإلزامي في الاجتماعات والمسيرات. كان يشعر أنه بدلاً من التزام الحزب السرية بخصوص الأساليب التي يتبعها، كان يتوجَّب عليه الاعتراف بأن مثل تلك الأساليب ضرورية خلال تلك المرحلة من التحول إلى الدولة الاشتراكية. كانت مبررة إن كانت مؤقتة فقط. فبمرور الزمن ستفقد هذه الأساليب ضرورتها؛ لأن الناس حينئذ سيدركون أن الاشتراكية هي النظام الأنسب.

قالت إيلونا: «الناس خائفون».

هز رأسه وبدأا الجدال. لم يكن قد سمع الكثير حول الأحداث في هنغاريا، فتألمت عندما شكَّك في كلامها. حاول استخدام الحجج من الاجتماعات الحزبية في ريكيافيك وقيادة الحزب وحركة الشباب، ومن أعمال ماركس وإنجلز، لكن كل ذلك كان بلا جدوى، حيث كانت تنظر إليه وتقول له مراراً وتكراراً: «يجب عليك ألا تغمض عينيك عن هذا».

قال لها: «إنك تسمحين للدعاية الإمبريالية بتحويلك إلى شخص معادٍ للاتحاد السوفييتي. إنهم يريدون أن يكسروا تضامن البلدان الشيوعية لأنهم يخافون منها».

قالت: «هذا غير صحيح».

سكتا. كانا قد أنهيا كأسيهما، وهو يشعر بالغضب منها، لأنه لم يرَ من قبل شخصاً يصف الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية بمثل تلك الأوصاف؛ باستثناء الصحافة المحافظة في آيسلندا. كان يعلم بشأن قوة الماكينة الدعائية للقوى الغربية التي كانت تعمل بشكل جيد في آيسلندا، وكان يعترف بأن ذلك أحد أسباب الحاجة لتقييد حرية التعبير وحرية الصحافة أيضاً في أوروبا الشرقية. كان باستطاعته تفهُّم هذا الأمر أثناء بناء الدول الاشتراكية في أعقاب الحرب. لم يكن يعتبر ذلك قمعاً.

قالت إيلونا: «دعنا من النقاش».

فقال وهو يضع بعض النقود على الطاولة: «لا، دعينا نذهب».

في طريقهما للخروج، شدَّت إيلونا برفق على ذراعه فنظر إليها. كانت تريد إيصال شيء ما إليه بهذه الحركة، ثم أومأت برأسها خلسةً نحو المشرب، وقالت: «إنه هنا».

نظر إلى المشرب، فشاهد الرجل نفسه الذي كانت إيلونا تعتقد أنه يلاحقها. رشف الرجل - الذي كان يرتدي معطفاً – شرابه، وتصرَّف كما لو أنهما لم يكونا موجودين. كان الرجل نفسه الذي شاهده خارج توماسكيرتشه.

قال: «سأتحدث إليه».

قالت إيلونا: «لا. لا تفعل. لنذهب من هنا».

بعد بضعة أيام رأى هانز جالساً بجانب طاولته في المكتبة، فجلس بجانبه. واصل هانز الكتابة على كتاب تمارينه من دون أن يرفع رأسه.

ثم قال من دون أن يتوقف عن الكتابة: «هل تُزعجك؟».

«من؟».

«إيلونا».

«هل تعرف إيلونا؟».

قال هانز: «أعرف من تكون». ثم نظر إليه. كان يضع وشاحاً سميكاً ويرتدي قفازاً بلا أصابع.

«هل تعلم عما بيننا؟».

«كل شيء ينتقل. إيلونا من هنغاريا، ولهذا فهي ليست خضراء مثلنا».

«خضراء مثلنا؟!».

«انسَ الأمر». وعاد ليدفن رأسه مجدداً في كتاب تمارينه.

مدَّ توماس يده فوق الطاولة وانتزع الكتاب منه، فرفع هانز رأسه مندهشاً، وحاول الإمساك بالكتاب، لكنه كان بعيداً عن متناول يده.

قال توماس: «ما الذي يجري؟ لماذا تتصرف على هذا النحو؟».

نظر هانز إلى الكتاب الذي يحمله توماس ثم حدَّق إليه وقال: «لا أريد التورط في ما يجري هنا. إنها مهزلة صرفة. لم أستغرق كل هذا الوقت مثلك عندما سئمت منها».

«لكنك لا تزال هنا».

«إنها جامعة جيدة. وقد تطلَّب الأمر مني وقتاً حتى فهمت كل الأكاذيب، وفقدت صبري عليها».

قال توماس، وهو يخشى الجواب: «ما هو الشيء الذي لا أستطيع رؤيته؟ ماذا اكتشفتَ؟ ما الذي يفوتني؟».

حدَّق هانز إلى عينيه، ثم تلفَّت حوله في أرجاء المكتبة، ثم نظر إلى الكتاب الذي كان توماس لا يزال يحمله، ثم إلى عينيه مجدداً، وقال: «واصل طريقك وحسب. التزم بمعتقداتك. لا تحدْ عن الطريق. صدِّقني لن تربح أي شيء من ذلك. إذا كنت مرتاحاً على هذا الحال، فلا بأس. لا تتعمق أكثر. لا تتخيل ما يمكنك أن تجده».

مدَّ يده ليأخذ الكتاب، وأضاف قائلاً: «صدِّقني. انسَ الأمر».

قال توماس: «وإيلونا؟».

«انسها أيضاً».

«ماذا تعني؟».

«لا شيء».

«لماذا تتحدث بالألغاز؟».

«اتركني وشأني. فقط اتركني وشأني».

بعد ثلاثة أيام، ذهب إلى إحدى الغابات خارج المدينة. كان قد تسجَّل مع إميل في نادي جيسيلشافت فور للرياضة والتكنولوجيا، وهو نادٍ رياضي شامل - حسبما كان يروِّج لنفسه - يعلِّم ركوب الخيل وسباق السيارات وأشياء كثيرة غيرها. كان الطلاب يُشجَّعون على الاشتراك في أنشطة النوادي؛ مثل العمل التطوعي المنظَّم من قبل منظمة شباب ألمانيا الحر الذي كان يتضمن أسبوعاً من العمل في قطاف المحاصيل في الخريف، ويوماً في كل فصل دراسي، أو خلال العطل في إزالة الأنقاض التي خلَّفتها الغارات الجوية، أو العمل في المصانع، أو استخراج الفحم أو ما شابه ذلك. كان

الاشتراك تطوعياً، لكن أي شخص لا يسجّل نفسه يكون معرّضاً للعقاب.

كان يتأمل في هذا الإجراء بينما كان يقف في الغابة مع إميل ورفاقه الآخرين. لديهم معسكر لمدة أسبوع، تبيَّن أن معظمه في واقع الأمر يتكون من تدريبات عسكرية.

على هذا النحو كانت الحياة في لايبزيغ. نادرة هي الأشياء التي كان ظاهرها ينبئ بجوهرها الحقيقي. كان الطلاب الأجانب موضوعين تحت المراقبة، ولهذا السبب كانوا يراعون عدم قول أي شيء علناً حيث يسيء إلى مستضيفيهم. كانوا يُعلَّمون القيم الاشتراكية في اجتماعات إلزامية، وكان العمل التطوعي تطوعياً بالاسم فقط.

مع مرور الوقت، اعتادوا على كل ذلك، وكانوا يشيرون إليه باسم «الحزورة». كان توماس واثقاً أن الوضع في ذلك الحين سيكون مؤقتاً، رغم أن الآخرين لم يكونوا بهذا التفاؤل. ضحك على نفسه عندما اكتشف أن نادي الرياضة والتكنولوجيا كان في حقيقة الأمر وحدة عسكرية ضعيفة التمويه. أما إميل فلم يكن يرى ذلك مسلّياً، ولم يكن مطلقاً - بعكس الآخرين - يدعو هذا «الحزورة». لم يكن قطّ يجد أي شيء مثيراً للضحك في لايبزيغ. استلقوا في خيمتهم في ليلتهم الأولى مع رفاقهم الجدد، وطوال تلك الليلة تحدَّث إميل بحماسة حول الدولة الاشتراكية في آيسلندا.

قال إميل: «كل ذلك الظلم في بلد صغير كهذا حيث يمكن للجميع أن يكونوا متساوين بسهولة. أريد تغيير ذلك».

سأله توماس: «هل تريد دولة اشتراكية كهذه؟».

«لم لا؟».

«مع كل الملحقات؟ والمراقبة؟ والذعر؟ والقيود على حرية التعبير؟ والحزورة؟».

«هل بدأَتْ في إفحامك؟».

«من؟».

«إيلونا».

«ماذا تعني بقولك: إفحامك؟».

«لا شيء».

«هل تعرف إيلونا؟».

قال إميل: «أبداً».

«لديك صديقات أيضاً. أخبرتني هرافنهيلدر عن واحدة من **المركز الأحمر** ».

قال إميل: «هذا لا شيء».

«لا، بالتأكيد».

«لعلك ستخبرني أكثر حول إيلونا يوماً ما».

«إنها ليست عقائدية مثلنا. إنها ترى مشاكل في هذا النظام وتريد تصحيحها. إن الوضع هنا يشبه تماماً الوضع في هنغاريا؛ باستثناء أن الشباب هناك يفعلون شيئاً ما لتغييره؛ إنهم يحاربون الحزورة».

قال إميل بغضب: «يحاربون الحزورة! هراء. انظر إلى طريقة عيش الناس في آيسلندا. إنهم يرتعشون في الأكواخ المعدنية الأميركية القديمة. الأطفال يتضورون جوعاً. وبالكاد يستطيع الناس كسو أنفسهم. وطوال الوقت تزداد النخبة المنتفخة ثراءً أكثر فأكثر. هل هذه حزورة؟ من يكترث إذا كنت بحاجة لإبقاء الناس تحت المراقبة وتقييد حرية التعبير لبعض الوقت؟ استئصال الظلم قد يعني تقديم تضحيات. من يبالي؟».

كان الظلام قد أصبح دامساً في ذلك الحين، والصمت مطبقاً في المعسكر.

قال إميل: «سأفعل أي شيء من أجل الثورة الآيسلندية؛ أي شيء يستأصل الظلم».

وقف بجانب النافذة يراقب أشعة الشمس وقوس قزح بعيداً، وابتسم لنفسه عندما تذكَّر النادي الرياضي. كان بوسعه رؤية إيلونا تضحك على وليمة الحمَل المدخَّن، وفكَّر في القبلة الرقيقة التي كان لا يزال قادراً على الشعور بها على شفتيه، وفي نجمة الحب والشاب الحزين القابع في واديه المظلم.

14

كان مسؤولو وزارة الخارجية أكثر من مستعدين لمساعدة الشرطة. التقى سيغوردور أولي وإيلينبورغ مساعدَ الوزير، وكان رجلاً لطيفاً بعمر سيغوردور أولي. كانا يعرفان بعضهما من أيام الدراسة في أميركا، فتحدثا قليلاً حول تلك الفترة التي أمضياها هناك. قال مساعد الوزير إن الوزارة استغربت من طلب الشرطة، فأراد أن يعرف لماذا طلبوا معلومات حول موظفين سابقين في سفارات أجنبية في ريكيافيك. اكتفت إيلينبورغ بالقول، مع ابتسامة، إنه تحقيق روتيني.

وأضاف سيغوردور أولي، مع ابتسامة أيضاً: «ولا نتحدث عن كل السفارات، بل عن بلدان حلف وارسو القديم فقط».

نظر مساعد الوزير إليهما بالتناوب، وقال: «هل تتحدثان عن بلدان شيوعية سابقة؟». كان واضحاً أن فضوله لم يُشبَع. «لماذا هي فقط؟ ماذا عنها؟».

كررت إيلينبورغ قولها السابق: «مجرد تحقيق روتيني».

كان مزاجها جيداً على نحو غير عادي، فقد حقق ترويج الكتاب نجاحاً كبيراً، وكانت لا تزال مسرورة من المقالة التي ظهرت في الجريدة الأكثر رواجاً في البلد، والتي مدحت كتابها وطرق إعداد الأطعمة والصور، وختمت ذلك بالأمل بألا يكون هذا الكتاب آخر ما يقرأونه من إيلينبورغ، المحققة وخبيرة المأكولات.

سأل مساعد الوزير: «الدول الشيوعية. ما الذي وجدتموه في البحيرة؟».

أجابه سيغوردور أولي: «لا نعرف بعد إن كان ذا صلة بأي سفارة».

خاطبه مساعد الوزير وهو ينهض واقفاً: «أعتقد أنه ينبغي عليكما المجيء معي. لنتحدث مع المدير العام إذا كان موجوداً».

دعاهما المدير العام إلى مكتبه، واستمع لطلبهما. حاول معرفة سبب رغبتهما في هذه المعلومات بالتحديد، لكنهما لم يكشفا أي شيء.

سأل المدير العام مساعد الوزير: «هل نملك سجلاً حول أولئك الموظفين؟». كان المدير العام طويلاً جداً، وكانت هناك هالتان كبيرتان حول عينيه المتعبتين.

أجابه مساعد الوزير: «يبدو أننا نملكه. سيتطلب الأمر بعض الوقت لتجميع اللائحة، لكنها ليست مشكلة».

قال المدير العام: «لنفعل ذلك».

سأل سيغوردور أولي: «هل كان هناك أي تجسس في آيسلندا خلال الحرب الباردة؟».

أجابه مساعد الوزير: «هل تعتقدان أن الرجل في البحيرة كان جاسوساً؟».

قالت إيلينبورغ: «لا يمكننا الخوض في تفاصيل التحقيق، ولكن تبين أن الهيكل العظمي موجود في البحيرة منذ ما قبل 1970 ».

قال المدير العام: «سيكون من السذاجة الافتراض أنه لم يحدث أي تجسس. كان هذا جارياً في كل مكان حولنا، وآيسلندا كانت تتمتع بأهمية جوهرية من الناحية الاستراتيجية حينئذ، أكثر بكثير مما هي الآن. كانت توجد عدة سفارات هنا من بلدان أوروبا الشرقية، بالطبع، إضافة إلى البلدان الاسكندنافية، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وألمانيا الغربية».

سأل سيغوردور أولي: «عندما نقول تجسس، عم نتحدث بالتحديد؟».

أجاب المدير العام: «أعتقد أنه يتعلق بمراقبة ما يستعد الآخرون لفعله. في بعض الحالات، كانت هناك محاولات لتأسيس صلة وصل، ولإقناع شخص ما من الجانب الآخر بالعمل لصالحك، شيء من هذا القبيل. وبالطبع، كانت هناك القاعدة، تفاصيل العمليات التي تجري هناك والتدريبات العسكرية. لا أعتقد أن هذا كانت له أي علاقة بالآيسلنديين أنفسهم. ولكن، ثمة قصص حول محاولات لإقناعهم بالتعاون».

فكَّر المدير العام قليلاً، ثم قال: «هل تبحثون عن جاسوس آيسلندي؟».

أجابه سيغوردور أولي، رغم أنه لم يكن يعلم ذلك: «لا. هل كان هناك أي جواسيس آيسلنديين؟ أليست هذه فكرة مضحكة؟».

قال رئيس القسم: «ربما ينبغي عليكما التحدث مع أومار».

سألت إيلينبورغ: «من أومار؟».

أجابها رئيس القسم: «كان يشغل منصب المدير العام هنا معظم فترة الحرب الباردة. إنه مسنٌّ جداً». ثم أضاف وهو ينقر بسبابته على رأسه، «لكنه صافٍ كالجرس. لا يزال يأتي إلى عشائنا السنوي، وهو يشكِّل حياة الحفلة وروحها. كان يعرف كل أولئك الأشخاص في السفارات. ربما باستطاعته مساعدتكما بطريقة ما».

دوَّن سيغوردور أولي الاسم.

قال المدير العام: «في الحقيقة، من الخطأ التحدث عن أية سفارات حقيقية. بعض هذه البلدان كانت تملك ممثليات فقط في ذلك الحين،

ممثليات تجارية أو مكاتب تجارية، أو أي اسم ترغب بإطلاقه عليها».

التقى المحققون الثلاثة في مكتب إرلندور عند الظهر. كان إرلندور قد أمضى فترة الصباح في البحث عن المزارع الذي انتظر سائق سيارة الفالكون، وأخبر الشرطة أن الأخير لم يأتِ للقائه حسب الموعد. كان اسمه موجوداً في الملف. اكتشف إرلندور أن بعض الأراضي الزراعية القديمة بيعت لمقاولين عقاريين لصالح مدينة موزفيلسباير. وقد توقف الرجل عن العمل في الزراعة منذ 1980 تقريباً، وأصبح يعيش في دار للمسنّين في ريكيافيك.

استدعى إرلندور خبيراً في الأدلة الجنائية جلب معه أدواته إلى المرأب، وشفط كل ذرة غبار من أرضية السيارة بواسطة مكنسة كهربائية خاصة، وبدأ البحث عن بقع دماء.

أكل سيغوردور أولي لقمة كبيرة من شطيرته وقال وهو يمضغها بسرعة: «إنكما تضيِّعان وقتكما فقط. ماذا تحاولان أن تجدا؟ ماذا ستفعلان بالقضية؟ هل تنويان إعادة فتح التحقيق؟ هل تعتقدان أننا لا نملك ما نفعله أفضل من العبث في قضايا أشخاص مفقودين؟ هنالك ملايين الأشياء الأخرى التي يمكننا فعلها».

نظر إرلندور إليه وقال: «امرأة شابة تقف خارج محل للألبان والأجبان حيث تعمل، تنتظر صديقها. كانا سيتزوجان، ولديهما منزل جميل. المستقبل مشرق، كما يقولون. لا شيء يوحي بأنهما لن يعيشا بسعادة حتى آخر العمر».

لم يتفوه سيغوردور أولي وإيلينبورغ بأي كلمة.

«لا شيء في حياتهما يوحي بوجود أي مشكلة. لا شيء يشير إلى أنه مكتئب. كان سيقلّها من المحل بعد العمل. لكنه لم يأتِ. يغادر للقاء شخص ما، لكنه لا يصل ويختفي إلى الأبد. ثمة من يقول إنه ربما ركب حافلة إلى خارج المدينة. وثمة من يقول إنه ربما أقدم على الانتحار. هذان هما التفسيران الأكثر وضوحاً لاختفائه. الكثير من الآيسلنديين يعانون من الاكتئاب؛ رغم أنه معظمهم يبقونه مخفياً بشكل جيد. وهناك دائماً احتمال أن يكون شخص ما قد قتله».

سألت إيلينبورغ: «أليست مجرد عملية انتحار؟».

قال إرلندور: «ليس لدينا سجل رسمي لرجل باسم ليوبولد فُقد في تلك الفترة. يبدو أنه كان يكذب على صديقته. نيلز، الذي كان مسؤولاً عن القضية، لم يكن يعتبر اختفاءه غير عادي. كان مقتنعاً أن الرجل كان

يعيش في مكان آخر لكنه كان مرتبطاً بعلاقة مرحة في ريكيافيك. إن لم تكن مجرد عملية انتحار صريحة».

قالت إيلينبورغ: «إذاً، كان يملك عائلة في مكان بعيد في الريف، والمرأة في ريكيافيك كانت صديقته؟ أليست هذه قراءة مبالغة كثيراً لمسألة إيجاد سيارته خارج محطة الحافلات؟».

قال سيغوردور أولي: «أتعنين أنه ربما يكون قد عاد إلى منزله في الطرف الآخر من البلد وتوقف عن المرح في ريكيافيك؟».

قالت إيلينبورغ بغضب: «المرح في ريكيافيك! كيف تستطيع المسكينة بيرجثورا أن تحتملك؟».

قال إرلندور: «هذه النظرية ليست غير معقولة أكثر من النظريات الأخرى».

قال سيغوردور أولي: «هل يمكننا الإفلات بتعدد الزيجات في آيسلندا؟».

قالت إيلينبورغ بصرامة: «لا. عدد السكان قليل جداً».

قال سيغوردور أولي: «في أميركا، ينشرون إبلاغات علنية حول أشخاص هكذا؛ لديهم برامج خاصة للتعامل مع مثل هذا النوع من الأشخاص المفقودين؛ المجرمين ومتعددي الزوجات. البعض يقتل عائلته ويختفي، ثم يكوِّن عائلة جديدة».

قالت إيلينبورغ: «من الطبيعي أن يكون الاختفاء في أميركا أسهل».

قال إرلندور: «قد يكون ذلك صحيحاً تماماً، ولكن من السهولة بما يكفي أن يعيش المرء حياة مزدوجة، ولو لبعض الوقت، في مجتمع صغير؟ كان هذا الرجل يمضي الكثير من الوقت في أماكن ريفية، أسابيع بأكملها في بعض الأحيان. قابل امرأة في ريكيافيك ولعله وقع في حبها، أو لعلها كانت مجرد علاقة عابرة. وعندما أصبحت العلاقة جدية قرر أن يقطعها».

قال سيغوردور أولي: «قصة حب مدينية جميلة».

قال إرلندور بتفكُّر: «أتساءل إن كانت المرأة من محل الألبان والأجبان قد فكَّرت في هذا الاحتمال».

قال سيغوردور أولي: «ألم يعلنوا أن ليوبولد هذا اختفى؟».

كان إرلندور قد بحث مسبقاً ووجد إعلاناً وجيزاً في الصحف يبلِّغ عن اختفاء الرجل، إلى جانب الطلب من أي شخص يراه الاتصال بالشرطة. وكان الإعلان يتضمن وصفاً للثياب التي كان يرتديها وطوله ولون شعره.

قال إرلندور: «لم يؤدِّ هذا إلى أي شيء. لم تكن له أي صورة فوتوغرافية. أخبرني نيلز أنهم لم يخبروا المرأة حول عدم تمكنهم من إيجاد

أي سجل له».

قالت إيلينبورغ: «ألم يخبروها بذلك؟».

«تعرفين أي نوع من الأشخاص نيلز. إذا كان بوسعه تجنب المشاكل فسيفعل. كان لديه شعور بأن المرأة خُدعت، وأنا واثق بأنه كان يشعر بأنها كانت تعاني بما يكفي. إنه ليس تماماً...» لم يكمل إرلندور جملته.

قالت إيلينبورغ: «لعله وجد صديقة جديدة ولم يجرؤ على إخبارها. لا يوجد من هو أكثر جبناً من الرجل الخائن».

قال سيغوردور أولي: «ها قد بدأنا».

قالت إيلينبورغ: «ألم يكن يسافر حول البلد لبيع آليات زراعية؟ ألم يكن دائماً يجول حول المزارع والقرى؟ لعلنا لا نستطيع استبعاد أنه قابل امرأة ما وبدأ حياة جديدة. وربما لم يجرؤ على إخبار صديقته في ريكيافيك».

أضاف سيغوردور أولي، قائلاً: «وهو مختبئ منذ ذلك الحين!؟».

قال إرلندور: «بالطبع، كانت الأمور مختلفة كلياً في 1970 . كان السفر بالسيارة إلى أوكوريري يتطلب يوماً كاملاً؛ إذ لم يكن الطريق الرئيس حول آيسلندا قد أُنجز بعد. كانت وسائل النقل أسوأ بكثير، والمجتمعات المناطقية أكثر انعزالاً».

قال سيغوردور أولي: «تعني أنه كان يوجد الكثير من الأماكن النائية والمجهولة التي لم يزرها أحد يوماً».

قالت إيلينبورغ: «سمعت مرةً قصة حول امرأة كانت تعاشر رجلاً فظيعاً وكان كل شيء على ما يرام إلى أن اتصل بها ذات يوم ليخبرها أنه سيقطع علاقته بها. وبعد القليل من المراوغة، اعترف لها بأنه سيتزوج امرأة أخرى في الأسبوع التالي. ولم تسمع صديقته عنه بعد ذلك. كما أقول، ليس ثمة حدود لما يمكن أن يفعله الأوغاد من الرجال».

قال إرلندور: «إذاً، لماذا كان ليوبولد في ريكيافيك يتخذ هذه المظاهر المزيفة إذا لم يكن يجرؤ على إخبار صديقته بأنه قابل امرأة أخرى خارج المدينة وبدأ حياة جديدة؟ لماذا لعبة الاختباء والبحث هذه؟».

قالت إيلينبورغ بنبرة مستسلمة: «من الذي يعرف حول هذه الشخصيات؟».

سكتوا جميعاً للحظات، قبل أن يقول إرلندور: «ماذا بشأن الهيكل العظمي الذي تم العثور عليه في البحيرة؟».

قالت إيلينبورغ: «أظن أننا نبحث عن شخص أجنبي. من السخافة

الاعتقاد أنه آيسلندي مربوط بجهاز تجسس روسي. لا يمكنني تخيُّل ذلك وحسب».

قال سيغوردور أولي: «الحرب الباردة، فترة غريبة».

قال إرلندور: «أجل، فترة غريبة».

قالت إيلينبورغ: «بالنسبة لي، كانت الحرب الباردة دائماً تمثل الخوف من نهاية العالم. أتذكّر أنني كنت أفكر في ذلك على الدوام. لسبب ما، لم يكن بوسعك التخلص من هذه الفكرة. هذه هي الحرب الباردة التي أعرفها».

قال سيغوردور أولي: «فيوز صغير واحد ينفجر و... بووووم!».

قال إرلندور: «وهذا الخوف لا بد أن يظهر في مكان ما. في ما نفعله، وفي ما نحن عليه».

قالت إيلينبورغ: «أتعني في حالات الانتحار، مثل الرجل الذي كان يقود الفالكون؟».

قال سيغوردور أولي: «مالم يكن حياً وبصحة جيدة ومتزوجاً وسعيداً في زواجه في شيبسفيل». طوى لفافة شطيرته ورماها على الأرض بجانب سلة مهملات قريبة.

بعد مغادرة سيغوردور أولي وإيلينبورغ، رن هاتف إرلندور، وكان المتصل شخصاً لا يعرفه.

قال المتصل بصوت غاضب: «هل هذا إرلندور؟».

قال إرلندور: «أجل. من أنت؟».

قال الرجل: «أريد أن تترك زوجتي وشأنها».

«زوجتك؟».

لقد باغتت هذه الكلمات إرلندور تماماً، ولم يخطر له أنه كان يتحدث عن فالجيردر.

قال الرجل المتصل: «هل فهمت؟ أعرف ما تنوي فعله وأريدك أن تتوقف».

قال إرلندور عندما عرف أخيراً أنه زوج فالجيردر: «إنها مسؤولة عما تفعله». تذكَّر إرلندور ما قالته فالجيردر عن علاقة زوجها الغرامية، وكيف أن لقاءها إرلندور كان في البداية محاولة منها للانتقام منه.

قال الرجل بتهديد أكبر: «دعها وشأنها».

فقال إرلندور: «اغرب عني». وأنهى الاتصال.

15

كان أومار - المدير العام المتقاعد لوزارة الخارجية - يقارب الثمانين من عمره، لكن حركته كانت نشيطة، وبدا مسروراً لاستقباله ضيوفاً. كان أصلع بالكامل، وذا وجه عريض مع فم وذقن كبيرين. اشتكى لإرلندور وإيلينبورغ بمرارة من إرغامه على الاستقالة عند بلوغه سن السبعين، رغم أنه كان يتمتع بصحة ممتازة وبقدرة كاملة على العمل. كان يعيش في شقة واسعة في كرينجلوميري قال إنه استبدلها بمنزله بعد وفاة زوجته.

كانت قد انقضت عدة أسابيع على اكتشاف عالمة المائيات من هيئة الطاقة الهيكل العظمي. كان الطقس دافئاً ومشمساً على نحو غير عادي بالنسبة لشهر حزيران، فاسترخت المدينة بعد كآبة الشتاء، وارتدى الناس ثياباً خفيفة، وبدوا لسبب ما أكثر سعادة. نشرت المقاهي طاولاتها وكراسيها على الأرصفة؛ على الطريقة الأوروبية، وجلس الناس تحت أشعة الشمس يحتسون الشراب. كان سيغوردور أولي في إجازته الصيفية، وكان يقيم ولائم الشواء كلما سنحت له الفرصة. دعا إرلندور وإيلينبورغ لكن إرلندور كان متردداً. لم تتصل به إيفا ليند منذ اتصالها الأخير، لكنه كان يعتقد أنها لم تعد في مركز إعادة التأهيل. لقد أكملت علاجها حسب علمه، ولم يتصل سيندري به أيضاً.

كان أومار مولعاً بالحديث، وخاصة حول نفسه، فبدأ إرلندور على الفور بقطع تدفق الكلمات.

قال إرلندور: «كما أخبرتك عبر الهاتف...».

«أجل، أجل، تماماً، شاهدت كل شيء على التلفاز، حول الهيكل العظمي في كلايفارفاتن. تعتقدون أنها جريمة و-».

قاطعه إرلندور، قائلاً: «أجل، ولكن ما لم تعرفه من الأخبار، وما لا أحد يعرفه ويجب أن تبقيه طي الكتمان هو أن جهاز تنصُّت روسياً من الستينيات كان مربوطاً بالهيكل العظمي. من الواضح أن الجهاز عُبث فيه كي يحجب أصله، ولكن ليس ثمة شك في أنه جاء من الاتحاد السوفييتي».

نظر أومار إليهما، ولاحظا كيف أن هذا الكلام أثار اهتمامه. بدا أنه أصبح أشد حذراً، وعاد مجدداً إلى أسلوبه القديم عندما كان في الوزارة.

قال: «كيف يمكنني أن أساعدكما في هذا الخصوص؟».

«إن الأسئلة التي نفكِّر فيها بشكل أساسي تتعلق بما إذا كان هناك تجسس على أي نطاق في آيسلندا في ذلك الحين، وما إذا كان يُرجَّح أن

يكون آيسلندياً أو موظفاً في سفارة أجنبية».

قال أومار: «هل تفقدتم الأشخاص المفقودين من تلك الفترة؟».

قالت إيلينبورغ: «أجل. ليس من الممكن أن تكون لأي منهم صلة بأجهزة تجسس روسية».

بعد فترة تفكير طويلة، قال أومار: «لا أظن أن أي آيسلندي قد تورّط في مسألة تجسس جدية». كلاهما أحسّا بأنه كان ينتقي كلماته بحرص شديد. «نعلم أن بلدان حلفي وارسو والناتو كليهما حاولت جرِّهم لفعل ذلك، ونعلم أنه كان هناك تجسس بشكل أو بآخر في بلدان مجاورة».

قال إرلندور: «البلدان الاسكندنافية الأخرى، على سبيل المثال؟».

قال أومار: «أجل. ولكن بالطبع، ثمة مشكلة واضحة ووحيدة. إذا كان هناك آيسلنديون يتجسسون لأي من الجانبين لكنا قد علمنا بذلك؛ إن كان ناجحاً. غير أنه لم يُكشَف النقاب عن أي جاسوس آيسلندي ذي أهمية مطلقاً».

قالت إيلينبورغ: «هل هناك أي تفسير آخر ممكن لوجود الجهاز الروسي هناك مع الهيكل العظمي؟».

قال أومار: «بالتأكيد. ليس بالضرورة أن تكون للأمر علاقة بالتجسس. لكن استنتاجكم صحيح ربما. إنه تفسير منطقي بما يكفي أن يكون مثل هذا الاكتشاف غير العادي مرتبطاً بطريقة ما بسفارات حلف وارسو القديم».

قال إرلندور: «هل يمكن أن يكون هذا الجاسوس ينتمي، لنقل، إلى وزارة الخارجية؟».

قال أومار: «لم يختفِ أي موظف في وزارة الخارجية حسب علمي».

«ما أقصده هو: ما هو المكان الأعظم فائدةً بالنسبة للروس، على سبيل المثال، ليزرعوا فيه جواسيس؟».

قال أومار: «ربما في أي مكان في الحكومة. الخدمة المدنية صغيرة، والموظفون يعرفون بعضهم عن قرب، ولهذا لا توجد أسرار كثيرة بينهم. كانت التعاملات مع قوات الدفاع الأميركية تحدث غالباً من خلالنا في وزارة الخارجية، ولهذا كان الأمر يستحق امتلاك شخص ما هناك. ولكن، يمكنني أن أتخيل أن قراءة الجرائد الآيسلندية كان كافياً بالنسبة للجواسيس الأجانب أو موظفي السفارات؛ وهذا ما كانوا يفعلونه بالطبع. كل شيء كان موجوداً فيها. في بلد ديمقراطي مثل بلدنا هناك دائماً الكثير من

الجدل العام ومن الصعب إخفاء الأشياء».

قال إرلندور: «وهناك أيضاً حفلات الكوكتيل».

«أجل، ينبغي علينا ألا ننساها. كانت السفارات ذكية تماماً في اختيار لوائح ضيوفها. نحن مجتمع صغير، والجميع يعرفون كل الآخرين، وعلى صلة مع الآخرين جميعاً، وكانوا يستفيدون من هذا الأمر».

قال إرلندور: «ألم ينتبكَ في يوم ما شعور بأن ثمة معلومات كانت تتسرب من الخدمة المدنية؟».

قال أومار: «لا، على حد علمي. ولو كان هناك أي تجسس هنا على أي مستوى، فعلى الأرجح كان سيظهر إلى العلن في هذا الوقت؛ بعد انهيار النظام السوفييتي وحلِّ أجهزة الخدمة السرية القديمة في أوروبا الشرقية. نشَرَ جواسيسٌ سابقون في تلك البلدان مذكراتهم عن تلك المرحلة وليس فيها أي ذكر لآيسلندا. لقد فُتحت معظم أرشيفاتها، وكان بوسع الناس إزالة أية ملفات يجدونها حولهم. لقد جمعت البلدان الشيوعية السابقة كمية هائلة من المعلومات الشخصية، وأُتلفت تلك السجلات قبل سقوط جدار برلين؛ أُتلفت على نحو لا يمكن استرجاعه».

قالت إيلينبورغ: «لقد كُشف النقاب عن بعض الجواسيس في الغرب بعد سقوط الجدار».

قال أومار: «بالتأكيد. يمكنني أن أتخيل أن ذلك سبَّب هلعاً في مجتمع التجسس بأكمله».

قال إرلندور: «ولكن، لم تُكشَف للعلن جميع الأرشيفات. ليست كلها بانتظار شخص مهتم بالاطلاع عليها».

قال أومار: «لا، بالطبع لا، لا تزال هناك أسرار رسمية في تلك البلدان، كما هو الحال هنا. لكنني في الحقيقة لست خبيراً في التجسس، لا في الخارج ولا في آيسلندا. أعلم أكثر بقليل مما تعلمان، كما أتوقع. لطالما وجدت أنه من السخافة بمكان التحدث حول التجسس في آيسلندا. لسبب ما يبدو الأمر خيالياً جداً بالنسبة لنا».

قال إرلندور: «هل تتذكر عندما وجد أولئك الغطاسون بعض المعدات في كلايفارفاتن؟ حدث ذلك على مسافة بعيدة نوعاً ما عن المكان الذي وُجد فيه الهيكل العظمي، لكن المعدات تقدم صلةً واضحة بين القضيتين».

قال أومار: «أتذكّر عندما اكتُشف ذلك. بالطبع، لقد أنكر الروس كل شيء، وكذلك فعلت جميع سفارات الجبهة الشرقية. ادّعوا عدم معرفتهم بالمعدات، لكن النظرية التي خرجنا بها - إذا كانت ذاكرتي صحيحة -

تشير إلى أنهم كانوا ببساطة يتخلصون من بعض أجهزة التنصت القديمة والمعدات اللاسلكية. لم يكن ذلك يستحق دفع تكاليف إرسالها إلى الوطن في حقائب دبلوماسية، ولم يكن بوسعهم رميها في قمامة المدينة لذا...».

قال إرلندور: «حاولوا إخفاءها في البحيرة».

«أتصوّر ذلك ولكن، كما أقول، لست خبيراً. المعدات كانت تثبت أنه كان هناك تجسس في آيسلندا. لا جدال في ذلك. ولكن، في الوقت نفسه، لم يُصَب أي شخص بالدهشة».

سكت الثلاثة. نظر إرلندور حوله في أرجاء الغرفة التي كانت تغصُّ بتذكارات من حول العالم بعد حقبة طويلة من العمل في الوزارة. كان أومار وزوجته يسافران كثيراً، وقد زارا الزوايا الأربع من العالم. كانت توجد تماثيل لبوذا وصور فوتوغرافية لأومار على جدار الصين العظيم وفي رأس كانافيرال أمام مكوك فضائي. كما رأى صوراً له برفقة سلسلة من الوزراء في الحكومة.

تنحنح أومار، وأحسّ إرلندور وإيلينبورغ بأنه كان يفكر إما في مساعدتهما أكثر أو في إرسالهما في طريقهما. بعد ذكر المعدات الروسية التي تم العثور عليها في البحيرة، أحسّا بشيء من الحذر من جانبه، وبأنه كان ينتبه لكل كلمة يقولها.

وأخيراً، قال أومار بتردد: «قد لا تكون، لا أعرف، فكرة سيئة بالنسبة إليكما أن تتحدثا مع بوب».

قالت إيلينبورغ: «بوب؟».

«روبرت كريستي. بوب. مدير الأمن في السفارة الأميركية في الستينيات والسبعينيات، إنه رجل لطيف. نعرف بعضنا جيداً، وما زلنا على تواصل. أزوره دائماً عندما أذهب إلى أميركا. إنه يعيش في واشنطن، وهو متقاعد منذ زمن طويل مثلي، ويملك ذاكرة مدهشة وشخصية حيوية».

سأله إرلندور: «كيف يمكنه مساعدتنا؟».

قال أومار: «كانت السفارات تتجسس على بعضها. أخبرني بذلك فقط. لا أعرف إلى أي درجة، ولا أعتقد أن أي آيسلندي متورط في ذلك، لكن موظفي السفارات، من بلدان الناتو وحلف وارسو، كانوا يملكون جواسيس يعملون لصالحهم. أخبرني بذلك بعد نهاية الحرب الباردة، والتاريخ يؤكد ذلك بالطبع. كانت من بين مهام السفارات مراقبة تحركات الدبلوماسيين من البلدان المعادية. كانوا يعلمون بالضبط من جاء إلى هنا ومن غادر، وماذا كانوا يعملون، ومن أين أتوا وإلى أين ذهبوا، كما يعرفون أسماءهم

وأوضاعهم الشخصية والعائلية. معظم الجهود كانت تصبّ في تجميع مثل هذا النوع من المعلومات».

قالت إيلينبورغ: «وما الهدف؟».

قال أومار: «بعض الموظفين كانوا جواسيس معروفين. جاءوا إلى هنا وبقوا لفترة قصيرة ثم غادروا مجدداً. كانت هناك هيكلية، فإذا جاء شخص ما من مستوى معين، فستكون واثقاً بأن شيئاً ما كان يجري. هل تذكران التقارير الإخبارية في ذلك الزمن حول طرد بعض الدبلوماسيين؟ حدث ذلك هنا أيضاً، وكان حدثاً اعتيادياً في البلدان المجاورة. كان الأميركيون يطردون بعض الروس بدافع التجسس. وكان الروس ينكرون جميع الاتهامات ويردّون على الفور بطرد بعض الأميركيين. وكان مثل هذا الأمر يحدث في مختلف أنحاء العالم. الجميع كانوا يعرفون القواعد. الجميع كانوا يعرفون كل شيء حول الآخرين. كانوا يتعقبون تحركات بعضهم بعضاً. وكانوا يحتفظون بسجلات دقيقة حول من انضم للسفارات ومن غادر». صمت أومار قليلاً، ثم تابع كلامه قائلاً: «إحدى أولوياتهم كانت تتمثل في التجنيد؛ تجنيد جواسيس جدد».

قال إرلندور: «أتعني تدريب دبلوماسيين على التجسس؟».

ابتسم أومار وقال: «لا، بل تجنيد جواسيس من العدو، أي دفع موظفين من سفارات أخرى للتجسس لصالحهم. بالطبع، كانوا يحاولون الحصول على أشخاص من مختلف مشارب الحياة من أجل التجسس وجمع المعلومات، لكنهم كانوا يسعون وراء موظفي السفارات بصفة خاصة».

قال إرلندور: «ثم؟».

«قد يكون بوب قادراً على مساعدتكم في هذا الخصوص».

قالت إيلينبورغ: «بخصوص ماذا؟».

«الدبلوماسيين».

قالت إيلينبورغ: «لا أفهم ماذا...».

قاطعها إرلندور قائلاً: «أتعني أنه كان سيعلم إن كان هناك شيء غير عادي أو غريب يحدث في الشبكة؟».

«من المؤكد أنه لن يخبركما بأي شيء بالتفاصيل. إنه لا يخبر أحداً بذلك. لا أنا وحتماً ليس أنتما. لقد سألته مراراً، لكنه يكتفي بالضحك وتحويل الأمر إلى دعابة. غير أنه قد يخبركما بشيء بريء أثار اهتماماً سطحياً وكان يصعب تفسيره، شيء غريب».

نظر إرلندور وإليبورغ إلى أومار بتعابير حائرة بعض الشيء.

قال أومار: «على سبيل المثال، إن جاء شخص ما إلى آيسلندا لكنه لم يغادرها مطلقاً. قد يخبركما بوب بذلك».

قال إرلندور: «هل تفكر في جهاز التنصت الروسي؟».

أومأ أومار برأسه موافقاً.

قال إرلندور: «وماذا عنكم؟ لا بد أن الوزارة تحتفظ بسجلات حول من انضم إلى السفارات، وأي نوع من الأشخاص كانوا هناك».

«أجل، هذا صحيح. كنا نُبلَّغ دائماً بشأن التغييرات التنظيمية التي تشمل موظفين جدداً وأشياء من هذا القبيل. ولكن، لم تسنح لنا الفرصة أو لم نكن نملك القدرة - أو حتى الرغبة - على الاستمرار في مراقبة السفارات على النطاق الذي كانوا يقومون به».

قال إرلندور: «إذاً، على سبيل المثال، إذا انضم شخص ما إلى طاقم إحدى السفارات الشيوعية في ريكيافيك، وعمل هنا من دون أن تلاحظ السفارة الأميركية مغادرته للبلد، فهل يستطيع صديقك بوب أن يعرف ذلك؟».

قال أومار: «أجل. أعتقد أن بوب يمكنه مساعدتك في هذا النوع من المسائل».

جرَّ ماريون برايم أسطوانة الأوكسجين خلفه نحو غرفة الجلوس بعد أن فتح الباب لإرلندور الذي تبعه متسائلاً إن كان هذا هو المصير الذي ينتظره عندما يتقدم في السن؛ أي أن يذوي وحيداً في منزله، بعيداً عن العالم، ويجر أسطوانة أوكسجين خلفه. حسب معلوماته، لم يكن ماريون يملك أشقاء، وكان لديه بضعة أصدقاء فقط، ومع ذلك لم يندم هذا الشخص المسن الذي يضع قناع الأوكسجين مطلقاً لأنه لم يكوِّن عائلة.

لقد قال له ماريون ذات يوم: «لماذا؟ العائلات ليست سوى مصدر للمشاكل».

أُثيرت حينئذ مسألة عائلة إرلندور، الأمر الذي لم يكن يحدث كثيراً لأن إرلندور كان يكره الحديث عن نفسه. فسأله ماريون عن أحوال ولديه، وإن كان على صلة بهما أم لا. حدث هذا منذ سنوات طويلة.

قال ماريون: «ألديك ولدان؟».

كان إرلندور جالساً في مكتبه يكتب تقريراً حول قضية احتيال عندما ظهر ماريون فجأة وبدأ يطرح الأسئلة حول عائلته. وكانت القضية تتعلق بشقيقتين احتالتا على أمهما وسلبتاها جميع أموالها. وهذا هو ما دفع

ماريون لوصف العائلات بأنها مسببة للمشاكل.

قال إرلندور: «أجل، لدي ولدان. هل يمكننا التحدث حول هذه القضية هنا؟ أعتقد أن...».

قاطعه ماريون بسؤال آخر: «ومتى كانت آخر مرة رأيتهما فيها؟».

«أعتقد أن هذا لا يعني -».

«لا، إنه لا يعنيني، لكنه يعنيك، أليس كذلك؟ ألا يعنيك ذلك؟ امتلاك ولدين؟».

تلاشت الذكرى من ذهن إرلندور عندما جلس قبالة ماريون الذي كان يجلس متراخياً على كرسيه الرث. كان هناك سبب لعدم حبه لرئيسه السابق، وكان إرلندور يعتقد أنه السبب نفسه الذي كان يفسر قلة زوّاره. لم يكن ماريون من النوع الذي يجذب الأصدقاء، بل على العكس من ذلك تماماً. وحتى إرلندور، الذي كان يزوره بين الحين والآخر، لم يكن صديقاً مميزاً.

وضع ماريون قناع الأوكسجين من دون أن يشيح بناظريه عن إرلندور، ومرَّ بعض الوقت من دون أن يتفوَّها بأي كلمة. وأخيراً، أنزل ماريون القناع، فتنحنح إرلندور وقال: «كيف تشعر؟».

«أنا منهك بشدة. أغفو دائماً. لعل الأوكسجين هو السبب».

قال إرلندور: «لعله صحي جداً بالنسبة إليك».

قال ماريون بصوت ضعيف: «لماذا تستمر في المجيء إلى هنا».

«لا أعرف. كيف كان فيلم رعاة البقر؟».

«يجب أن تشاهده. إنه حكاية حول العناد. ما هي أخبار كلايفارفاتن؟».

قال إرلندور: «مستمرة».

«وسائق الفالكون، هل وجدتموه؟».

هزَّ إرلندور رأسه نافياً، لكنه قال إنه وجد السيارة، وإن المالكة أرملة لا تعرف الكثير عن سيارات الفورد فالكون وتريد بيعها. وأخبر ماريون كيف أن الرجل، ليوبولد، كان شخصاً غامضاً، وكيف أن صديقته نفسها لم تكن تعرف الكثير عنه، بل إنها لم تكن تملك صورة له، ولم يكن موجوداً في السجلات الرسمية. كان الأمر يبدو كما لو أنه لم يكن موجوداً أساساً، كما لو أنه كان من صنع مخيلة المرأة التي كانت تعمل في محل منتجات الحليب.

قال ماريون: «لماذا تبحث عنه؟».

«لا أعلم. لقد طُرح علي هذا السؤال كثيراً. ليست لدي أي فكرة. ربما بسبب امرأة كانت تعمل ذات يوم في محل يبيع منتجات الحليب، أو بسبب فقدان غطاء إحدى عجلات السيارة، أو بسبب ترك سيارة جديدة خارج محطة الحافلات. يوجد شيء غير منطقي في كل هذا».

غرق ماريون أكثر في كرسيه، مغمض العينين، وقال بصوت لا يكاد يُسمَع: «لدينا الاسم نفسه».

قال إرلندور وهو ينحني مقترباً منه: «ماذا؟ ماذا قلت؟».

«أنا وجون واين. الاسم نفسه».

«ما الذي تهذر به؟».

«ألا تجد ذلك غريباً؟».

كان إرلندور يوشك على الإجابة عندما غط ماريون في النوم. التقط إرلندور علبة شريط الفيديو وقرأ العنوان. الباحثون. قال لنفسه: حكاية حول العناد. نظر إلى ماريون ثم إلى غلاف العلبة الذي كان يُظهر جون واين ممتطياً صهوة جواده، وحاملاً بندقية بيده. نظر إلى التلفاز الموجود في زاوية الغرفة، ثم قام ووضع الشريط في الفيديو، وشغَّل التلفاز، وعاد وجلس على كرسيه وشاهد الفيلم بينما كان ماريون يغط في النوم.

16

كان سيغوردور أولي في طريقه للخروج من مكتبه عندما رن جرس الهاتف. تردد قليلاً. كان يود إغلاق الباب بقوة خلفه، لكنه تنهَّد ورفع السماعة.

قال المتصل: «هل أزعجك؟».

«هذا صحيح في الحقيقة. أنا في طريقي إلى المنزل. إذاً...».

قال الرجل: «آسف».

«توقف عن الاعتذار عن كل شيء، وتوقف عن الاتصال بي أيضاً. لا يمكنني أن أفعل كل شيء من أجلك».

قال الرجل: «لا أعرف الكثير من الناس لأتحدث إليهم».

«وأنا لست واحداً منهم. أنا مجرد شخص ظهر فجأةً في موقع الحادث. هذا كل ما في الأمر. لست حلاّل مشاكل شخصية. تحدَّث إلى رجل الدين».

قال الرجل: «ألا تظن أنه خطئي. لو أنني لم أتصل...».

لقد سبق لهما أن خاضا هذا النقاش مرات عديدة. كلاهما لم يكونا مؤمنين، وكلاهما لم يكونا قَدَريِيْن. ولكن، كلاهما كانا يؤمنان بالمصادفات البسيطة. وكلاهما كانا واقعييْن ويقبلان حقيقة أنه لو لم يتصل الرجل بزوجته ويؤخرها، لما كانت موجودة عند مفترق الطرق عندما تجاوز سائق الرينج روفر الثمل الإشارة الحمراء. ومع ذلك، لم يكن سيغوردور أولي يحمِّل الرجل مسؤولية ما حدث، بل كان يعتقد أن منطقه سخيف.

قال سيغوردور أولي: «الحادث لم يكن خطأك. أنت تعرف ذلك، لذا توقف عن تعذيب نفسك. أنت لن تذهب إلى السجن بسبب ارتكابك جريمة قتل، بل ذلك التافه في الرينج روفر».

«هذا لا يُحدث أي فرق».

«ماذا تقول الطبيبة النفسية؟».

«كل ما تتحدث عنه هو الأقراص والتأثيرات الجانبية. إن تناولت هذه الأدوية فسأصبح بديناً من جديد. وإن تناولت تلك الأدوية فسأفقد شهيتي. وإن تناولت أدوية أخرى فسأتقيأ طوال الوقت».

قال سيغوردور أولي: «فكِّر في هذا السيناريو. تذهب مجموعة من الأشخاص للتخييم كل عام منذ خمسة وعشرين عاماً. وكان أحدهم قد اقترح هذه الفكرة في الأصل. وذات يوم يقع حادث مميت ويُقتَل أحد

أفراد المجموعة. هل يكون الشخص صاحب الفكرة هو المسؤول؟ هذا هراء حتماً! إلى أي حد يمكنك التفكير في الاحتمالات؟ المصادفات مصادفات، ولا أحد يمكنه السيطرة عليها».

لم يُجبه الرجل.

قال سيغوردور أولي: «هل تفهم ما أعنيه؟».

«أعرف ما تعنيه لكنه لا يساعدني».

«أجل، حسناً، ينبغي علي الذهاب».

قال الرجل: «شكراً». وأنهى الاتصال.

كان إرلندور جالساً على كرسيه في المنزل يقرأ قصة حول مجموعة من المسافرين كانوا يمشون أسفل منحدرات جبل أوشليد في بداية القرن العشرين. كانت المجموعة تتألف من سبعة أشخاص يقطعون ممر ستاينوفايرا الضيق في طريق عودتهم من إيسافيوردر. كان جانب الجبل الشاقولي المنتفخ بسبب الثلج، يحاذيهم من جانب، والبحر الجليدي من الجانب الآخر. وكانوا يمشون في مجموعة متراصة كي يستفيدوا من ضوء المصباح الوحيد الذي كانوا يحملونه. بعضهم ذهبوا لمشاهدة مسرحية «الشريف ليونارد» في إيسافيوردر في ذلك المساء، وكان ذلك في منتصف الشتاء. وبينما كانوا يعبرون ستاينوفايرا، أشار أحدهم إلى وجود شق في الثلج فوقهم؛ كما لو أن صخرة تدحرجت في وقت سابق إلى الأسفل. تحدثوا كيف أن ذلك يمكن أن يكون إشارة إلى أن الثلج يتحرك في مكان أعلى من جانب الجبل، فتوقفوا، وفي تلك اللحظة تماماً حدث انهيار ثلجي جرفهم إلى البحر. نجا شخص واحد فقط، لكنه أُصيب بإعاقة شديدة. ولم يُعثَر على أي شيء يشير إلى الآخرين؛ باستثناء صرَّة كان يحملها أحدهم والمصباح الذي كان يضيء طريقهم.

رنّ جرس الهاتف، فرفع إرلندور رأسه عن كتابه، وفكّر في تركه يرن، ولكن قد تكون فالجيردر هي المتصلة، أو حتى إيفا ليند؛ رغم أنه كان يستبعد الاحتمال الأخير.

قال سيغوردور أولي عند رفع السماعة أخيراً: «هل كنت نائماً؟».

قال إرلندور: «ماذا تريد؟».

«هل ستجلب تلك المرأة معك إلى وليمة شوائي غداً؟ تريد بيرجثورا أن تعرف. إنها بحاجة إلى أن تعرف عدد الضيوف الذين يمكن أن تتوقعهم».

قال إرلندور: «عن أي امرأة تتحدث؟».

«المرأة التي قابلتَها في الكريسماس. ألا تزالان تلتقيان؟».

قال إرلندور: «وما علاقتك بهذا؟ وعن أي وليمة شواء تتحدث؟ متى قلتُ إنني أريد المجيء إلى وليمة شوائك؟».

سمع إرلندور طرقاً على الباب. كان سيغوردور أولي قد بدأ يشرح كيف أن إرلندور قال إنه سيذهب إلى وليمة الشواء التي كان هو وبيرجثورا سيعدّانها، وأن إيلينبورغ هي التي ستطهو عندما أعاد إرلندور السماعة إلى مكانها وأنهى المكالمة وفتح الباب. رسمت فالجيردر ابتسامة سريعة على وجهها عندما فتح الباب، وسألته إن كان بوسعها الدخول. وبعد لحظة من التردد، قال لها طبعاً، فدخلت إلى غرفة الجلوس، وجلست على أريكته المهترئة. قال إنه سيعدُّ القهوة، لكنها طلبت ألا يزعج نفسه.

ثم قالت: «لقد تركته».

جلس على كرسي قبالتها، وتذكَّر اتصال زوجها به ومطالبته بتركها وشأنها. نظرت إليه ورأت ملامح القلق على وجهه.

«كان ينبغي علي أن أتركه منذ مدة طويلة. كنت محقاً. كان ينبغي علي أن أسوِّي هذه المسألة منذ وقت طويل».

فسألها: «لماذا الآن؟».

«أخبرني أنه اتصل بك. لا أريد أن أجرَّك إلى مشكلتنا. لا أريده أن يتصل بك. هذا بيني وبينه. لا علاقة للأمر بك».

ابتسم إرلندور، ثم وقف عندما تذكَّر زجاجة الشراب في خزانته، فجلبها مع كأسين، ثم ملأهما وأعطاها إحداهما.

قالت: «لا أعني ذلك بالضبط، لكنك تعرف ما أعنيه». رشفا من كأسيهما. «كل ما فعلناه هو التحدث معاً. وذلك أكثر مما يمكن أن يدَّعيه».

قال إرلندور: «لكنك لم تكوني تريدين تركه قبل الآن».

«إنه أمر صعب بعد كل تلك السنين، بعد كل ذلك الوقت. الولدان و... إنه صعب جداً وحسب».

ظل إرلندور صامتاً.

«رأيت هذا المساء كيف أن كل شيء بيننا مات. وفجأةً، أدركت أنني أريد لعلاقتنا أن تموت. تحدثت مع الولدين. يجب أن يعلما بالضبط ما الذي يجري ولماذا سأتركه. سأقابلهما غداً. كنت أحاول إبعادهما عن المشكلة أيضاً. إنهما يحبانه كثيراً».

قال إرلندور: «أغلقتُ الهاتف في وجهه».

«أعرف، لقد أخبرني. فجأةً توضَّح لي كل شيء. لم يعد يملك أي سيطرة على ما أفعله أو ما أريده. لا شيء. لا أعلم ماذا يعتقد أنه يمثِّل بالنسبة لي».

كانت فالجيردر تكره أن تكشف الكثير حول زوجها، باستثناء أنه كان يخونها لمدة عامين مع ممرضة في المستشفى، وأنه ارتبط بعلاقات أخرى من قبل. كان طبيباً في المستشفى الوطني حيث كانت تعمل أيضاً، وكان إرلندور يتساءل، عندما كان يفكر فيها، كيف كان شعورها وهي تعمل في مكان كان الجميع فيه ما عداها يعرفون أن زوجها يلاحق نساءً أخريات.

سألها: «وماذا عن العمل؟».

«سأتدبَّر أمري».

«هل تريدين أن تنامي هنا الليلة؟».

«لا، لقد تحدثت مع أختي وسأبقى عندها في الوقت الحالي. كانت خير مساندةٍ لي».

«عندما تقولين إن الأمر ليس له علاقة بي...؟».

«إنني لا أتركه من أجلك، بل من أجلي أنا. لا أريده أن يتحكم بكل خطوة أخطوها بعد الآن. وأنت وشقيقتي كنتما على حق، كان ينبغي علي أن أتركه منذ مدة طويلة؛ منذ أن اكتشفت أمر تلك العلاقة».

سكتت ونظرت إلى إرلندور، ثم قالت: «يدَّعي الآن أنني دفعته إلى فعل ذلك. لأنني لم أكن... لم أكن... لم أجد المرح معه ممتعاً بما يكفي».

قال إرلندور: «كلهم يقولون ذلك. إنه الشيء الأول الذي يقولونه. ينبغي عليك أن تتجاهلي هذا الكلام».

«كان سريعاً في إلقاء الملامة عليّ».

«وماذا يمكنه أن يقول غير ذلك؟ إنه يحاول تبرير ذلك لنفسه».

توقفا عن الكلام إلى أن أنهيا كأسيهما.

وبعد ذلك، قالت: «أنت... لا أعلم ما هي طبيعتك، أو من تكون. ليست لدي أدنى فكرة».

قال إرلندور: «ولا أنا».

ابتسمت.

«هل تريدين المجيء معي إلى وليمة شواء غداً؟ سيجتمع أصدقائي. لقد نشرت إيلينبورغ منذ فترة قريبة كتاباً حول الطهو، لعلك سمعت به. ستقوم هي بالشواء. إنها طاهية ممتازة». قال الجملة الأخيرة وهو ينظر إلى

غلاف علبة كرات لحم قابلة للطهو في الميكروويف على طاولته.

«لا أريد الاستعجال في أي شيء».

قال إرلندور: «ولا أنا أيضاً».

كانت الصحون تطقطق في كافيتيريا دار المسنين عندما مشى إرلندور في الممر متجهاً نحو غرفة المزارع العجوز. كان الموظفون يرتِّبون أدوات الطعام بعد الفطور وينظفون الغرف. معظم الأبواب كانت مفتوحة، والشمس تشع في الداخل من خلال النوافذ، لكن باب غرفة المزارع كان مغلقاً، ولهذا طرق عليه إرلندور.

سمع صوتاً أجشاً قوياً يقول من الداخل: «دعوني وشأني. إزعاجات لعينة طوال الوقت!».

أدار إرلندور المقبض فانفتح الباب ودخل. لم يكن يعرف الكثير عن هذا النزيل سوى أن اسمه هارالدر، وأنه انتقل من أرضه قبل عشرين سنة وتخلى عن الزراعة. وقبل انتقاله إلى دار المسنين، عاش في شقة في حي هليدار في ريكيافيك. جمع إرلندور بعض المعلومات عنه من أحد الموظفين الذي أخبره أن هارالدر عجوز نزق ومثير للمشاكل، وفظ مع الموظفين، وأنه ضرب مؤخراً نزيلاً آخر بعكاز. ومعظمهم لم يكونوا قادرين على تحمُّله.

قال هارالدر عندما رأى إرلندور واقفاً عند مدخل الباب: «من أنت؟». كان في الرابعة والثمانين من العمر، أبيض الشعر مع يدين ضخمتين جافتين بفعل العمل الجسدي. كان يجلس على حافة سريره مرتدياً جوربه الصوفي، ومحني الظهر، ورأسه غارق بين لوحي كتفيه. كانت الغرفة تعبق برائحة بشعة جعلت إرلندور يتساءل إن كان هارالدر يشم مسحوق التبغ.

عرَّف بنفسه قائلاً إنه من الشرطة؛ الأمر الذي أثار اهتمام هارالدر، حيث قوَّم جلسته ونظر إلى عيني إرلندور.

ثم قال: «ماذا تريد الشرطة مني؟ هل لأنني ضربت ثوردر في وقت الغداء؟».

سأله إرلندور بدافع الفضول: «لماذا ضربت ثوردر؟».

«ثوردر متعجرف. لست مضطراً لإخبارك بذلك. اخرج وأغلق الباب خلفك. إنهم دائماً يحدّقون فيك طوال اليوم. يدسّون أنوفهم في خصوصيات الآخرين».

قال إرلندور عندما دخل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه: «لم أكن

سأتحدث حول ثوردر».

قال هارالدر: «اسمع، لا أكترث لدخولك إلى هنا. ماذا يُفترَض أن يعنيه هذا؟ اخرج. فقط اخرج ودعني بسلام!».

رفع الرجل رأسه قدر استطاعته، وحدَّق بغضب في إرلندور الذي جلس بهدوء على سرير قبالته. كان السرير لا يزال مرتّباً، فتوقع إرلندور أنه لم تكن هناك فائدة من عرض مشاركة الغرفة مع هارالدر العجوز حاد الطبع هذا بالنسبة لأي شخص. رأى إرلندور على الطاولة المجاورة كتابين مطويي الحواف للشاعر إينار بينيديكتسون، وكان واضحاً أنهما قُرئا مراراً وتكراراً.

قال إرلندور: «ألست مرتاحاً هنا؟».

«أنا! وما شأنك أنت؟ ماذا تريد مني؟ من أنت؟ لم لا تخرج من هنا كما طلبت منك؟».

«كنتَ على صلة بقضية قديمة لشخص مفقود». وبدأ إرلندور يصف الرجل الذي كان يبيع آليات زراعية وحفّارات ويمتلك سيارة فورد فالكون سوداء. أصغى هارالدر لكلامه من دون مقاطعة. ذكر له إرلندور أن الشرطة كانت قد سألته إن كان الرجل قد أتى إلى المزرعة أم لا فأنكر تماماً مقابلته له.

وفي الختام، سأله إرلندور: «هل تتذكَّر ذلك؟».

لم يُجب هارالدر، فكرر إرلندور طرح السؤال عليه.

«إههههه.لم يأتِ مطلقاً، ذلك السافل. كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لم أعد أتذكر أي شيء الآن».

«لكنك تتذكر أنه لم يأتِ».

«أجل، ألم أقل ذلك منذ هنيهة؟ هيا، اغرب عن وجهي! لا أحب وجود الناس في غرفتي».

«هل كنتَ تربّي أغناماً؟».

«أغنام! عندما كنتُ مزارعاً؟! أجل، كنت أملك بعض الأغنام والخيول، وحوالى عشر أبقار. هل أنت سعيد الآن؟».

واصل إرلندور كلامه: «لقد حصلتَ على سعر جيد مقابل الأرض. مكان قريب جداً من المدينة».

زعق هارالدر بغضب: «هل أنت من مكتب الضرائب؟». ثم نظر إلى الأرض. كان رفعُهُ رأسه المحني من أيام العمل الجسدي مجهداً بالنسبة إليه.

قال إرلندور: «لا، أنا من الشرطة».

قال هارالدر: «إنهم يحصلون على سعر أكبر بكثير مقابلها الآن. تلك العصابات. لقد امتدت المدينة حتى وصلت إليها الآن، أو تكاد تصل. كانوا قروشاً لعينة أولئك الذين أخذوا الأرض مني؛ أسماك قرش لعينة». ثم أضاف بغضب، رافعاً صوته: «اخرج من هنا! ينبغي عليك التحدث مع أولئك السفلة».

«أي قروش؟».

«أولئك القروش الذين أخذوا أرضي بسعر زهيد».

«ماذا كنتَ ستشتري منه؟ أقصد البائع الذي كان يقود تلك السيارة السوداء».

«أشتري منه؟ كنت سأشتري جرّاراً. كنت بحاجة لجرار جيد. ذهبت إلى ريكيافيك لتفحُّص جرّاراتهم فأعجبني منظرها. قابلت ذلك الرجل هناك، فأخذ رقم هاتفي وكان دائماً يزعجني. كل البائعين يشبهون بعضهم؛ حالما يجدونك مهتماً لا يدعونك وشأنك أبداً. أخبرته بأنني سأستمع لكل ما يريد قوله إن تكبَّد عناء المجيء لرؤيتي. قال لي إنه يملك بضعة بروشورات. وهكذا انتظرته كالأبله لكنه لم يأتِ مطلقاً. ولم أسمع عنه ثانيةً إلا عندما اتصل بي مهرج مثلك ليسألني إن كنت قد رأيته أم لا، فأخبرته بما أخبرك به الآن. وهذا كل ما أعرفه، لذا يمكنك الآن أن تغرب عن وجهي؟».

«كان يملك سيارة فورد فالكون جديدة. أقصد الرجل الذي كان سيبيعك الجرّار».

«لا أعرف عمّا تتحدث».

«الشيء الغريب هو أن السيارة لا تزال موجودة، بل إنها معروضة للبيع إن كانوا يستطيعون إيجاد مشترٍ. عندما وُجدت السيارة في الأصل، كان أحد أغطية عجلاتها مفقوداً. هل تعلم ماذا يمكن أن يكون قد حدث لذلك الغطاء؟».

رفع هارالدر رأسه للنظر إلى إرلندور: «ما الذي تبحث عنه؟ لا أعلم شيئاً عن ذلك الرجل؟ ولماذا تبحث عن تلك السيارة؟ متى دخلتُ أنا إلى الصورة؟».

«آمل أن تساعدنا السيارة. فالسيارات يمكن أن تحتفظ بالأدلة إلى الأبد تقريباً. على سبيل المثال، إذا كان ذلك الرجل قد جاء فعلاً إلى مزرعتك ومشى على أرض باحتك وداخل منزل المزرعة، فإن حذاءه قد يحمل معه شيئاً موجوداً الآن في السيارة؛ بعد كل تلك السنين. قد يكون

شيئاً صغيراً جداً. حبة رمل تكفي إذا كانت من نوع الرمل نفسه في مزرعتك. هل تفهم ما أقوله؟».

نظر الرجل العجوز إلى الأرض بصمت.

قال إرلندور: «هل لا تزال المزرعة موجودة؟».

قال هارالدر: «اصمتْ».

تفحَّص إرلندور الغرفة بناظريه. لم يكن فعلياً يعرف شيئاً عن الرجل الجالس على حافة السرير أمامه سوى أنه حاد الطبع، وبذيء اللسان، وغرفته كريهة الرائحة، ويقرأ أشعار إينار بينيديكتسون، لكن إرلندور قال في سرّه ربما هذا الرجل، بعكس الشاعر، لم «يحوِّل الظلمة إلى ضوء النهار» مطلقاً في حياته.

«هل كنت تعيش وحدك هناك في المزرعة؟».

«اخرج، قلت لك!».

«هل كانت لديك مدبرة منزل؟».

«كنا شقيقين. جوي ميت. والآن دعني وحدي».

لم يتذكر إرلندور أي ذكر لشخص آخر غير هارالدر في تقارير الشرطة: «جوي؟ من يكون؟».

قال هارالدر: «أخي. مات منذ عشرين عاماً. والآن اخرج من هنا حباً بالله، اغرب عن وجهي ودعني بمفردي».

17

فتح صندوق الرسائل وأخرجها واحدة بعد الأخرى، قرأ ما كُتب على بعض المغلفات ووضعها جانباً، ثم فتح رسائل أخرى وراح يقرأها على مهل. مضت سنوات منذ آخر مرة ألقى فيها نظرة عليها.كانت آتية من آيسلندا؛ من أبويه وشقيقته ورفاقه في الحركة الشبابية في الحزب الذين كانوا يريدون معرفة طبيعة الحياة في لايبزيغ. تذكَّر الرسائل التي كتبها ردًّا عليهم؛ واصفاً لهم المدينة وإعادة البناء ومعنويات الناس هناك، وكيف أنها كلها كانت مُصاغةً بتعابير إيجابية. كتب حول الروح الجماعية للبروليتاريا والتضامن الاجتماعي، وكل ذلك الخطاب المليء بالكليشيهات الميتة، لكنه لم يكتب أي شيء حول الشكوك التي كانت قد بدأت تتحرك داخله. ولم يكتب مطلقاً عن هانز.

غاص أكثر في كومة الرسائل، فوجد رسالة من روت وتحتها واحدة من هانز. وفي أسفل الكومة، كانت هناك رسائل من والدَي إيلونا.

بالكاد كان يفكر في أي شيء آخر غير إيلونا خلال الأسابيع والأشهر الأولى من وجودهما معاً. كان يعيش بشكل مقتصد، لأنه لم يكن يملك إلا القليل من المال، وكان يحاول إسعادها ببعض الهدايا الصغيرة. ذات يوم، عندما كانت ذكرى ميلاده تقترب، تلقى طرداً من آيسلندا يتضمن كتاباً صغيراً يحوي قصائد جوناس هالجريمسون. أهداها الكتاب وأخبرها أنه من نتاج الشاعر الذي كتب أجمل الكلمات باللغة الآيسلندية. قالت إنها تتلهَّف لتعلُّم الآيسلندية منه كي تتمكَّن من قراءة القصائد، وإنها لم تكن تملك شيئاً لتعطيه إياه بالمقابل، فابتسم وهز رأسه. لم يكن قد أخبرها أن ذلك اليوم كان يصادف ذكرى ميلاده.

وقال: «أريد فقط أن أمتلكك».

«أو - هو».

«ماذا؟».

«ولد شقي!».

وضعت الكتاب جانباً، ودفعته إلى الخلف حيث كان جالساً على السرير، ثم قبَّلته قبلة طويلة وعميقة. كانت ذكرى ميلاده تلك هي الأكثر متعة في حياته.

في ذلك الشتاء، أصبح وإميل صديقين حميمين؛ حيث أمضيا الكثير من

الوقت معاً. كان يحب إميل الذي كان يزداد تشدداً كلما طال بقاؤه في لايبزيغ وعرف النظام أكثر. كان إميل يحافظ على هدوئه حيال انتقاد الآيسلنديين الآخرين للمراقبة، والتجسس الشخصي، ونقص المواد الاستهلاكية، والحضور الإلزامي لاجتماعات منظمة شباب ألمانيا الحر، وأشياء من هذا القبيل. كان إميل يستخف بكل ذلك، ويعتبر هذه الاهتمامات قصيرة الأمد وتافهةً بالمقارنة مع الغاية النهائية. توطدت صداقة توماس وإميل، وكان كل منهما يساند الآخر.

ذات مرة، بينما كانوا جالسين في المقهى الجديد يناقشون حكم أولبريتش، قال كارل: «ولكن، لماذا لا ينتجون المزيد من البضائع التي يحتاج إليها الناس؟ يملك الناس نقطة مقارنة واضحة تتمثل في ألمانيا الغربية المليئة بالبضائع الاستهلاكية وكل ما يمكن أن يرغب به أي إنسان. لماذا يجب على ألمانيا الشرقية أن تضع هذا التشديد الهائل على التطوير الصناعي مع وجود نقص في الأغذية؟ الشيء الوحيد الذي يملكون الكثير منه هو الليجنايت، وهو ليس فحماً جيداً».

قال إميل: «الاقتصاد المنظَّم سيعطي ثماره في النهاية. بالكاد بدأت إعادة البناء، وهم لا يملكون تدفق الدولارات نفسه من الولايات المتحدة. كل ذلك يتطلب وقتاً. المهم هو أن حزب الوحدة الاشتراكي على الطريق الصحيح».

لم يكن توماس وإيلونا الثنائي الوحيد في دائرتهم في لايبزيغ، فكارل وهرافنهيلدر كانا يقابلان ألمانيَيْن يناسبان مجموعتهما تماماً. كان كارل يُرَى على نحو متزايد مع طالبة قصيرة بنية العينين من لايبزيغ تُدعى أولريكا. قال إنهما ناقشا فكرة العيش معاً، وحتى الزواج. كانا متوافقين تماماً، فكلاهما مرحان ولطيفا المعشر، وهي كانت تتحدث حول الذهاب إلى آيسلندا والعيش هناك أيضاً. وبدأت هرافنهيلدر بالخروج برفقة طالب كيمياء خجول وعادي المظهر، من قرية صغيرة خارج لايبزيغ، كان في بعض الأحيان يزودهم بمختلف أنواع الأشربة، من أجل حفلاتهم.

كان ذلك في شهر شباط، وكان توماس يرى إيلونا كل يوم. صحيح أنهما توقفا عن التحدث في السياسة، لكنهما كانا يملكان الكثير للتحدث بشأنه. كان يخبرها عن أرض رؤوس الأغنام المسلوقة، وهي كانت تخبره عن عائلتها. كانت تملك أخوين أكبر منها؛ الأمر الذي لم يكن يجعل الأمور أكثر سهولة بالنسبة إليها، وكلا والديها كانا طبيبين، وهي كانت تدرس الأدب واللغة الألمانية، وكان فريدريك هولدرلين واحداً من شعرائها المفضلين. كانت

تقرأ كثيراً وتسأله عن الأدب الآيسلندي. كانت الكتب اهتماماً مشتركاً بينهما.

كان لوثر يمضي وقتاً متزايداً مع الآيسلنديين. كان يسلّيهم بلغته الآيسلندية الرسمية الميكانيكية، وبأسئلته المستمرة حول كل ما له صلة بآيسلندا. كانت علاقته مع توماس ممتازة، فكلاهما كانا شيوعيين متشددين، وكان بوسعهما مناقشة الشؤون السياسية بدون أي جدال. كان لوثر يمرِّن لغته الآيسلندية مع توماس الذي كان يجيبه بالألمانية. قال إنه من برلين التي وصفها بالمكان رائع. لقد فقَدَ والده في الحرب، لكن والدته كانت لا تزال تعيش هناك. كان لوثر يحثّه على زيارة المدينة برفقته ذات يوم، فهي لم تكن بعيدة جداً بواسطة القطار. بيد أن الألماني لم يكن يحب التحدث عن نفسه كثيراً؛ الأمر الذي عزاه توماس إلى المعاناة التي عاشها عندما كان صبياً خلال الحرب. كان لا يكف عن طرح الأسئلة حول آيسلندا، وبدا أنه كان يملك اهتماماً لا يُشبَع بالبلد. كان يريد معرفة الجامعة هناك، والنزاع السياسي، والقادة السياسيين والتجاريين، وطبيعة عيش الناس، والقاعدة الأميركية في كيفلافيك. شرح توماس له أن آيسلندا استفادت إلى درجة هائلة من الحرب، حيث نمت ريكيافيك بسرعة، وتحوَّل البلد بين ليلة وضحاها تقريباً من مجتمع زراعي فقير إلى مجتمع برجوازي عصري.

كان توماس يتحدث أحياناً مع هانز في الجامعة، حيث كانا يلتقيان صدفة في المكتبة أو في المقهى في المبنى الرئيس. أصبحا صديقين بالرغم من كل شيء؛ بالرغم من تشاؤم هانز. حاول تغيير وجهة نظر هانز، ولكن عبثاً، فهانز كان قد فقَدَ كل اهتمامه بالسياسة، ولم يكن يفكِّر إلا بإنهاء دراسته والعودة إلى الوطن.

ذات يوم، جلس توماس بجانب هانز في المقهى. كان الثلج ينهمر في الخارج، لكنه كان يرتدي معطفاً دافئاً أُرسل إليه من آيسلندا في الكريسماس، بعد أن ذكر في إحدى رسائله شدة برودة الطقس في لايبزيغ. سأله هانز حول المعطف، فلاحظ توماس نبرة غيرة في صوته.

مالم يكن يعرفه هو أن هذا الحديث سيكون آخر حديث يجري بينهما في لايبزيغ.

قال هانز: «كيف حال إيلونا؟».

«كيف تعرف إيلونا؟».

تلفّت هانز حوله في المقهى كما لو أنه يريد التأكد من أحداً لم يكن بوسعه سماعهما، ثم قال: «أنا لا أعرفها. أعرف فقط أنها من هنغاريا، وأنها صديقتك. أليست صديقتك؟ ألا تخرجان معاً؟».

رشف من قهوته من دون أن يجيب، وشعر بنبرة غريبة في صوت هانز. نبرة أقسى وأشد عناداً من المعتاد.

«ألا تتحدث معك عمّا يجري في هنغاريا مطلقاً؟».

«أحياناً. نحن نحاول عدم التحدث كثيراً حول...».

قاطعه هانز قائلاً: «أتعلم ماذا يجري هناك؟ سيستخدم السوفييت القوة العسكرية. أنا مندهش لأنهم لم يفعلوا ذلك حتى الآن. لا يمكنهم تجنب ذلك. إن سمحوا لما يحدث في هنغاريا بالتصاعد، فإن بقية أوروبا الشرقية ستكون التالية، وستحدث ثورة شاملة ضد الحكم السوفييتي. ألا تتحدث معك أبداً حول ذلك؟».

«نحن نتحدث حول هنغاريا، لكننا لا نتفق حول هذا الموضوع».

«لا، بالطبع لا، أنت تعرف بما يجري هناك أكثر مما تعرفه هي، الهنغارية».

«إنني لا أقول ذلك».

«ما الذي تقوله إذاً؟ هل تساءلت مرةً بشكل جدي حول هذا الأمر؟ متى تلاشى الوهج الأحمر من عينيك؟».

«ماذا حدث لك يا هانز؟ لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة؟ ماذا حدث بعد مجيئك إلى هنا؟ كنت الأمل العظيم هناك في آيسلندا».

قال هانز بسخرية: «الأمل العظيم! لعلي لم أعد كذلك الآن».

بعد لحظات من الصمت، قال هانز بصوت منخفض: «كل ما في الأمر هو أن هذا الهراء انكشف أمام عيني؛ الكذبة القذرة بأكملها. لقد أُطعمنا بالملعقة في ما يتعلق بحقوق العمال والمساواة والأخوَّة إلى أن أصبحنا نغني النشيد الوطني السوفييتي مثل أنشودة الإبرة انغرزت؛ لازمة تمجيد واحدة كبيرة بدون أي كلمة انتقاد. في بلدنا، نذهب إلى اجتماعات الحملات الانتخابية، وهنا لا يوجد إلا المديح. أين تجد نقاشاً؟ يعيش الحزب ولا شيء سوى ذلك! هل تحدثت مع أشخاص يعيشون هنا؟ هل تعلم بماذا يفكِّرون؟ هل تحدثت إلى شخص عادي واحد في هذه المدينة؟ هل كانوا يريدون وولتر أولبريتش والحزب الشيوعي؟ هل يريدون حزباً واحداً واقتصاداً مركزياً؟ هل كانوا يريدون حظر حرية الكلام وحرية الصحافة والأحزاب السياسية الحقيقية؟ هل كانوا يريدون أن يُطلَق عليهم الرصاص في الشوارع في ثورة 1953 ؟ في آيسلندا، على الأقل يمكننا التجادل مع خصومنا وكتابة المقالات في الصحف. هذا محظور هنا. توجد سياسة وحيدة، فينيتو. وبعد ذلك، عندما يُساق الناس للتصويت للحزب الوحيد

الذي يُسمَح له بالعمل في البلد، إنهم يسمّونها انتخابات! الناس المحليون يعتقدون أنها مهزلة. إنهم يعلمون أن هذه ليست ديمقراطية!».

كان هانز يغلي من شدة الغضب.

استأنف كلامه بعد لحظة توقف: «الناس لا يجرؤون على قول ما يفكرون فيه لأن كل شيء هنا مراقَب؛ المجتمع اللعين برمته. كل شيء تقوله يمكن أن يرتد عليك، فتُستدعى وتُعتقَل وتُطرَد. تحدَّثْ مع الناس. الهواتف مراقَبة. إنهم يتجسسون على المواطنين!».

كان توماس يعلم أن هانز وإيلونا كانا يملكان حجة مقنعة. وكان يعتقد أنه من الأفضل بالنسبة للحزب الاعتراف بأن الانتخابات الحرة وحرية التعبير غير ممكنة في ذلك الحين، لكنها ستأتي لاحقاً؛ بعد تحقيق الهدف، ألا وهو الاقتصاد الاشتراكي. كانوا يسخرون أحياناً من الألمان لموافقتهم على كل مقترح يُقدَّم في الاجتماعات، ومن ثم يقولون العكس تماماً في السر. لم يكونوا يجرؤون على تقديم أي رأي مستقل خوفاً من أن يُفسَّر ذلك على أنه معاداة للاشتراكية فيُعاقَبون.

قال هانز بعد فترة صمت طويلة: «إنهم رجال خطرون يا توماس. إنهم لا يلعبون».

قال توماس بغضب: «لماذا تتحدث دوماً عن حرية الرأي؟ أنت وإيلونا! انظر إلى عملية ملاحقة الساحرات ضد الشيوعيين في أميركا. يمكنك أن ترى كيف يدفعون الناس للخروج من البلد، ويطردونهم من وظائفهم. وماذا عن مراقبة المجتمع هناك؟ هل قرأت حول الجبناء الذين وشوا برفاقهم إلى لجنة الأنشطة المعادية لأميركا؟ الحزب الشيوعي محظور هناك. ويوجد رأي واحد فقط مسموح به هناك أيضاً؛ رأي اتحاد الشركات الاحتكارية، الإمبرياليين، مشعلي الحروب. إنهم يرفضون أي شيء آخر. أي شيء».

ثم وقف وتابع كلامه بالغضب نفسه: «أنت هنا بدعوة من البروليتاريا في هذا البلد. إنهم يدفعون ثمن تعليمك، وينبغي عليك أن تخجل من نفسك للتحدث بهذه الطريقة. يجب أن تخجل من نفسك! وينبغي أن تغادر من هنا وتعود إلى بلدك!».

وخرج بسرعة من المقهى.

«توماس». ناداه هانز لكنه لم يُجبه.

وبينما كان يمشي مسرعاً في الممر مبتعداً عن المقهى، إذا بلوثر يظهر فجأة في وجهه. سأله لوثر عن سبب عجلته فنظر إلى الخلف وقال: «لا

شيء». أثناء خروجه من المبنى، دعاه لوثر لشرب شيء ما فوافق. وعندما جلسا في مقهى بوم المجاور لتوماسكيرتشه أخبر لوثر حول الجدال وتحوُّل هانز الكلي - لسبب ما - إلى معادٍ للاشتراكية وانتقاصه منها. وأخبره أنه لم يكن يستطيع تحمُّل نفاق هانز المتمثل بانتقاده للاشتراكية وفي الوقت نفسه جني فوائدها من خلال الدراسة هناك.

قال توماس: «إنني لا أفهم. لا أفهم كيف يمكنه الإساءة لموقعه بهذه الطريقة. لا يمكنني فعل ذلك أبداً، أبداً».

قابل إيلونا في ذلك المساء، وأخبرها بشأن الجدال، وذكر لها أن هانز يعطي انطباعاً في بعض الأحيان بأنه يعرفها، لكنها هزَّت رأسها نافيةً سماعها باسمه أو تحدثها معه.

سألها بتردد: «هل توافقينه الرأي؟».

أجابت بعد صمت طويل: «أجل، أوافقه الرأي. وليس أنا فقط. هناك آخرون كثر، كثر. أناس بعمري في بودابست. وشبان هنا في لايبزيغ».

«لماذا لا يعلنون عن رأيهم صراحةً؟».

«نحن نفعل ذلك في بودابست؛ لكننا نواجه معارضة هائلة. إنه أمر فظيع. وهناك خوف؛ خوف في كل مكان مما يمكن أن يحدث».

قال توماس: «الجيش؟».

«هنغاريا هي إحدى جوائز الاتحاد السوفييتي من الحرب، ولن يتخلوا عنها بدون قتال. إذا نجحنا في التحرر منهم، لا يمكنك أن تعرف ماذا يمكن أن يحدث في بقية أوروبا الشرقية. هذا هو السؤال الكبير. رد الفعل المتسلسل».

وبعد يومين، بدون أي إنذار، طُرد هانز من الجامعة، وطُلب منه مغادرة البلد.

سمع أن حارساً من الشرطة كان واقفاً خارج غرفة هانز وأن عنصرين من شرطة الأمن رافقاه إلى المطار. وكما فهم، لم يكن سيُعترَف بأي من المناهج التي أخذها في أي جامعة أخرى؛ وكأنه لم يكن طالباً في الجامعة مطلقاً. لقد مُحي كلياً.

لم يستطع تصديق أذنيه عندما دخل عليه إميل لينقل إليه الخبر. لم يكن إميل يعرف الكثير، فهو التقى كارل وهرافنهيلدر اللذين أخبراه بشأن الحارس وبشأن مرافقة هانز إلى المطار. اضطُرَّ إميل لتكرار الخبر على مسمعيه حتى استوعبه. لقد عومل رفيقهم كما لو أنه ارتكب شيئاً فظيعاً؛ مثل مجرم. في ذلك المساء ضج المهجع بالخبر، لكن أحداً من الطلاب لم

يكن يعرف على نحو أكيد ماذا حدث.

في اليوم التالي، أي بعد ثلاثة أيام على جدالهما في المقهى، تلقى رسالة من هانز سلَّمه إياها شريكه في الغرفة. كانت موضوعة ضمن مغلف مغلق مكتوب عليه اسمه فقط: توماس. فتح المظروف وجلس على سريره وقرأها.

ظلوا لقد .بسيط إنه .لي حدث عما لايبزيغ؛ في حدث عما سألتني بما أخبرهم أن مني يريدون كانوا ،أصدقائي على التجسس مني يطلبون وأي ،أولبريشت وحول ،الشرقية ألمانيا وحول ،الاشتراكية حول يقولونه كانوا .أعرفهم من كل بل ،فقط أنت ليس .إليها يستمعون الإذاعية المحطات من سأُطرَد فإنني - قالوا كما - وإلا ،إقناعي يستطيعون أنهم يظنون كانوا .الآن حتى .وشأني فتركوني رفضت .الجامعة

وشأني؟ تتركني لم فقط لماذا

هانز

قرأ الرسالة مرات ومرات، ومع ذلك لم يستطع أن يصدق ما كانت تقوله. سرت قشعريرة في جسده ودار رأسه.

لماذا فقط لم تتركني وشأني؟

كان هانز يحمِّله مسؤولية طرده. كان هانز يعتقد أنه ذهب إلى إدارة الجامعة وأبلغهم عن آرائه وموقفه من النظام. لو تركه وشأنه لما حدث ذلك أبداً. حدَّق توماس في الرسالة. كان هناك سوء فهم. ماذا كان هانز يقصد؟ لم يتحدث توماس مع إدارة الجامعة، بل مع إيلونا ولوثر فقط، وفي المساء تحدث حول اندهاشه من آراء هانز مع إميل وكارل وهرافنهيلدر في المطبخ. ولم يكن في ذلك أي شيء جديد؛ إذ كانوا يوافقونه الرأي. كانوا يشعرون بأن الطريقة التي تغيَّر بها هانز كانت في أحسن الأحوال مفرطة، وفي أسوئها حقيرة.

لا يمكن أن يكون طرد هانز من الجامعة بعد جدالهما إلا محض مصادفة، وكانت إساءة فهم من جانب هانز أن يربط ذلك بلقائهما. إنه لم يفعل شيئاً. لم يخبر أحداً باستثناء أصدقائه. ألم يكن الرجل ظنوناً؟ هل يمكن أن يصدق ذلك حقاً؟

كان إميل في الغرفة معه فأراه توماس الرسالة. كان إميل يكره هانز بشدة، ويكره كل ما كان يعتقده هذا الأخير، ولم يكن يُخفي شعوره هذا.

قال إميل: «إنه مجنون. لا تكترث له».

«ولكن، لماذا يقول ذلك؟».

«توماس، انسَ الأمر. إنه يحاول تحميل شخص آخر مسؤولية أخطائه. كان ينبغي أن يُطرَد من هنا منذ وقت طويل».

وثب توماس على قدميه وأمسك بمعطفه وخرج من الغرفة، وارتداه أثناء اجتيازه الممر، ثم ركض طوال الطريق إلى أن وصل إلى غرفة إيلونا وطرق على الباب بقوة. فتحت صاحبة الشقة الباب، ثم رافقته إلى غرفة إيلونا فوجدها مرتديةً ثيابها وتهمُّ بوضع قبعتها على رأسها. كان واضحاً أنها كانت تستعد للخروج. اندهشت لرؤيته لكنها أحست بأنه كان منفعلاً للغاية.

فاقتربت منه وقالت: «ما المشكلة؟».

أغلق الباب وقال: «هانز يعتقد أن لي علاقة بطرده وترحيله. وكأنني أفشيت شيئاً عنه».

«ماذا تقول؟».

«إنه يحمِّلني مسؤولية طرده».

«مع من تحدثت بعد لقائك هانز؟».

«فقط معك ومع الآخرين. إيلونا، ماذا كنت تعنين في ذلك اليوم عندما كنت تتحدثين حول شبان في لايبزيغ؟ أولئك الذين يتفقون مع هانز؟ من هم؟ كيف تعرفينهم؟».

«ألم تتحدث مع شخص آخر؟ هل أنت متأكد؟».

«لا، لوثر فقط. ماذا تعرفين حول أولئك الشبان في لايبزيغ إيلونا؟».

«هل أخبرت لوثر بما قاله هانز؟».

«أجل. ماذا تقصدين؟ إنه يعرف كل شيء عن هانز».

حدَّقت إيلونا فيه بتفكُّر.

فقال لها: «من فضلك، أخبريني بما يجري».

«نحن لا نعرف بالضبط من يكون لوثر هذا. هل تعتقد أن أحداً ما قد تبعك إلى هنا؟».

«تبعني! ماذا تقصدين؟ من لا يعرف من يكون لوثر؟».

نظرت إيلونا إليه بطريقة جدية لم يسبق له أن رآها من قبل؛ تكاد تكون نظرة فزع. لم تكن لديه أدنى فكرة عما كان يحدث. كل ما كان يعرفه هو أن ضميره كان يعذبه بشأن هانز الذي كان يظن أنه كان مسؤولاً عما حدث له. لكنه لم يفعل أي شيء؛ أي شيء على الإطلاق.

«أنت تعرف النظام. من الخطر أن تقول الكثير».

«الكثير! أنا لست طفلاً، وأعرف بشأن المراقبة».

«أجل، بالتأكيد».

«لم أقل شيئاً، إلا لأصدقائي. هذا ليس غير شرعي. إنهم أصدقائي. ماذا يجري يا إيلونا؟».

«هل أنت متأكد من أن أحداً لم يتبعك؟».

«لم يتبعني أحد. ما الذي تقصدينه؟ لماذا يجب أن يتبعني أي شخص؟ عم تتحدثين؟» ثم فكَّر في الأمر، وبعد ذلك قال: «لا أعرف إن كان هناك من تبعني. لم أكن أنتبه لذلك. لماذا يجب أن أُلاحَق؟ من يمكن أن يتبعني؟».

«لا أعلم. تعال معي، دعنا نخرج من الباب الخلفي».

«إلى أين سنذهب؟».

«تعال معي».

أمسكت إيلونا بيده وقادته إلى الخارج عبر المطبخ الصغير حيث كانت المرأة العجوز تجلس على كرسيها، وتحوك. رفعت رأسها ونظرت إليهما وابتسمت، فابتسما لها بدورهما وقالا وداعاً. نزلا إلى الحديقة الخلفية المظلمة، وتسلقا السياج، وانتهى بهما الأمر في زقاق ضيق. لم تكن لديه أي فكرة عما كان يجري. لماذا كان يمشي خلف إيلونا في مساء مظلم، وينظر من فوق كتفه ليتأكد إن كان ثمة من يتبعهما؟

سلكت طرقاً متعرجة، وتوقفت بين الحين والآخر كي تسمع إن كان هناك صوت خطوات، ثم واصلت المشي، وهو يلحق بها. وبعد مسافة طويلة، وصلا إلى حي سكني جديد غير مكتمل البناء بعيد نوعاً ما عن مركز المدينة. كانت بعض الأبنية بدون نوافذ أو أبواب. دخلا إلى إحدى كتل الأبنية نصف المسكونة، ونزلا بسرعة إلى القبو. عندما طرقت إيلونا على أحد الأبواب، صمتت على الفور الأصوات التي كانت مسموعة إلى الخارج، ثم فُتح الباب. كان هناك حوالى عشرة أشخاص في الشقة الصغيرة ينظرون إليهما، ويتمعَّنون فيه على نحو خاص.

دخلت إيلونا وحيَّتهم وعرَّفتهم عليه قائلةً: «إنه صديق لهانز». فنظروا إليه وأومأوا برؤوسهم تحيةً له.

صديق لهانز، فكّر في سرّه مندهشاً. كيف كانوا يعرفون هانز؟ كان مذهولاً تماماً. تقدَّمت فتاة نحوه ومدَّت يدها ورحَّبت به.

وقالت: «هل تعلم بما حدث؟ هل تعلم لماذا طُرد؟».

هز رأسه وقال: «ليست لدي أي فكرة». تمعَّن في المجموعة وأضاف: «من أنتم؟ كيف تعرفون جميعكم هانز؟».

سألت الفتاة إيلونا: «هل تبعكما أحد؟».

فأجابتها: «لا. لا يعرف توماس بما يجري، وأردتُه أن يسمع ذلك منكم».

قالت الفتاة: «كنا نعلم أنهم كانوا يراقبون هانز بعد رفضه العمل لصالحهم. كانوا فقط ينتظرون فرصة. ينتظرون فرصة لطرده من الجامعة».

«ماذا كانوا يريدون منه أن يفعل؟».

اقترب رجل منه وقال: «كان شديد الانتباه دائماً. كان يحرص على عدم قول أي شيء يمكن أن يورِّطه في مشكلة».

قالت إيلونا: «أخبره عن لوثر». خفَّ التوتر قليلاً، وعاد بعض أفراد المجموعة إلى الجلوس مجدداً. «لوثر هو راعي توماس».

سألهما شخص آخر من المجموعة بقلق: «هل أنتما متأكدان أنه لم يلحق بكما أحد؟».

فقالت: «لا أحد. قلت لكم هذا. تأكدت من ذلك».

سألهم توماس: «ماذا بشأن لوثر؟». لم يكن يصدق ما كان يسمعه ويراه. نظر إلى الشقة الصغيرة؛ إلى الناس الذين يحدِّقون فيه خوفاً وفضولاً، وأدرك أنه كان في اجتماع خلية، ولكن بشكل معاكس. فذلك لم يكن يشبه تلك الاجتماعات عندما كان الاشتراكيون الشبان يجتمعون في آيسلندا. لم يكن اجتماعاً للعمل من أجل الترويج للاشتراكية، بل اجتماعاً سرياً لمعارضين. أولئك الأشخاص كانوا يلتقون سراً خوفاً من العقاب؛ لسلوكهم المعادي للاشتراكية.

أخبروه أن لوثر لم يكن مولوداً في برلين كما ادَّعى وإنما في بون، وتعَّلم في موسكو، وكانت اللغة الآيسلندية إحدى المواد التي درسها هناك. وكانت مهمته تتمثل في ضم شبان من الجامعة إلى الحزب الشيوعي. وكان يقوم بجهد خاص مع الطلاب الأجانب في أماكن مثل لايبزيغ كي يُستفاد منهم بعد عودتهم إلى بلادهم. ولوثر هو الذي حاول إقناع هانز بالعمل لصالحه. ولم يكن هناك شك في أن لوثر لعب دوراً في طرده.

سأل توماس إيلونا بحيرة: «لماذا لم تخبريني أنك كنت تعرفين هانز؟».

قالت: «لم نكن نتحدث حول هذا الأمر؟ وهانز لم يذكر ذلك لك أيضاً، صحيح؟ وإلا لكنتَ سرَّبته إلى لوثر من دون أن تدري».

قال توماس: «إلى لوثر؟».

قالت إيلونا: «أنت أخبرته بشأن هانز؟».

«لم أكن أعرف أنه...».

قاطعته إيلونا قائلةً: «يجب علينا الانتباه لما نقوله دوماً. من المؤكد أنك لم تساعد هانز بالتحدث مع لوثر».

«لم أكن أعلم بشأن لوثر يا إيلونا».

«ليس بالضرورة لوثر. يمكن أن يكون أي شخص. لا تستطيع معرفة ذلك أبداً. لا تعرف أبداً من يكون. هكذا يعمل النظام. بهذه الطريقة يعملون».

حدَّق في إيلونا وأدرك أنها كانت محقة. لقد استغله لوثر، مستفيداً من غضبه. ما كتبه هانز في رسالته كان صحيحاً، فهو أفشى شيئاً كان ينبغي أن يبقى طي الكتمان. لم يحذِّره أحد من ذلك. لم يتحدث أحد عن أسرار. لكنه كان يعلم في أعماقه بأنه لم تكن هناك حاجة لأن يخبره أحد بذلك. كان الشعور بالذنب يعتصر قلبه. كان يعرف تماماً كيف كان النظام يعمل. كان يعرف كل شيء حول المراقبة التفاعلية، ولقد سمح لغضبه بتضليله. لقد ساعدتهم سذاجته في الاقتصاص من هانز.

قال توماس: «لقد توقف هانز عن مرافقة بقية الآيسلنديين».

قالت إيلونا: «صحيح».

قال توماس: «لأنه...» ولم يكمل جملته. لكن إيلونا هزت رأسها دلالةً على فهمها لما يريد قوله.

«ماذا يجري؟ ما الذي يحدث هنا حقاً؟ إيلونا؟».

نظرت إلى المجموعة وكأنها كانت تنتظر رداً من أحد، فأومأ لها الرجل الذي تحدث سابقاً برأسه، فقالت له إنهم اتصلوا بها بناء على مبادرة خاصة منهم. كانت واحدة من أفراد المجموعة - وهي الفتاة التي صافحت توماس مرحِّبةً به - تدرس اللغة الألمانية معها في الجامعة، وكانت تريد معرفة تفاصيل ما كان يجري في هنغاريا، عن معارضة الحزب الشيوعي هناك والخوف من الاتحاد السوفييتي. وبعد مقدمات حذرة لتقصّي آراء إيلونا، وحالما اقتنعت بأنها كانت تؤيد الثورة في هنغاريا، طلبت منها المجيء ومقابلة رفاقها. كانت المجموعة تعقد اجتماعات سرية؛ وذلك لأن المراقبة كانت تزداد بشكل كبير وكان الناس يُحثّون على إبلاغ شرطة الأمن بأي سلوك أو مواقف معادية للاشتراكية. وكانت لهذا الأمر علاقة بانتفاضة العام 1953 ، وإلى حد ما بردّ فعل على الوضع في هنغاريا. التقت إيلونا هانز في أول لقاء يجمعها بالناشطين الشبان في لايبزيغ. كانوا يريدون أن يعرفوا حول هنغاريا، وما إذا كان بالإمكان بناء مقاومة مشابهة في ألمانيا الشرقية.

قال توماس: «لماذا كان هانز موجوداً في هذه المجموعة؟ كيف تورَّط في كل هذا؟».

قالت إيلونا: «كان هانز مغسول الدماغ كلياً؛ مثلك تماماً. لا بد أنكم تملكون قيادة قوية في آيسلندا». نظرت إلى الرجل الذي تحدث سابقاً. «كان مارتن وهانز صديقين من كلية الهندسة. تطلب الأمر من مارتن وقتاً طويلاً كي يحمل هانز على فهم ما كنا نقوله. لكننا كنا نثق به. لم يكن لدينا أي سبب يدعونا لعدم الثقة به».

«إذا كنتم تعرفون كل هذا عن لوثر، فلماذا لا تفعلون شيئاً ما؟».

قال رجل في المجموعة: «لا يمكننا فعل أي شيء سوى تحاشيه، وهذا صعب لأنه مدرَّب على مصادقة الجميع. ما يمكننا فعله إن ازداد فضوله هو تضليله. الناس لا يدركون حقيقته لأنه يقول ما نريد أن نسمعه ويوافق على آرائنا. لكنه مزيف، وهو خطير».

قال توماس وهو ينظر إلى إيلونا: «انتظر لحظة. إذا كنت تعرفين بشأن لوثر، ألم يكن هانز يعرف من يكون؟».

قالت إيلونا: «بلى، كان هانز يعرف».

«لماذا لم يقل لي أي شيء؟ لماذا لم يحذِّرني؟ لماذا لم يقل شيئاً؟».

اقتربت إيلونا منه وقالت: «لم يكن يثق بك. لم يكن يعلم أين تقف».

«قال إنه كان يريد أن يُترك وشأنه».

قالت إيلونا: «كان حقاً يريد أن يُترك وشأنه. لم يكن يريد أن يتجسس علينا أو على أبناء بلده».

«لقد ناداني بعد أن مشيت وتركته. كان سيقول لي شيئاً آخر لكنني... كنتُ غاضباً، فخرجت بسرعة. والتقيت لوثر مباشرةً».

نظر إلى إيلونا وأضاف قائلاً: «إذاً، تلك لم تكن مصادفة؟».

قالت إيلونا: «أشك في ذلك. لكن، كان مؤكداً أن ذلك سيحدث عاجلاً أم آجلاً، لأنهم كانوا يراقبون هانز عن كثب».

سألها توماس: «هل يوجد أشخاص آخرون مثل لوثر في الجامعة؟».

«أجل. لكننا لا نعرفهم. نعرف فقط بعضهم».

قال رجل يجلس على كرسي، كان يستمع لما كان يدور من دون أن يتفوه بأي كلمة: «لوثر راعيك؟».

«أجل».

قالت إيلونا للرجل: «ماذا تقصد؟».

قال الرجل وهو يقف: «يُفترَض بالرعاة مراقبة الأجانب. يُفترَض بهم الإبلاغ عن أي شيء يخص الأجانب. نحن نعلم أن لوثر معني بدفعهم للتعاون».

اقتربت إيلونا خطوة من الرجل وقالت له: «أخبره بما تريد قوله».

«كيف نعرف أننا نستطيع أن نثق بصديقك هذا؟».

قالت إيلونا: «أنا أثق به. هذا كافٍ».

قال توماس: «كيف تعرفون أن لوثر خطير؟ من أخبركم بهذا؟».

أجابه الرجل: «هذا عملنا».

قال توماس وهو ينظر إليه: «إنه محق. ولماذا ينبغي عليكم أن تثقوا بي؟».

فقال الرجل: «نحن نثق بإيلونا».

ابتسمت إيلونا بارتباك وقالت: «قال هانز إنك ستغيِّر رأيك في النهاية».

نظر إلى الورقة الباهتة وقرأ رسالة هانز القديمة. كان المساء سيحل بعد قليل، وسيمشي الزوجان بالقرب من نافذته. فكَّر في تلك الليلة في شقة القبو في لايبزيغ وكيف غيَّرت مسار حياته. وفكَّر في الأشخاص المرعوبين في ذلك القبو.

كان أولاد أولئك الأشخاص هم الذين حوَّلوا نيكولايكيرتشه إلى حصن لهم، واندفعوا إلى الشوارع - بعد عقود - عندما بلغ الوضع أخيراً نقطة الغليان.

18

لم تذهب فالجيردر مع إرلندور إلى وليمة شواء سيغوردور أولي، ولم يُذكَر اسمها هناك. شوت إيلينبورغ قطعاً لذيذة من خاصرة عجل منقوعة مسبقاً في صلصة متبَّلة خاصة مع قطع من قشر الليمون، لكنهم أكلوا في البداية طبقاً من الروبيان أعدَّته بيرجثورا ومدحته إيلينبورغ بشدة. كان مذاق طبق التحلية الذي أعدته إيلينبورغ ممتازاً؛ رغم أن إرلندور لم يعرف مما كان مُكوَّناً. لم يكن ينوي المجيء، لكنه استسلم للإلحاح المستمر من قبل سيغوردور أولي وبيرجثورا. على أي حال، لم تكن الجلسة سيئة مثل حفل ترويج كتاب إيلينبورغ. كانت بيرجثورا مسرورة جداً لمجيئه، لدرجة أنها سمحت له بالتدخين في غرفة الجلوس. ذُهل سيغوردور أولي عندما جلبت بيرجثورا له منفضة السجائر، فراقبه إرلندور مبتسماً، وأحس بأنه حصل على جائزته.

لم يتحدثوا في مسائل العمل إلا في مناسبة واحدة عندما كانت إيلينبورغ تعدَّ الشوّاية في الباحة وبجانبها إرلندور وسيغوردور أولي. حينئذ تساءل سيغوردور أولي عن سبب كون الجهاز الروسي معطلاً قبل نزوله في البحيرة مع الجثة؛ وكان إرلندور قد أخبرهم مسبقاً بنتائج الأدلة الجنائية.

فقالت إيلينبورغ: «ألا يخبرنا ذلك بشيء ما؟».

قال إرلندور: «لا أعرف. لا أعرف إذا كانت مسألةُ كونه يعمل أم لا هامةً. لا يمكنني رؤية الفرق. جهاز التنصت هو جهاز تنصت. والروس هم الروس».

قال سيغوردور أولي: «أجل، أعتقد ذلك. لعله تضرَّر في صراع ما. ربما سقط على الأرض وتحطّم».

قال إرلندور: «هذا محتمل». ونظر إلى الشمس. كانت تلك هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى منزل سيغوردور أولي وبيرجثورا رغم أنهما كانا يعملان معاً منذ مدة طويلة. لم يستغرب عندما وجد أن كل شيء مرتب ونظيف هناك. أثاث عصري وقطع فنية وأرضية جميلة. لم يستطع رؤية ذرة غبار، أو أي كتاب.

في الداخل، ابتهج إرلندور عندما علم أن تيدي، زوج إيلينبورغ، ملمٌّ بسيارات الفورد فالكون. كان تيدي ميكانيكي سيارات ممتلئ الجسم ويعشق طبخ إيلينبورغ؛ مثل معظم الأشخاص الذين يعرفونها. كان والده يمتلك فورد فالكون ذات يوم، وكان تيدي يكنُّ إعجاباً كبيراً للموديل. أخبر تيدي

إرلندور أن قيادتها كانت في غاية السلاسة، وأنها تملك مقعداً أمامياً عريضاً، وعلبة تغيير سرعات أوتوماتيكية، ومقوداً عاجياً ضخماً. كانت سيارة عائلية أصغر حجماً من الموديلات الأميركية الأخرى في الستينيات التي كانت ضخمة في الغالب.

قال تيدي وهو يأخذ سيجارة من إرلندور: «لم تكن تعمل بشكل جيد على الطرق الآيسلندية القديمة. لعلها لم تُصنَع قويةً بما يكفي للظروف الآيسلندية. لقد تعذّبنا كثيراً عندما انكسر المحور ذات يوم في الريف. اضطرَّ والدي لجلب شاحنة لنقلها إلى المدينة. لم تكن سيارات قوية على نحو خاص، لكنها كانت جيدة للعائلات الصغيرة».

قال إرلندور وهو يشعل سيجارة تيدي: «هل كانت أغطية العجلات مميزة فيها بأي شكل من الأشكال؟».

«كانت أغطية العجلات في السيارات الأميركية فاخرة المظهر دائماً، وكانت كذلك في سيارات الفالكون. لكنها لم تكن مميزة حقاً. أما الشيفروليه...».

للعائلات الصغيرة، فكَّر إرلندور، وتلاشى صوت تيدي. لقد اشترى البائع المفقود سيارة جميلة للعائلة الصغيرة التي كان ينوي تأسيسها مع المرأة التي تعمل في محل الألبان والأجبان. كان ذلك هو المستقبل. عندما اختفى، كان أحد أغطية عجلات السيارة مفقوداً من سيارته. لعله انعطف بسرعة كبيرة أو اصطدم بحافة الرصيف. أو لعل الغطاء سُرق ببساطة خارج محطة الحافلات.

واصل تيدي كلامه وهو يرتشف من كأسه: «... ثم جاءت أزمة النفط في السبعينيات واضطروا لصنع سيارات أكثر اقتصاديةً».

هز إرلندور رأسه بشرود وأطفأ سيجارته. شاهد سيغوردور أولي يفتح إحدى النوافذ كي يخرج الدخان. كان إرلندور يحاول تخفيف تدخينه، لكنه كان دائماً يدخن أكثر مما كان ينوي. كان يفكِّر في التخلي عن القلق بشأن السجائر لكن ذلك لم يفده في شيء حتى ذلك الحين. تذكَّر إيفا ليند التي لم تتصل به منذ أن غادرت مركز إعادة التأهيل. لم تكن تقلق بشأن صحتها مطلقاً. نظر إلى الباحة الخلفية الصغيرة لمنزل سيغوردور أولي وبيرجثورا، وراقب إيلينبورغ بينما كانت تشوي اللحم. بدت له كما لو أنها كانت تغني لنفسها. نظر إلى المطبخ فشاهد سيغوردور أولي يقبِّل بيرجثورا على مؤخر رقبتها بينما كان يمر بجانبها. ثم ألقى نظرة جانبية إلى تيدي فوجده يستمتع بالشراب.

ربما كان هذا هو الاستمتاع بالحياة. ربما يكون الأمر بهذه البساطة عندما تكون الشمس مشرقة في يوم صيفي جميل.

بدلاً من الذهاب إلى المنزل في ذلك المساء، قاد سيارته إلى خارج المدينة باتجاه موزفيلسباير. سلك طريقاً مختصراً نحو مزرعة تضم منزلاً كبيراً، وهناك انعطف في اتجاه البحر إلى أن وصل إلى الأرض التي كان هارالدر وأخوه يوهان يزرعانها. لم يعطه هارالدر إلا إشارات محدودة، وحاول قدر استطاعته عدم مساعدته. فقد رفض إخبار إرلندور إن كانت مباني المزرعة لا تزال موجودة أم لا، مدَّعياً أنه لم يكن يعلم أي شيء عنها. قال إن أخاه مات فجأة من جرّاء نوبة قلبية، ثم أضاف: «ليس الجميع محظوظين مثل أخي جوي».

كانت الأبنية لا تزال موجودة، إضافة إلى شاليهات صيفية موزعة هنا وهناك على أرض المزرعة القديمة. وبالنظر إلى الأشجار المزروعة حول بعض تلك الشاليهات، خمَّن إرلندور أنها بُنيت منذ مدة طويلة. أما الأخرى فكانت حديثة. شاهد إرلندور ملعب جولف بعيداً بعض الشيء، وكان بعض الأشخاص يضربون الكرات ويلحقون بها تحت أشعة الشمس الدافئة، رغم أن الوقت كان متأخراً.

كانت أبنية المزرعة متداعية، وهي مكوَّنة من منزل صغير وبجانبه عدة أكواخ. كان المنزل مكسواً بحديد مموَّج كان ذات يوم مطلياً باللون الأصفر، لكن اللون تلاشى كلياً تقريباً. وكانت بعض الصفائح المعدنية المموَّجة الصدئة لا تزال معلَّقة على الجانب الخارجي للمنزل، في حين استسلم بعضها الآخر للرياح وسقط على الأرض. تخيَّل إرلندور أن معظم صفائح السقف طارت إلى البحر. كانت جميع النوافذ مكسورة والباب الخارجي مفقوداً. وبالقرب من المنزل، كانت هناك بقايا كوخ أدوات صغير ملاصق لحظيرة مواشٍ ومستودع.

كان المنزل المتداعي يشبه إلى حد كبير منزل طفولته.

دخل إليه. كان الباب الأمامي يُفضي إلى مدخل صغير ثم إلى ممر ضيق. كان المطبخ وغرفة الغسيل يقعان على يمين الممر، وغرفة التخزين على يساره. كان هناك موقد آيسلندي قديم جداً لا يزال موجوداً في المطبخ، مع ثلاث صفائح تسخين وفرن صغير، أكلها الصدأ جميعاً. وفي نهاية الممر، كانت توجد غرفتا نوم وغرفة جلوس. كانت ألواح الأرضية تصرُّ تحته في هدوء المساء. لم يكن يعرف عما كان يبحث، ولماذا جاء إلى هذا

المكان.

وبعد ذلك، ذهب إلى الأكواخ. كانت الأرض ترابية داخل حظيرة الماشية والمستودع. انعطف خلف الحظيرة فرأى آثار كومة روث حيوان ما. كان باب كوخ الأدوات مغلقاً، لكنه عندما جذبه كي يفتحه انخلع من مفاصله وسقط على الأرض وانكسر مصدراً صوتاً يشبه صوت أنين ثقيلاً. كانت توجد في داخله رفوف عليها صناديق للبراغي والصواميل، وكانت هناك مسامير مثبتة على الجدران لتعليق الأدوات، لكن الأدوات لم تكن موجودة. لا بد أن الأخوين أخذا معهما كل شيء يمكنهما الاستفادة منه عند انتقالهما إلى ريكيافيك. كانت هناك طاولة عمل مكسورة مستندة بشكل مائل إلى الجدار، وغطاء محرك جرّار مستلقياً فوق كومة من الأغراض الحديدية على الأرض.

دخل إرلندور إلى كوخ الأدوات وسار إلى نهايته. هل جاء سائق الفالكون إلى هنا؟ أو هل استقلَّ حافلة متجهاً إلى منطقة ريفية ما؟ وإذا جاء إلى هنا فعلاً، فبماذا كان يفكر؟ لقد غادر ريكيافيك في وقت متأخر من النهار. كان يعرف أنه لم يكن يملك الكثير من الوقت. إذ كانت ستنتظره أمام محل الألبان والأجبان وهو لم يكن يريد أن يتأخر. لكنه لم يكن يريد استعجال الأخوين، فهما كانا مهتمين بشراء جرار منه. لم يكن تثبيت البيع ليستغرق منه الكثير من الوقت. لكنه لم يكن يريد أن يعطي انطباعاً بأنه لحوح لأن ذلك يمكن أن يعرِّض الصفقة للفشل. ومع ذلك كان مستعجلاً؛ كان يريد الانتهاء من هذه المهمة.

إذا كان قد جاء إلى هنا فعلاً، فلماذا لم يعترف الأخوان بذلك؟ لماذا سيكذبان؟ لم تكن لديهما أي مصالح شخصية. ولم يكونا يعرفان الرجل مطلقاً. ولماذا كان أحد أغطية العجلات مفقوداً من سيارته؟ هل سقط منها؟ هل سُرق منها خارج محطة الحافلات؟ هل سُرق هنا؟

إذا كان الرجل في البحيرة ذو الجمجمة المكسورة هو ليوبولد، فكيف انتهى به المطاف هناك؟ ومن أين جاء الجهاز المربوط به؟ هل للأمر علاقة بمسألة أنه كان يبيع جرارات وآليات من الجبهة الشرقية؟ هل كانت هناك صلة؟

رنَّ هاتفه الخلوي في جيبه.

قال إرلندور باقتضاب: «نعم».

قال صوت يعرفه جيداً: «دعني وشأني». كان يعرف الصوت بشكل خاص عندما يكون في هذه الحالة.

قال إرلندور: «أنوي ذلك».

«افعل ذلك إذاً. دعني وشأني من الآن فصاعداً. فقط توقف عن التدخل في حياتي إلى -».

قطع الاتصال، ولكن كان من الصعب عليه أن يقطع الصوت، لأن صداه كان يتردد في رأسه: مخدَّراً وغاضباً ومنفِّراً. لا بد أنها كانت في مقهى ما برفقة شخص قد يكون اسمه إيدي ويبلغ من العمر ضعف عمرها، كان واثقاً من ذلك. حاول عدم التفكير في تفاصيل الحياة التي كانت تعيشها. لقد فعل مراراً وتكراراً كل ما بوسعه لمساعدتها، ولم يعد يعرف ماذا يمكنه أن يجرِّب غير ذلك. كان محتاراً تماماً بخصوص ابنته المدمنة. في الماضي، كان يبحث عنها. فقد كانت تهرب ويجدها. في الماضي، كان يقنع نفسه أنها عندما كانت تقول له «دعني وشأني» فإنها كانت تعني في حقيقة الأمر «تعال وساعدني». لكنه لم يعد يريد فعل ذلك. كان يريد أن يقول لها: «انتهى الأمر. يمكنك الاعتناء بنفسك».

كانت قد انتقلت للعيش معه في ذاك الكريسماس. في تلك الفترة، كانت منقطعةً عن تعاطي المخدرات بسبب إجهاضها جنينها وبقائها في المستشفى، غير أن ذلك لم يدم طويلاً. شعر باضطرابها في الأيام الأولى من العام الجديد، وبعد ذلك بدأت تختفي لفترات متنوعة. كان يلحق بها ويعيدها إلى المنزل، فترحل في صباح اليوم التالي. واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن توقف عن مطاردتها، وعن التظاهر بأن فعل ذلك كان يصنع فرقاً. كانت تلك حياتها. وإذا اختارت أن تعيشها بتلك الطريقة، فهذه مسؤوليتها. لم يكن قادراً على فعل أي شيء آخر. وعندما ضربت سيغوردور أولي بالمطرقة، كان قد مضى أكثر من شهرين على آخر مرة سمع فيها صوتها.

وقف هناك في الساحة ينظر إلى بقايا حياة كانت ذات يوم موجودة. فكَّر في الرجل الذي كان يمتلك الفالكون، وفي المرأة التي كانت لا تزال تنتظره. فكَّر في ابنته وابنه. نظر إلى شمس المساء وفكر في شقيقه الميت. بماذا كان يفكر وسط تلك العاصفة الثلجية الشديدة؟

إلى أي حد كان الجو بارداً؟

ما هو الشعور لدى العودة إلى المنزل وإلى الدفء؟

في صباح اليوم التالي، عاد إرلندور إلى المرأة التي كانت تنتظر الرجل صاحب الفالكون. كان يوم سبت، ولم يكن لديها عمل. كان قد اتصل بها

مسبقاً فأعدت له القهوة، رغم أنه طلب منها عدم إزعاج نفسها بأي شيء من أجله. جلسا في غرفة جلوسها كما في السابق. كان اسمها آستا.

قالت له: «بالتأكيد أنتم تعملون دائماً في عطل نهايات الأسبوع». ثم أضافت قائلةً إنها عملت ذات مرة في المطبخ في مستشفى المدينة في فوسفورجر.

قال محاولاً عدم الخوض كثيراً في التفاصيل: «أجل، نكون غالباً مشغولين». كان بوسعه الاستراحة في عطلة نهاية الأسبوع، لكن قضية الفالكون أثارت فضوله، وشعر بحاجة غريبة وضاغطة للغوص إلى أعماقها. لم يكن يعرف السبب. ربما لأجل المرأة الجالسة قبالته، والتي مارست أعمالاً قليلة الشأن طوال حياتها، والتي كانت لا تزال تعيش وحدها، وكأنها كانت تعتقد أن الرجل الذي أحبته ذات يوم سيرجع إليها؛ كما كان يفعل في السابق، وسيقبّلها ويخبرها عن يومه في العمل، ويسأل عن حالها.

قال بحذر: «في المرة الماضية عندما جئنا إلى هنا قلتِ إنك لم تكوني تعتقدين بوجود امرأة أخرى».

في طريقه لرؤيتها، خطرت له أفكار أخرى. لم يكن يريد إفساد ذكرياتها، أو أي شيء كانت تتعلق به. لقد شاهد ذلك يحدث أمامه من قبل عندما وصلوا إلى منزل أحد المجرمين، حيث حدَّقت فيهم زوجته، غير قادرة على تصديق عينيها وأذنيها. كان أطفالها يقفون خلفها. كانت قلعتها تتداعى من حولها. زوجي! يبيع مخدرات! لا بد أنك مجنون!

قالت آستا الجالسة على كرسي قبالته: «لماذا تسأل عن هذا الأمر؟ هل تعرف أكثر مما أعرف؟ هل اكتشفتم شيئاً ما؟ هل ظهر لكم شيء جديد؟».

انكمش إرلندور على كرسيه عندما أحس باللهفة في صوتها، وقال: «لا، لا شيء». ثم وصف لها زيارته لهارالدر وعثوره على الفالكون التي كانت لا تزال في حالة جيدة ومحفوظة في مرأب في كوبافوجر. وأخبرها أيضاً أنه زار مزرعة مهجورة بالقرب من موزفيلسباير. إلا أن اختفاء شريكها ظل لغزاً كما كان في السابق.

ثم أضاف: «قلتِ إنك لم تكوني تملكين صوراً فوتوغرافية له، أو لكما معاً».

قالت آستا: «لا، هذا صحيح. كنا معاً منذ فترة قصيرة فقط».

«إذاً، ألم تظهر أي صورة له في الصحف أو على التلفاز عندما أُعلن عن فقدانه؟».

«لا، لكنهم قدّموا وصفاً تفصيلياً. كانوا سيستخدمون الصورة التي على رخصة قيادته. قالوا إنهم دائماً يحتفظون بنسخ عن رخص القيادة، لكنهم لم يتمكنوا من إيجادها. بدا الأمر كما لو أنه لم يسلِّمها، أو أنهم أضاعوها».

«هل رأيتِ يوماً رخصة القيادة الخاصة به؟».

«رخصة القيادة؟! لا، ليس حسبما أذكر. لماذا كنت تسأل عن امرأة أخرى؟».

طُرح السؤال بنبرة أشد حدةً وإلحاحاً. تردَّد إرلندور قبل أن يفتح الباب على ما سيكون حتماً - بالنسبة لذهنها - الجحيم بعينه. لعله تقدَّم بسرعة أكبر من اللزوم. ثمة نقاط تحتاج إلى المزيد من التمحيص. ربما كان ينبغي عليه الانتظار.

قال إرلندور: «ثمة حالات ترك فيها رجال نساءهم من دون أن يقولوا وداعاً وبدأوا حياة جديدة».

قالت كما لو أن الفكرة كانت أكبر من قدرتها على إدراكها: «حياة جديدة!».

«أجل. حتى هنا في آيسلندا، الناس يعتقدون أن الجميع يعرف الجميع، لكن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة. هنالك الكثير من البلدات والقرى التي لم يزرها إلا أناس قليلون؛ إلا ربما في ذروة الصيف، وربما ليس حتى في ذلك الحين. وفي الماضي كانت معزولة أكثر بكثير من اليوم، بل إن بعضها كان شبه مقطوع. كانت وسائل المواصلات أسوأ آنذاك».

قالت آستا: «أنا لا أفهمك. إلى أين تريد أن تصل؟».

«فقط أردت أن أعرف إن كنت قد فكَّرت ولو لمرة واحدة في هذا الاحتمال».

«أي احتمال؟».

قال إرلندور: «بأنه استقل حافلة وذهب إلى المنزل».

راقبها وهي تحاول استيعاب ما لا يمكن استيعابه.

ثم قالت: «عم تتحدث؟ منزل! أيّ منزل؟! ماذا تعني؟».

أدرك أنه تجاوز الحد المقبول، وأدرك أن ثمة جرحاً غير مندمل لا يزال طرياً ومفتوحاً؛ رغم كل السنين التي مرَّت منذ اختفاء الرجل من حياتها. تمنّى لو أنه لم يذهب إلى ذلك الحد. كان ينبغي عليه عدم التحدث معها في هذه المرحلة المبكرة من التحقيقات، بدون امتلاك أي شيء أكثر واقعيةً من تخيُّلاته الخاصة وسيارة فارغة خارج محطة الحافلات.

في محاولة منه لتخفيف أثر كلماته، قال لها: «إنها مجرد واحدة من

الفرضيات. بالطبع، إن آيسلندا صغيرة جداً على أي شيء مثل هذا. إنها مجرد فكرة؛ بدون أي أساس واقعي».

لقد أمضى إرلندور وقتاً طويلاً وهو يتساءل عمّا يمكن أن يكون قد حدث للرجل إذا لم ينتحر. وعندما بدأت فكرة وجود امرأة أخرى تتجذَّر في ذهنه، بدأ النوم يجافيه. في البداية، كانت الفرضية بسيطة للغاية: خلال رحلاته حول آيسلندا، كان البائع يقابل جميع أصناف الناس من مختلف مشارب الحياة؛ مزارعين وموظفي فنادق، وسكان بلدات وقرى صيد، ونساء. من المحتمل أنه وجد صديقة في واحدة من تلك الرحلات، ومع الوقت أصبح يفضِّلها على المرأة في ريكيافيك، لكنه افتقدَ إلى الشجاعة لإخبارها بذلك.

وكلما كان إرلندور يفكر في المسألة أكثر، ازداد ميله لتصديق أنه إذا كانت هناك امرأة أخرى، فلا بد أن الرجل كان يمتلك دافعاً أقوى لإخفاء نفسه. وعندئذ بدأ يفكر في كلمة دخلت ذهنه عندما كان واقفاً خارج المزرعة المهجورة في موزفيلسباير والتي ذكَّرته بالمنزل الذي عاش فيه في شرق آيسلندا.

المنزل.

كانوا قد ناقشوا مسبقاً هذه الفكرة في المكتب. ماذا لو أنهم عكسوا القصة؟ ماذا لو أن المرأة التي تجلس أمامه الآن كانت صديقة ليوبولد في ريكيافيك، لكنه كان يملك عائلة في مكان آخر؟ ماذا لو أنه قرر وضع نهاية للمعضلة التي وضع نفسه فيها، وقرر العودة إلى منزله؟

أوجز للمرأة الخطوط العريضة لهذه الأفكار، ولاحظ أن غيمة سوداء كانت تهبط تدريجياً عليها.

قالت: «لم يكن يعاني من أي مشكلة. هذا الذي تقوله مجرد هراء. كيف أمكنك التفكير في شيء كهذا؟! كيف أمكنك التحدث عن الرجل بهذه الطريقة».

قال إرلندور: «إن اسمه ليس شائعاً كثيراً. لا يوجد إلا مجموعة صغيرة من الرجال بالاسم نفسه في البلد بأكمله. ليوبولد. لم تكوني تعرفين رقم بطاقته الشخصية، وليس لديك إلا بضعة أشياء قليلة من ممتلكاته الشخصية».

صمت إرلندور للحظات، وتذكَّر أن نيلز أخفى عنها الأدلة التي تشير إلى أن ليوبولد لم يكن يستخدم اسمه الحقيقي، وإلى أنه كان يخدعها ويدَّعي أنه شخص لم يكن هو في الواقع. لم يخبر نيلز آستا بهذه الشكوك

لأنه شعر بالأسى حيالها. والآن، فهم إرلندور ما كان يقصده.

تابع إرلندور كلامه: «لعله لم يكن يستخدم اسمه الحقيقي. هل خطر ذلك ببالك يوماً؟ أقصد أنه لم يكن مسجَّلاً رسمياً بذلك الاسم؛ فنحن لم نتمكن من إيجاده في السجلات».

قالت المرأة بغضب: «اتصل بي شخص من الشرطة لاحقاً؛ لاحقاً بوقت طويل. اسمه برايم أو شيء يشبهه. أخبرني حول نظريتك التي تقول إن ليوبولد ربما لم يكن من كان يدَّعي أنه هو. وقال إنه كان ينبغي عليهم إخباري بذلك على الفور، ولكن حصل بعض التأخير. لقد سمعت أفكارك وهي سخيفة. لم يكن ليوبولد ليُبحر تحت علم مزيف».

ظل إرلندور صامتاً، فأكملت آستا كلامها: «أنت تحاول أن تخبرني أنه ربما كان يملك عائلة، وأنه ربما عاد إليها، وأنني كنت مجرد خطيبته في المدينة. أي نوع من الهراء هذا؟».

قال إرلندور بإصرار: «ماذا تعرفين عن ذاك الرجل؟ ماذا تعرفين حقاً عنه؟ هل هو كثير؟».

قالت: «لا تتحدث بهذه الطريقة. من فضلك، لا تنقل أفكارك الغبية إلي. يمكنك الاحتفاظ بها لنفسك. لست مهتمة بسماعها». صمتت وراحت تحملق فيه.

همَّ إرلندور بالقول: «أنا لا -».

لكنها قاطعته قائلةً: «هل تعني أنه لا يزال على قيد الحياة؟ هل هذا ما تقصده؟ أنه لا يزال حياً ويعيش في قرية ما؟».

«لا، أنا لا أقول ذلك. إنني فقط أريد أن أستكشف هذا الاحتمال معك. كل ما قلته ليس أكثر من تخمين. لا حاجة لأن يكون له أي أساس واقعي. وفي هذه اللحظة، ليس له أي أساس واقعي. أردت فقط أن أعرف إن كان بوسعك أن تتذكَّري أي شيء يمكن أن يعطينا سبباً لافتراض ذلك. هذا كل ما في الأمر. إنني لا أقول عن أي شيء إنه صحيح لأنني لا أعرف أي شيء بأنه صحيح».

«أنت تقول كلاماً سخيفاً؛ وكأنه كان يخدعني. لماذا ينبغي علي الاستماع إلى هذا؟!».

بينما كان إرلندور يحاول إقناعها، خطرت له فكرة غريبة. بعد ما قاله لها ولم يتمكن من التراجع عنه، سيكون عزاءً كبيراً لها من الآن فصاعداً أن تعرف أن الرجل ميت بدلاً من أن تجده على قيد الحياة، لأن ذلك سيسبب لها ألماً فظيعاً.

يبدو أنها كانت تفكر في شيء مشابه، لأنها قالت: «ليوبولد ميت. لا فائدة من إخباري بغير ذلك. بالنسبة لي، إنه ميت. مات منذ سنوات. منذ عمر بأكمله».

سكتا معاً للحظات، ثم قال إرلندور: «ولكن، ماذا تعرفين عن الرجل بشكل واقعي؟».

كانت نظرتها إليه توحي بأنها كانت تريده أن يستسلم ويرحل، لكنها قالت مع ذلك: «هل تعني جدياً أنه كان يُدعى باسم آخر ولم يكن يستخدم اسمه الحقيقي؟».

«إن أياً مما قلته لا يجب بالضرورة أن يكون ما حدث في الواقع. إن التفسير الأرجح، لسوء الحظ، هو أنه لسبب ما قتل نفسه».

قالت فجأة: «ماذا نعرف عن الأشخاص الآخرين؟ كان من النوع الهادئ، ولم يكن يتحدث عن نفسه كثيراً. بعض الناس لا يتحدثون إلا عن أنفسهم. لا أدري إن كان ذلك أفضل. قال لي الكثير من الأشياء الجميلة التي لم يسبق أن قالها لي أحد من قبل. لم أترعرع في ذلك النوع من العائلات؛ حيث الناس يقولون أشياء لطيفة».

«ألم ترغبي بالبدء من جديد؟ ألم تفكري في إيجاد رجل جديد، وأن تتزوجي وتكوِّني عائلة؟».

«كنت قد تخطيت الثلاثين عندما التقينا. كنت أعتقد أنه سينتهي بي المطاف عانساً مسنة، وأن الوقت سينفد مني. لم تكن هذه هي الخطة مطلقاً، ولكن بطريقة ما هذا ما حدث. ثم بعد ذلك تبلغ عمراً معيناً وتجد نفسك وحيداً في غرفة فارغة. لهذا السبب هو... غيَّر ذلك. ورغم أنه لم يكن يتكلم كثيراً وكان يغيب كثيراً، إلا أنه كان لا يزال رجلي».

نظرت إلى إرلندور ثم تابعت كلامها: «كنا معاً، وبعد اختفائه انتظرته عدة أعوام، ولعلي ما زلت أنتظر. متى تتوقف عن ذلك؟ هل هناك قاعدة بخصوص هذا الأمر؟».

«لا. ليست هناك قاعدة».

«لم أكن أعتقد ذلك».

أحسَّ إرلندور بأسى موجع عليها عندما لاحظ أنها بدأت تبكي.

19

ذات يوم، ظهرت رسالة على مكتب سيغوردور أولي من السفارة الأميركية في ريكيافيك تقول إنها تملك معلومات يمكن أن تكون مفيدة للشرطة في تحقيقها المتعلق بالهيكل العظمي المكتشف في كلايفارفاتن. سُلِّمت الرسالة بواسطة سائق من السفارة قال إنه يفترَض به الانتظار كي يأخذ رداً. كان سيغوردور أولي - بمساعدة أومار، المدير العام السابق لوزارة الخارجية - قد اتصل بروبرت كريستي في واشنطن الذي وعد بمساعدتهم بعد سماعه طلبهم. قال أومار إن روبرت - أو بوب، كما كان يدعوه - أبدى اهتماماً بالقضية، وإن السفارة ستتصل بهم قريباً.

نظر سيغوردور أولي إلى السائق الذي كان يرتدي بذلة سوداء وقفازاً جلدياً أسود، ويعتمر قبعة ذات حافة أمامية بارزة وشريط ذهبي. كان يبدو أبله تماماً بتلك الثياب. وبعد قراءته الرسالة، هز سيغوردور أولي رأسه، وقال للسائق إنه سيكون في السفارة عند الساعة الثانية من اليوم نفسه، وسيجلب معه محققة تُدعى إيلينبورغ. ابتسم السائق وغادر المكتب. توقّع سيغوردور أولي أن يقدِّم له التحية قبل أن يغادر لكنه لم يفعل.

كادت إيلينبورغ تصطدم بالسائق عند باب مكتب سيغوردور أولي، فاعتذر لها، وراحت تراقبه بينما كان يمشي في الممر.

قالت: «من يكون هذا بحق الله؟».

«السفارة الأميركية».

وصلا إلى السفارة عند الساعة الثانية تماماً. كان هناك حارسان أمنيان آيسلنديان يقفان خارج المبنى، ونظرا إليهما بارتياب عند اقترابهما. ذكرا مهنتهما ففُتح الباب وسُمح لهما بالدخول. استقبلهما حارسان أمنيان آخران؛ أميركيان هذه المرة. كانت إيلينبورغ تستعد لتفتيشها بحثاً عن الأسلحة عندما ظهر رجل في قاعة الاستقبال وصافحهما مرحِّباً. قال إن اسمه كريستوفر ميلفيل، وطلب منهما أن يتبعاه بعد أن مدحهما لوصولهما في «الموعد المحدد». كانوا يتحدثون بالإنكليزية.

تبع سيغوردور أولي وإيلينبورغ ميلفيل إلى الطابق الأعلى عبر الممر الواصل بينهما، ثم إلى باب يحمل لافتة كُتب عليها: مدير الأمن. كان هناك رجل يبلغ الستين من العمر تقريباً ينتظرهما في الداخل. كان شعره قصيراً جداً كشعر الجنود، لكنه كان يرتدي ثياباً مدنية. عرَّف بنفسه على أنه المدير المذكور، باتريك كوين. تركهما ميلفيل فجلسا مع كوين على

أريكة صغيرة في مكتبه الفسيح. أخبرهما أنه تحدَّث مع قسم الدفاع في وزارة الشؤون الخارجية الآيسلندية، وأن الأميركيين سيساعدون الشرطة الآيسلندية بكل سرور إن استطاعوا. تبادلوا بضع كلمات حول الطقس، واتفقوا على أنه كان صيفاً جيداً وفق معايير ريكيافيك.

أخبرهما كوين أنه يعمل في السفارة منذ أن زار ريتشارد نيكسون آيسلندا عام 1973 من أجل اجتماع القمة الذي جمعه مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو، والذي عُقد في متحف كيارفالستادير للفنون. وقال إنه يحب آيسلندا كثيراً رغم البرد، والشتاءات المظلمة؛ حيث يحاول الذهاب إلى فلوريدا في إجازة في ذلك الوقت من العام. ابتسم وقال: «في الحقيقة، أنا من داكوتا الشمالية، ولهذا أنا معتاد على هذا النوع من الشتاء. لكنني أفتقد لمواسم الصيف الدافئة».

ابتسم سيغوردور له بالمقابل، فسأله كوين: «لقد درستَ في الولايات المتحدة، أليس كذلك؟ علم الجريمة، ثلاث سنوات، أليس كذلك؟».

تجمَّدت الابتسامة على وجه سيغوردور أولي.

فأضاف كوين قائلاً: «أعرف أنك تحب البلد. من المفيد لنا أن نمتلك أصدقاء في هذه الأوقات الصعبة».

قال سيغوردور أولي بذهول: «هل... هل تملكون ملفاً حولي هنا؟».

«ملف!». ضحك كوين. «لقد اتصلت للتوّ ببارا من مؤسسة فولبرايت».

قال سيغوردور أولي: «بارا، أجل، فهمت». كان يعرف مديرة المؤسسة جيداً.

«كنتَ في منحة دراسة، أليس كذلك؟».

قال سيغوردور أولي بارتباك: «هذا صحيح. ظننت لوهلة بأن...» وهزَّ رأسه لحماقته.

قال كوين وهو يمد يده ليجلب ملفاً: «لا، لكنني أملك ملف السي آي إي عنك هنا».

تجمَّدت الابتسامة على وجه سيغوردور أولي مجدداً، فلوَّح كوين بالملف الفارغ في وجهه وراح يضحك.

ثم قال لإيلينبورغ: «هل هو متوتر؟».

سألته إيلينبورغ: «من هو زميلك هذا؟».

قال كوين: «روبرت كريستي شغل المنصب الذي أشغله أنا الآن في السفارة. لكن العمل مختلف كلياً الآن. كان مدير أمن السفارة خلال الحرب الباردة. إن المسائل الأمنية التي أعالجها تنتمي لعالم مختلف؛ حيث

يمثل الإرهاب التهديد الأعظم بالنسبة للولايات المتحدة ولبقية العالم، كما تُظهر الأحداث». ثم نظر إلى سيغوردور أولي الذي كان لا يزال يستعيد توازنه، وقال: «آسف. لم أقصد إخافتك».

قال سيغوردور أولي: «لا. لا بأس. إنها دعابة صغيرة. وهي لم تضرَّ أحداً من قبل».

تابع كوين كلامه: «بوب وأنا صديقان مقرّبان. طلب مني مساعدتكم في مسألة الهيكل العظمي الذي وجدتموه في، ماذا تسمونها، كلاوفيرفاتن؟».

لفظت إيلينبورغ الاسم له: «كلاي - فار - فاتن».

قال كوين: «صحيح. ليس لديكم أحد بُلِّغ عن اختفائه ويمكن أن يكون الهيكل العظمي المكتشف عائداً له أو ماذا؟».

قالت إيلينبورغ: «لا يبدو أنه يوجد شيء يناسب الرجل من كلايفارفاتن».

قال سيغوردور أولي: «اثنتان من أصل أربع وأربعين قضية تتعلق بأشخاص مفقودين خلال السنوات الخمسين الماضية حُقِّق فيهما على أساس جنائي. هذه القضية من النوع الذي نريد التمحيص فيه بعمق أكبر».

قال كوين: «أجل. فهمت أيضاً أن الجثة كانت مربوطة بجهاز لاسلكي روسي. سيسرُّنا أن نفحصه لأجلكم؛ إذا كنتم تجدون صعوبة في تحديد الموديل والتاريخ وتطبيقاته المحتملة. يمكننا فعل هذا بيسر».

قال سيغوردور أولي بفرح: «أعتقد أن خبراء الأدلة الجنائية يعملون عليه مع مؤسسة الاتصالات الآيسلندية. قد يتصلون بك».

قال كوين وهو يضع نظارته الخاصة بالقراءة: «على أي حال، شخص مفقود ليس بالضرورة آيسلندياً». وأخذ ملفاً أسود عن طاولة مكتبه وتصفَّح بعض أوراقه، «كما تعلمان ربما، كان موظفو السفارة موضوعين تحت مراقبة لصيقة في تلك الأيام. كان الحمْر يراقبوننا ونحن كنا نراقب الحمْر. هكذا كانت الأمور تجري في ذلك الحين، ولم يكن هناك من يعتقد أن هذا أمر غريب».

قال سيغوردور أولي: «ربما ما زلتم لا تجدون ذلك غريباً اليوم».

قال كوين بجدية: «ألقينا نظرة إلى أرشيفاتنا. يتذكر بوب القضية جيداً. الجميع اعتقدوا أنها لغز في ذلك الحين، وما كان يجري في الواقع لم يُكشَف مطلقاً. ما حدث، وفقاً لسجلاتنا - وقد تحدثت مع بوب بالتفصيل حول هذا الأمر أيضاً - هو أن دبلوماسياً من ألمانيا الشرقية دخل إلى آيسلندا في زمن محدد، لكننا لم نلاحظ مغادرته ثانيةً مطلقاً».

نظرا إليه على نحو يوحي بأنهما لم يفهما ما قاله.

قال كوين: «لعلكما تودان أن أكرر ما قلته. دبلوماسي ألماني شرقي جاء إلى آيسلندا لكنه لم يغادر البلد مطلقاً. بحسب معلوماتنا - وهي موثوقة إلى حد كبير - إما أنه لا يزال موجوداً هنا - ويقوم بعمل مختلف تماماً عن عمل السفارة - أو أنه قُتل وجرى التخلص من الجثة أو أُرسلت إلى البلد».

قالت إيلينبورغ: «إذاً، لقد فقدتم أثره في آيسلندا؟».

قال كوين: «إنها القضية الوحيدة من هذا النوع الذي نعرف بشأنها. أقصد في آيسلندا. كان الرجل جاسوساً من ألمانيا الشرقية. كان معلوماً لدينا أنه كذلك. لم تلحظه أي من سفاراتنا في مناطق أخرى من العالم بعد مجيئه إلى آيسلندا. لقد أُرسل تحذير خاص بشأنه. لم يظهر مطلقاً، وتحققنا بشكل خاص مما إذا كان قد عاد إلى ألمانيا الشرقية أم لا. بدا الأمر كما لو أن الأرض ابتلعته. الأرض الآيسلندية».

فكَّر سيغوردور أولي وإيلينبورغ مليّاً في كلماته.

ثم قال سيغوردور أولي، محاولاً تذكُّر أفلام وكتب حول الجواسيس شاهدها وقرأها في السابق: «هل يمكن أن يكون قد ذهب إلى العدو؛ أعني إليكم، أو إلى البريطانيين أو الفرنسيين ومن ثم اختفى؟». لم يكن واثقاً تماماً مما كان يقوله. ولم يكن معجباً كبيراً بقصص التجسس.

قال كوين: «هذا غير ممكن. كنا سنعلم بذلك».

قالت إيلينبورغ: «ربما استخدم هوية مزيفة عندما غادر البلد، ألا يعقل ذلك؟». كانا كلاهما يبدوان كمن يتلمَّس طريقه في الظلام.

قال كوين: «كنا نعرف معظمهم. وكنا نُبقي مراقبة جيدة على سفاراتهم في هذا الخصوص. ونحن نعتقد أن هذا الرجل لم يغادر البلد مطلقاً».

قال سيغوردور أولي: «ماذا لو أنه غادر بطريقة أخرى بعيدة عما كنتم تتوقعونه؟ بالسفينة ربما؟».

قال كوين: «كان هذا أحد الاحتمالات التي تحققنا منها. بدون الخوض في الكثير من التفاصيل المتعلقة بإجراءاتنا في ذلك الحين والآن، يمكنني أن أؤكد لكما أن هذا الرجل لم يظهر مطلقاً في ألمانيا الشرقية التي جاء منها في الأساس، ولا في الاتحاد السوفييتي أو أي بلد آخر في أوروبا الشرقية أو الغربية. لقد اختفى».

«ماذا حدث برأيك؟ أو ماذا كنتم تعتقدون في ذلك الحين؟».

«أنهم قتلوه ودفنوه في حديقة السفارة»، قال كوين من دون أن يرف له جفن. «كنا نظن أنهم قتلوا جاسوسهم. أو كما ظهر لاحقاً، أغرقوه في بحيرة كلايفارفاتن بربطه بأحد أجهزة التنصت الخاصة بهم. لا أعرف لماذا. إذ كان من الواضح تماماً أنه لم يكن يعمل لصالحنا، ولا لصالح أي بلد من حلف الناتو. لم يكن عميلاً لكشف التجسس».

قلَّب كوين بعض صفحات الملف، وأخبرهما أن الرجل جاء إلى آيسلندا لأول مرة في بداية الستينيات، وعمل في السلك الدبلوماسي لبضعة أشهر. ثم غادر البلد في خريف 1962 ، وعاد لفترة قصيرة بعد سنتين. وبعد ذلك، تنقَّل بين المراكز في النرويج وألمانيا الشرقية وموسكو لعام واحد، وانتهى به المطاف في سفارة ألمانيا الشرقية في الأرجنتين، تحت لقب ملحق تجاري؛ مثل معظمهم»، ابتسم كوين ابتسامة عريضة، «ورجالنا أيضاً. أمضى فترة قصيرة في السفارة في ريكيافيك عام 1967 ، ثم عاد إلى ألمانيا، ومن هناك إلى موسكو. رجع إلى آيسلندا عام 1968 في الربيع. وبحلول الخريف اختفى».

قالت إيلينبورغ: «خريف 1968 ؟».

«كان ذلك عندما لاحظنا أنه لم يعد موجوداً في السفارة. تحققنا من خلال قنوات معينة فلم نجده في أي مكان. من المعلوم أن الألمان الشرقيين لم يكونوا يقومون بعمل سفارة حقيقي في ريكيافيك، وإنما ما كان يُدعى ممثلية تجارية، لكن هذه نقطة ثانوية».

قال سيغوردور أولي: «ماذا تعرفون عن ذلك الرجل؟ هل كان يملك أصدقاء هنا؟ أو أعداء في الوطن؟ هل ارتكب أي خطأ على حد علمكم».

«لا. ليس لدينا علم بذلك. وبالطبع، نحن لا نعرف كل شيء. نشك في أن شيئاً ما حدث له هنا عام 1968 ، غير أننا لا نعرف ما هو ذلك الشيء. كان بوسعه بسهولة ترك الخدمة الدبلوماسية وإخفاء نفسه. كان يعرف كيف يقوم بذلك، وكيف يختلط بالحشود. تفسير هذه المعلومات مسؤوليتكم أنتم. هذا كل ما نعرفه».

سكت لبرهة، ثم أضاف: «لعله تسلّل منا خلسة. ربما يوجد تفسير منطقي لكل هذا. هذا كل ما لدينا. والآن يجب عليكما أن تخبراني بشيء واحد سألني بوب حوله. كيف قُتل؟ أقصد الرجل في البحيرة».

تبادلت إيلينبورغ وسيغوردور أولي النظرات، ثم قال الأخير: «ضُرب على رأسه، وهناك فجوة في الجمجمة بالقرب من الصدغ».

قال كوين: «ضُرب على رأسه!؟».

قالت إيلينبورغ: «ربما يكون قد وقع. ولكن، لا بد أن يكون من مكان مرتفع بعض الشيء».

«إذاً، ألم يكن إعداماً مباشراً؟ أقصد رصاصة في مؤخر الرأس؟».

قالت إيلينبورغ: «إعدام؟! نحن آيسلنديون. آخر إعدام في هذا البلد حدث بواسطة فأس قبل نحو مائتي عام».

«أجل، بالطبع، إنني لا أقول إن آيسلندياً من قتله».

قال سيغوردور أولي: «هل يوحي لك قتلُه بهذه الطريقة بأي شيء إذا كان هو الجاسوس الذي وُجد في البحيرة؟».

«لا، لا شيء. كان الرجل جاسوساً، وكان عمله يستلزم مخاطر معينة».

وقف كوين ووضع الملف على المكتب فأدركا أن المحادثة توشك على الانتهاك. نظر سيغوردور أولي إلى إيلينبورغ.

ثم سأل كوين: «ماذا كان اسمه؟».

«كان اسمه لوثر».

قالت كوين بشكل تلقائي: «لوثر».

قال كوين: «أجل. كان اسمه لوثر وايزر، ووُلد في بون. وما يثير الاهتمام بحق هو أنه كان يتحدث الآيسلندية مثل أي شخص من البلد».

20

في وقت لاحق من ذلك اليوم، طلبا اجتماعاً في السفارة الألمانية، وذكرا لهم السبب كي يمنحا الموظفين الوقت لجمع المعلومات حول لوثر وايزر. حُدِّد الاجتماع في وقت لاحق من ذلك الأسبوع. أخبرا إرلندور بما تكشَّف لهما من خلال اجتماعهما مع باتريك كوين، وناقشوا احتمال أن يكون الرجل في البحيرة جاسوساً ألمانياً شرقياً. كانوا يشعرون بأن هناك عدداً من الإشارات التي تدل على ذلك، وعلى الأخص الجهاز الروسي والموقع. واتفقوا على وجود علاقة أجنبية بالجريمة. كان هناك شيء في تلك القضية لم يروه إلا نادراً، هذا إن رأوه أساساً؛ وهو أنه تمّ التخطيط لها بعناية شديدة، ونُفِّذت ببراعة، وبقيت مخفية سنوات طويلة جداً. لم تكن الجرائم الآيسلندية في العادة تُرتكَب بهذه الطريقة، بل كانت أقل براعة وأكثر عَرَضيةً وبشاعة، وكان المرتكبون - تقريباً بدون استثناء - يتركون وراءهم سلسلة طويلة من الأدلة.

قالت إيلينبورغ: «إذا لم يكن سقط على رأسه».

قال إرلندور: «لا أحد يسقط على رأسه قبل أن يوثَق بجهاز تجسس ويُرمى في كلايفارفاتن».

قالت إيلينبورغ: «هل تُحقِّق أي تقدم بشأن الفالكون؟».

«أبداً. باستثناء أنني أثرت غضب صديقة ليوبولد التي لا تستطيع أن تفهم الغاية مما أفعله». كان إرلندور قد أخبرهما مسبقاً بشأن الأخوين من موزفيلسباير، ونظريته نصف الناضجة حول إمكانية أن يكون الرجل صاحب الفالكون لا يزال حياً ويعيش في جزء آخر من آيسلندا. لقد ناقشوا هذه الفكرة من قبل، واعتبروها - مثل صديقة الرجل المفقود - غير مدعومة بشيء ملموس. قال سيغوردور أولي: «غير مقنعة في آيسلندا». فوافقته إيلينبورغ، قائلةً: «ربما في مدينة تحوي مليون إنسان».

قال سيغوردور أولي: «الغريب في الأمر هو عدم إيجاد هذا الرجل في النظام، رغم ذلك».

قال إرلندور: «هذا هو بيت القصيد. ليوبولد، كما كان يسمِّي نفسه - على حد علمنا - شخص غامض تماماً. لقد تعامل نيلز مع القضية في الأساس، ولم ينظر إلى خلفيته بطريقة مناسبة، ولم يجد أي سجلات. ولم يُحقَّق في القضية كمسألة جنائية».

قالت إيلينبورغ: «مثل معظم الأشخاص المفقودين في آيسلندا».

«لم يكن يوجد سوى بضعة أشخاص بهذا الاسم حينئذ ويمكن التعرُّف عليهم جميعهم. أجريت مراجعة سريعة. قالت صديقته إنه كان يمضي وقتاً طويلاً في الخارج. قد يكون مولوداً في الخارج. هذا ممكن».

قال سيغوردور أولي: «لماذا برأيك كان يُدعى ليوبولد أساساً؟ أليس اسماً غريباً بعض الشيء بالنسبة لآيسلندي؟».

قال إرلندور: «إنه الاسم الذي كان يستخدمه في ذلك المكان على الأقل. ربما كان يستخدم اسماً آخر في أمكنة أخرى. هذا محتمل جداً في الواقع. لم نكن نعرف أي شيء عنه إلى أن ظهر فجأة كبائع للبلدوزرات والآليات الزراعية وكصديق لامرأة أصبحت بطريقة ما الضحية في المسألة برمتها. ورغم أنها لا تعرف إلا القليل عنه إلا أنها لا تزال حزينة عليه. ليست لدينا أي خلفية. لا شهادة ميلاد، ولا شيء حول دراسته. لا نعرف إلا أنه كان يسافر كثيراً ويعيش في الخارج، وقد يكون وُلد هناك. لقد عاش في الخارج لفترة طويلة جداً لدرجة أنه كان يتحدث بلكنة أجنبية خفيفة».

قالت إيلينبورغ: «مالم يكن قد انتحر، إن الأساس الوحيد لنظريتك حول حياة ليوبولد المزدوجة موجود فقط في مخيلتك».

قال إرلندور: «أعرف. الاحتمال الأكبر هو أنه انتحر، وهذا هو اللغز الوحيد في القضية».

قالت إيلينبورغ: «أعتقد أنك كنت قاسياً جداً في تجربة تلك الفكرة غير المنطقية على المرأة. إنها الآن تعتقد أنه قد يكون حياً».

قال إرلندور: «كانت هي نفسها تعتقد ذلك طوال الوقت؛ في أعماقها. كانت تعتقد أنه تخلى عنها».

سكتوا جميعاً. نظرت إيلينبورغ إلى ساعتها لأنها كانت تختبر مَرَقاً جديداً لصدور الدجاج. وكان سيغوردور أولي قد وعد بيرجثورا بأن يأخذها إلى ثينجفيلر لقضاء ليلة صيفية في الفندق هناك. كان الطقس في أفضل حالاته بالنسبة لشهر حزيران؛ إذ كان دافئاً ومشمساً والهواء يعبق برائحة الزهور.

قال سيغوردور أولي لإرلندور: «ماذا ستفعل الليلة؟».

«لا شيء».

قال سيغوردور أولي: «لعلك تود المجيء إلى ثينجفيلر معي أنا وبيرجثورا». باقتراحه هذا حجب الجواب الذي كان يريد سماعه، فابتسم إرلندور. كان اهتمامهم به يزعجه في بعض الأحيان، لكنه في أحيان أخرى

- مثل هذه المرة - كان يعتبره مجرد تهذيب.

قال إرلندور: «أتوقَّع ضيفاً».

سأله سيغوردور أولي وهو يفرك كتفه: «كيف حال إيفا ليند؟».

«لم أسمع منها كثيراً. أعرف فقط أنها أكملت إعادة التأهيل، لكنني بالكاد سمعت عنها أو منها أي شيء آخر».

قالت إيلينبورغ بشكل مفاجئ: «ماذا كنت تقول حول ليوبولد؟ هل كان يتكلم بلكنة أجنبية؟ هل قلتَ ذلك؟».

قال سيغوردور أولي: «لا بد أن لوثر كانت لديه لكنة».

قال إرلندور: «ماذا تعني؟».

«قال الرجل في السفارة الأميركية إن ذاك الألماني، لوثر، كان يتكلم الآيسلندية بطلاقة. ولكن، لا بد أنه كان يتكلمها مع لكنة».

قال إرلندور: «سيتوجب علينا إبقاء هذا الأمر في أذهاننا بالطبع».

قالت إيلينبورغ: «أيعقل أنهما الرجل نفسه؟ ليوبولد ولوثر؟».

قال إرلندور: «أجل. لا أعتقد أنه افتراض غير طبيعي. على الأقل كلاهما اختفيا عام 1968 ».

سأل سيغوردور أولي: «إذاً، هل كان لوثر يدعو نفسه ليوبولد؟ لماذا؟».

أجابه إرلندور: «لا أدري. ليست لدي فكرة عما كان يجري. ولا أدنى فكرة».

وبعد فترة صمت طويلة، قال إرلندور: «ثم هناك الجهاز الروسي».

قالت إيلينبورغ: «و؟».

«آخر عمل كان يفترض أن يقوم به ليوبولد كان في مزرعة هارالدر. من أين يملك هارالدر جهاز تنصت روسياً ليغرقه في البحيرة بواسطته؟ قد تبدأ بالفهم إن كان لوثر مرتبطاً بالمسألة، إن كان جاسوساً وحدث شيء ما أفضى إلى إلقاء جثته في البحيرة. ولكن، هناك عوالم تفصل بين هارالدر وليوبولد».

قال سيغوردور أولي: «ينكر هارالدر تماماً أن البائع قد ذهب إلى مزرعته. سواء أكان اسمه ليوبولد أم لوثر».

قال إرلندور: «وهنا بيت القصيد».

قالت إيلينبورغ: «ما هو؟».

«أعتقد أنه يكذب».

ذهب إرلندور إلى ثلاثة محال لتأجير أفلام الفيديو قبل أن يجد فيلماً

غربياً كي يأخذه إلى ماريون برايم. لقد سمع ماريون وهو يصفه بأنه واحد من الأفلام المفضلة لديه لأنه يتحدث عن رجل واجه بمفرده خطراً عظيماً عندما أدار أفراد المجتمع بمن فيهم أفضل أصدقائه - ظهورهم له.

طرق على الباب فلم يُجب عليه أحد. كان ماريون يتوقع مجيئه لأن إرلندور اتصل به مسبقاً، ولهذا فتح الباب - الذي لم يكن مقفلاً - ودخل. لم يكن ينوي البقاء، وإنما وضع فيلم الفيديو في الداخل وحسب. كان ينتظر في المساء زيارة من فالجيردر التي صارت الآن تعيش مع أختها.

قال ماريون الذي كان غافياً على الأريكة: «إذاً، أنت هنا؟ سمعتك تطرق على الباب. أشعر بتعب شديد. نمت طوال اليوم. هل تمانع دفع أسطوانة الأوكسجين إلي؟».

وضع إرلندور الأسطوانة بجانب الأريكة، وفجأة خطرت في ذهنه ذكرى قديمة تتعلق بحادثة وفاة وحيدة وسخيفة، وذلك عندما مدَّ ماريون يده إلى أسطوانة الأوكسجين.

استُدعيت الشرطة إلى منزل في ثينغهولت فذهب إرلندور برفقة ماريون. لم يكن قد مضى على مجيئه إلى قسم التحقيقات الجنائية سوى بضعة أشهر. توفيت امرأة مسنة ضخمة جالسة على كرسي ذي مسند أمام تلفازها، وصُنِّفت الوفاة بأنها عَرَضية. كان قد مضى على وفاتها أسبوعان، وكانت رائحة الشقة فظيعة لدرجة أن إرلندور بالكاد استطاع أن يتحمَّلها. لقد اتصل جار المرأة بالشرطة بسبب الرائحة. كان قد مضى بعض الوقت على رؤيته لها، وفي النهاية لاحظ أن صوت تلفازها مسموعٌ بشكل خفيف على مدار الساعة. كان هناك صحن من اللحم المملح مع أوراق لفت مسلوقة على الطاولة بجانبها، وكانت السكين والشوكة ملقاتين على الأرض بجانب كرسيها. لقد ماتت اختناقاً بواسطة قطعة لحم كبيرة انحشرت في حلقها. كان لون وجهها أزرق غامقاً. ثم تبيَّن أنها لم تكن تملك أقارب يزورونها. لم يكن يزورها أي إنسان، ولم يكن هناك من يفتقدها.

حينئذ قال له ماريون وهو ينظر إلى الجثة: «أعرف أننا جميعاً سنموت حتماً، لكنني لا أريد أن أموت بهذه الطريقة».

فقال إرلندور وهو يغطي أنفه وفمه: «امرأة مسكينة».

قال ماريون: «أجل، امرأة مسكينة. ألهذا السبب انضممت إلى الشرطة؟ كي تنظر إلى أشياء كهذه؟».

قال إرلندور: «لا».

فسأله ماريون: «لماذا إذاً؟ لماذا تقوم بذلك؟».

«اجلسْ»، سمع إرلندور صوت ماريون يخترق أفكاره، «لا تبقَ واقفاً هناك مثل الأبله».

تلفَّت حوله وجلس على كرسي قبالة ماريون.

«لست مضطراً لزيارتي يا إرلندور».

«أعرف. جلبت لك فيلماً آخر. من بطولة جاري كووبر».

قال ماريون: «هل شاهدته؟».

«أجل. منذ سنين بعيدة».

«لماذا أنت حزين جداً؟ بماذا كنت تفكر؟».

«كلنا سنموت حتماً، لكنني لا أريد أن أموت بهذه الطريقة».

قال ماريون بعد لحظات من الصمت: «أجل، أتذكّرها. تلك المرأة على الكرسي. والآن أنت تنظر إلي وتفكر في الشيء نفسه».

رفع إرلندور كتفيه.

قال ماريون: «لم تُجب عن سؤالي حينئذ. ولم تفعل حتى الآن».

قال إرلندور: «لا أعرف لماذا انضممت إلى الشرطة. كان عملاً؛ عملاً مكتبياً مريحاً ذا راتب جيد».

«لا، كان هناك شيء آخر. أكثر من مجرد عمل مكتبي مريح وراتب جيد».

سأله إرلندور محاولاً تغيير الموضوع: «أليس لديك أحد؟ أي شخص يمكنه الاهتمام بالأمور بعد... عندما ينتهي كل شيء».

قال ماريون: «لا».

قال إرلندور: «ماذا تريد أن يُفعَل بك؟ ألا يجب أن نناقش هذا الأمر معاً في وقت ما؟ أقصد الأشياء العملية. لا بد أنك رتَّبت كل شيء؛ حسب معرفتي بك».

قال ماريون: «هل بدأت تتوقَّع ذلك؟».

«إنني لا أتوقَّع أي شيء».

«تحدثت مع محامٍ شاب سيهتم بشؤوني، شكراً لك. ربما يمكنك الاهتمام بالجانب العملي؛ أقصد الحرق».

«الحرق؟».

قال ماريون: «لا أريد أن أتعفَّن في تابوت. سأحرق نفسي. لن تكون هناك أي مراسم. بدون جلبة».

«والرماد؟».

«هل تعرف ما يتحدث عنه الفيلم؟». كان واضحاً أن ماريون يريد

تجنب الإجابة. «فيلم جاري كووبر. إنه حول تعقب الشيوعيين في أميركا في الخمسينيات. تصل عصابة خارجة عن القانون إلى البلدة لتهاجم كووبر فيُدير أصدقاؤه ظهورهم له، وينتهي به المطاف وحيداً وعرضة للخطر. منتصف الظهيرة. إن أفضل الأفلام الغربية ليست مجرد أفلام تتحدث عن الغرب».

«أجل، قلتَ لي ذلك ذات مرةً».

كانت ساعة متأخرة من المساء، لكن السماء كانت لا تزال مضيئة. نظر إرلندور عبر النافذة. كان دائماً يفتقد إلى الظلام في الصيف. كان يشتاق إلى سواد الليل البارد، وإلى ذروة الشتاء».

«ما هو الشيء الذي تكنُّه للأفلام الغربية؟». لم يكن باستطاعة إرلندور مقاومة هذا السؤال. لم يكن يعرف شيئاً حول شغف ماريون بالأفلام الغربية من قبل. في الحقيقة، لم يكن يعرف إلا القليل القليل عن ماريون، وعندما بدأ بالتفكير في ذلك أثناء جلوسه في غرفة المعيشة، تذكَّر أنه نادراً ما تحدَّث مع ماريون حول مسائل شخصية.

«المناظر الطبيعية، الجياد، المساحات المفتوحة الواسعة».

أطبق الصمت على الغرفة، وبدا ماريون كما لو أنه سيغفو.

قال إرلندور: «عندما كنتُ هنا آخر مرة، ذكرتُ ليوبولد؛ الرجل الذي كان يمتلك سيارة الفورد فالكون واختفى من محطة الحافلات. أخبرتني أنك اتصلت بصديقته لتخبرها بشأن عدم وجود أي سجل في أي مكان لرجل يحمل ذاك الاسم».

«هل هذا يهم؟ إذا كانت ذاكرتي سليمة، ذلك التافه نيلز كان يحاول تجنُّب إخبارها. لم أسمع قطّ عن شيء بهذا الغباء».

«ماذا قالت عندما أثرت الموضوع معها؟».

عاد ذهن ماريون إلى الماضي. كان إرلندور يعرف أنه على الرغم من كبر السن والأمراض المتنوعة، إلا أن ذاكرة ماريون برايم كانت لا تزال مثالية.

قال ماريون: «لم تكن مسرورة، وهذا طبيعي. كان نيلز مسؤولاً عن القضية ولم أشأ التدخل كثيراً».

«هل أعطيتها أي أمل بأنه يمكن أن يكون لا يزال على قيد الحياة؟».

«لا. كان ذلك سيكون سخيفاً؛ سخيفاً تماماً. آمل أن لا يكون قد دخل إلى رأسك مثل هذا النوع من النحل».

«لا».

«ولا تدعها تسمع بذلك».

«لا، ذلك سيكون سخيفاً قطعاً».

اتصلت به إيفا ليند عندما وصل إلى البيت. كان غائباً عن مكتبه طوال النهار تقريباً، وبعد ذلك ذهب ليجلب بعض الطعام. كان قد وضع وجبة جاهزة في الميكروويف الذي رنَّ في اللحظة نفسها التي رنَّ فيها الهاتف. بدت إيفا ليند أهدأ بكثير هذه المرة. من دون أن تكشف له عن مكان تواجدها، وقالت له إنها قابلت رجلاً في المصح، وإنها تقيم عنده لفترة مؤقتة، وطلبت منه ألا يقلق بشأنها. كما قابلت سيندري في مقهى في المدينة، وأخبرها أنه كان يبحث عن عمل.

قال إرلندور: «هل سيعيش في ريكيافيك؟».

«أجل. إنه يريد العودة إلى المدينة. هل هذا شيء سيئ؟».

«لا، لا أعتقد أنه شيء سيئ. أعتقد أنه أمر جيد إذا كان يريد العودة. لا تظني دائماً الأسوأ بشأني يا إيفا. من هو ذلك الرجل الذي تقيمين عنده؟».

«لا أحد. وأنا لا أظن الأسوأ بشأنك دائماً».

«هل تتعاطيان المخدرات معاً؟».

«نتعاطى المخدرات!».

«يمكنني معرفة ذلك يا إيفا من طريقة كلامك. إنني لا أؤنبك. لن أزعج نفسي بعد الآن. بوسعك القيام بما يحلو لك، ولكن لا تكذبي علي. لن أتحمَّل كذبك».

«أنا لا... ماذا تعرف عن الطريقة التي أتحدث فيها؟ إنك دائماً...».

أنهت الاتصال غاضبة.

لم تأتِ فالجيردر كما خططا، لكنها اتصلت لتخبره أنها تأخرت في العمل وأنها عادت للتو إلى منزل شقيقتها.

قال إرلندور: «هل كل شيء على ما يُرام؟».

«أجل. سنتحدث لاحقاً».

ذهب إلى المطبخ وأخرج الوجبة من الميكروويف، وكانت مكوَّنة من كرات لحم ضمن مَرَق وبطاطا مهروسة. فكَّر في إيفا ليند وفالجيردر، ثم في إيلينبورغ، وبعد ذلك رمى الوجبة من دون أن يفتحها في القمامة وأشعل سيجارة.

رنّ الهاتف للمرة الثالثة في ذلك المساء فراقبه وهو يرن، آملاً أن يتوقف ويتركه في سلام. لكنه عندما لم يفعل، رفع السماعة. كان أحد خبراء الأدلة الجنائية.

قال الرجل: «أتصل بك لأخبرك عن الفالكون».

«أجل، ماذا عن الفالكون؟ هل وجدتم شيئاً؟».

قال الرجل: «لا شيء إلا التراب من الشوارع. حلَّلناه كله ووجدنا مواد يمكن أن يكون مصدرها روث البقر أو ما شابهه، من حظيرة مواشٍ. لم نجد دماء في أي مكان».

«روث بقر؟!».

«أجل، هناك رمال ووحل كما في معظم السيارات، ولكن يوجد روث بقر أيضاً. ألم يكن ذلك الرجل يعيش في ريكيافيك؟».

«بلى، لكنه كان يسافر كثيراً في البلد».

«إنه لا شيء يُستنَد عليه. ليس بعد كل ذلك الوقت، والكثير من المالكين».

قال إرلندور: «شكراً لك».

تبادلا الوداع، وخطرت فكرة في ذهن إرلندور. نظر إلى الساعة فوجد أنها تجاوزت العاشرة بقليل. فقال لنفسه: لا أحد يخلد للنوم في هذا الوقت، وخاصة في الصيف. ومع ذلك تردّد، لكنه في النهاية قرَّر التنفيذ.

ردَّت آستا، صديقة ليوبولد: «ألو». تجهَّم وجه إرلندور، فقد أحسَّ على الفور أنها لم تكن معتادة على تلقّي اتصالات هاتفية في وقت متأخر من المساء؛ رغم أنهم كانوا في ذروة الصيف. وبعد أن عرَّف عن نفسه لها سألته بدهشة عمّا يريده، وعن سبب عدم إرجائه الأمر.

«بالطبع كان بوسعي إرجاء الأمر، لكنني اكتشفت للتو وجود روث بقر على أرضية السيارة؛ إذ كنت قد طلبت أخذ عينة منها. كم كان قد مضى على امتلاككما السيارة، أنت وليوبولد، عندما اختفى؟».

«ليس وقتاً طويلاً؛ بضعة أسابيع فقط. أظن أنني أخبرتك بذلك».

«هل كان يذهب فيها إلى الريف؟».

«الريف!». فكَّرت في الأمر قليلاً، ثم أضافت: «لا. لا أعتقد ذلك. كان قد اشتراها منذ مدة قصيرة جداً. كما أنني أذكر قوله إنه لم يكن يريد إضعافها على الطرقات الريفية التي كانت في حالة سيئة للغاية. كان سيستخدمها فقط في أرجاء المدينة في البداية».

قال إرلندور: «هناك شيء آخر، وسامحيني لإزعاجك في هذا الوقت

المتأخر من الليل. هذه القضية... أعرف أن السيارة مسجلة باسمك. هل تذكرين كيف دفع ثمنها؟ هل أخذ ليوبولد قرضاً ليسدد ثمنها؟ هل كان يملك أي أموال مدَّخرة؟ هل يمكنك أن تتذكري ذلك إن أمكن؟».

ساد الصمت على الخط ثانيةً، بينما كانت المرأة تعود بذاكرتها إلى الوراء وتحاول أن تتذكر تفاصيل لا يحفظها إلا قلة من الناس.

وأخيراً قالت: «أنا لم أدفع أياً من ثمنها. أذكر ذلك. أعتقد أنه كان يملك مسبقاً معظم ثمنها. كان يدّخر النقود منذ أن كان يعمل على السفن، لقد أخبرني بذلك. لماذا تريد أن تعرف هذا؟ لماذا اتصلت بي في هذا الوقت المتأخر؟ هل حدث شيء ما؟».

«هل تعلمين لماذا أراد أن يسجِّل السيارة باسمك؟».

«لا».

«ألم تجدي ذلك غريباً؟».

«غريباً!».

«أقصد أنه لم يسجل السيارة باسمه؟ كان هذا هو الإجراء الطبيعي. كان الرجال يشترون السيارات حينها ويُسجَّلون كمالكين. كانت هناك استثناءات قليلة جداً لهذه القاعدة في تلك الأيام».

قالت آستا: «لا أعلم أي شيء حول هذا».

«قد يكون فعل ذلك لإخفاء آثاره. لو كانت السيارة مسجلة باسمه فسيضطرّ إلى تقديم معلومات معينة حول نفسه، وهو شيء ربما لم يكن يريد فعله».

صمتت المرأة مرة أخرى، ثم قالت: «إنه لم يكن مختبئاً».

«لا، ربما لا. ولكن لعله كان يملك اسماً مختلفاً، اسماً مختلفاً عن ليوبولد. ألا تريدين أن تعرفي من كان؟ من كان حقاً؟».

«أنا أعرف تماماً من كان».

أحسَّ إرلندور بأنها كانت على وشك البكاء، فقال لها: «بالطبع. أنا آسف لإزعاجك. لم أنتبه إلى الوقت. سأُعلمك إن اكتشفنا أي شيء جديد».

قالت آستا مجدداً: «أنا أعرف تماماً من كان».

قال إرلندور: «بالتأكيد. بالتأكيد تعرفين».

21

لم يكن روث البقر يقدِّم أي فائدة، فالسيارة عرفت مالكين آخرين قبل بيعها للاستفادة من قطعها، وأي واحد منهم يمكن أن يكون قد داس على الروث وحمله معه إلى داخل السيارة. كانت ريكيافيك شبه ريفية قبل ثلاثين عاماً، ولم يكن المالك بحاجة حتى لمغادرة المدينة كي يصادف أبقاراً.

لم يتحسن مزاج هارالدر منذ آخر مرة زاره فيها إرلندور في غرفته. كان يتناول غداءه، المكوَّن من عصيدة رقيقة مع قطعة نقانق كبد طرية، وكان طقم أسنانه موضوعاً على طاولة السرير. حاول إرلندور تحاشي اختلاس نظرة إلى الأسنان، فسماعه صوت شربه للعصيدة ورؤيتها تسيل على أحد جانبي فمه كانا كافيين.

حالما توقف ضجيج السائل ومسح هارالدر فمه، قال إرلندور: «نحن نعلم أن مالك سيارة الفالكون زارك أنت وشقيقك في المزرعة». كان هارالدر قد رسم تعبير استهجان على وجهه عندما رأى إرلندور، وطلب منه أن يغرب عن وجهه، لكن إرلندور اكتفى بالابتسام والجلوس.

«ألا يمكنك أن تدعني وشأني؟». قال هارالدر وهو ينظر بعين جشعة إلى عصيدته. لم يكن يريد أن يأكل بوجود إرلندور.

قال إرلندور: «كُلْ عصيدتك. يمكنني الانتظار».

رمقه هارالدر بنظرة قذرة لكنه استسلم سريعاً، وقال: «أين دليلك؟ ليس لديك دليل لأنه لم يأتِ إلى مزرعتنا مطلقاً. ألا يوجد قانون يمنع مثل هذا النوع من المضايقة؟ هل يُسمَح لكم بإزعاج الناس كل يوم؟».

«نحن نعلم الآن أنه زارك».

«هه. هراء سخيف. كيف تعتقدون أنكم تعلمون؟».

قال إرلندور: «لقد فحصنا سيارته بدقة أكبر». في الواقع، لم يكن يملك أي شيء ملموس لكنه اعتقد أن الأمر يستحق وضع بعض الضغط على الرجل العجوز. «لم نأخذ بيانات جنائية شاملة للسيارة آنذاك، لكن التكنولوجيا المجهرية تطورت بشكل هائل منذ ذلك الحين». حاول إرلندور استخدام كلمات طويلة.

كان هارالدر، كما في السابق، مطأطئ الرأس يحدِّق في الأرض.

واصل إرلندور كلامه: «وهكذا حصلنا على أدلة جديدة. في ذلك الحين، لم يجرِ التحقيق في القضية على أنها مسألة جنائية. هكذا تجري الأمور مع الأشخاص المفقودين في العادة، لأن اختفاء الناس لا يُعتبَر أمراً مهماً في

هذا البلد. قد يكون المناخ هو السبب، أو لامبالاة آيسلندية. ولعلنا لا نمانع امتلاك نسبة انتحار مرتفعة».

قال هارالدر: «لا أعرف عما تتحدث».

«كان اسمه ليوبولد، أتذكر؟ كان بائعاً وأنت أغريته بخصوص شراء جرار، وكل ما بقي فعله هو ذهابه لرؤيتك في ذلك اليوم. وأعتقد أنه فعل».

قال هارالدر: «يجب أن أحظى ببعض الحقوق. لا يمكنك الدخول إلى هنا كلما شئت ذلك».

قال إرلندور من دون أن يجبه: «أعتقد أن ليوبولد جاء لزيارتك».

«هراء».

«جاء لزيارتك أنت وشقيقك وحدث شيء ما. لا أعرف ما هو. رأى شيئاً لم يكن يُفترَض به أن يراه. بدأتما تتجادلان معه حول شيء قاله. لعله كان لحوحاً جداً. كان يريد إنهاء البيع في ذلك اليوم».

قال هارالدر مجدداً: «لا أعرف عما تتحدث. لم يأتِ إلى هنا مطلقاً. قال إنه سيأتي، لكنه لم يفعل».

قال إرلندور: «كم بقي لك من العمر برأيك؟».

«اللعنة على من يعلم. وإذا كنت تملك أي دليل، فلا بدّ أنك ستخبرني به. لكنك لا تملك شيئاً لأنه لم يأتِ مطلقاً».

قال إرلندور: «لِمَ لا تخبرني بما حدث وحسب؟ إنك لن تعيش طويلاً. سوف تشعر براحة أكبر إن فعلت ذلك. وحتى لو جاء فعلاً إلى مزرعتك، فهذا لا يعني أنك قتلته. إنني لا أقول ذلك. قد يكون غادر من عندك بسهولة ثم اختفى».

رفع هارالدر رأسه وحدَّق فيه من تحت حاجبيه الكثّين، ثم قال: «اخرج. لا أريد أن أراك هنا ثانيةً».

«كانت لديكما أبقار في المزرعة، أليس كذلك؟».

«اخرج».

«ذهبت إلى هناك ورأيت زريبة الماشية وكومة الروث خلفها. أخبرتني أنك كنت تملك عشر أبقار».

«إلى ماذا تريد أن تصل؟ كنا مزارعيْن. هل ستضربني من أجل هذا؟».

وقف إرلندور. كان هارالدر يغيظه، ولم يكن ينبغي عليه السماح له بفعل ذلك. كان يتوجب عليه الخروج ومواصلة التحقيق بدلاً أن يسمح له

بتوتيره. لم يكن هارالدر سوى عجوز مزعج ونزق.

قال إرلندور: «لقد وجدنا روث بقر في السيارة. لهذا السبب فكَّرت في أبقارك. لا أظن أن الروث انتقل إلى السيارة بواسطة حذائه. بالطبع، هناك احتمال بأن يكون قد داس فوقه ثم ركب السيارة. لكنني أعتقد أن شخصاً آخر جلب الروث إلى السيارة؛ شخصاً كان يعيش في المزرعة التي زارها تشاجر معه؛ شخصاً هاجمه، ثم قفز إلى السيارة بحذائه المطاطي من الزريبة مباشرةً وقاد السيارة إلى محطة الحافلات».

«دعني وشأني. لا أعرف أي شيء عن أي روث بقر».

«هل أنت متأكد؟».

«أجل، والآن انصرفْ. اتركني بسلام».

نظر إرلندور إليه وقال: «ثمة عيب واحد في نظريتي هذه».

قال هارالدر ساخراً: «هه».

«مسألة محطة الحافلات تلك».

«ماذا عنها؟».

«هنالك أمران لا ينسجمان».

«لست مهتماً. أخرج مؤخرتك من هنا».

«إنها ذكية جداً».

«هه».

«وأنت غبي جداً».

كانت الشركة التي عمل ليوبولد فيها قبل اختفائه لا تزال تعمل، لكنها أصبحت واحدة من ثلاثة أقسام في شركة كبيرة لاستيراد السيارات، وتركها المالك الأصلي قبل بضع سنوات. أخبر ابن المالك الأصلي إرلندور أن أباه كافح للحفاظ على الشركة؛ لكنه كان مشروعاً ميؤوساً منه، وفي النهاية باعها عندما كانت على شفير الإفلاس. وكان الابن جزءاً من الصفقة حيث أصبح مديراً لقسم البلدوزرات والآليات الزراعية في الشركة الجديدة. كل هذا حدث قبل أكثر من عقد. غادر بضعة موظفين مع الوالد، لكن أياً منهم لم يعد يعمل لصالح الشركة. أعطى الابن إرلندور تفاصيل حول الأب والبائعين الذين خدموا فترة أكثر طولاً مع الشركة القديمة، وكانوا فيها عندما كان ليوبولد يعمل هناك أيضاً.

عندما عاد إرلندور إلى مكتبه بحث عن البائع في دليل الهواتف، واتصل به فلم يردَّ عليه أحد. ثم اتصل بالمالك السابق، فلم يردّ عليه

أيضاً.

رفع إرلندور سماعة الهاتف مجدداً، ونظر عبر النافذة، وراقب الصيف في شوارع ريكيافيك. لم يكن يعرف لماذا كان مهتماً إلى تلك الدرجة بقضية مالك الفالكون. من المؤكد أن الرجل قد انتحر. ورغم أنه لم يكن هناك أي شيء يوحي بغير ذلك، إلا أنه ظل حاملاً سماعة الهاتف بيده مستعداً لطلب الإذن لتفتيش مزرعة الأخوين بحثاً عن الجثة، مع فريق من خمسين عنصراً من الشرطة، وعمال إنقاذ، وكل ما يستتبع ذلك من ضجيج وسائل الإعلام.

في النهاية، قد يكون البائع هو لوثر الذي كان يرقد في قاع بحيرة كلايفارفاتن. لعلهما كانا شخصاً واحداً.

أعاد السمّاعة إلى مكانها ببطء. هل كانت لهفته الشديدة لحل قضايا الأشخاص المفقودين هي التي تشوِّش قدرته على الحكم؟ كان يعرف في أعماقه أن الشيء الأعقل الذي ينبغي فعله هو وضع قضية ليوبولد في أحد الأدراج وتركها تتلاشى؛ مثل قضايا الاختفاء الأخرى التي لم يكن بالإمكان إيجاد تفسير بسيط لها.

بينما كان مستغرقاً في أفكاره رن الهاتف. كان المتصل هو باتريك كوين من السفارة الأميركية. تبادلا بضع كلمات مجاملة، ثم دخل الدبلوماسي في صلب الموضوع.

«أعطينا مأموريك المعلومات التي شعرنا أن كشفها آمن في حينه. لقد سُمح لنا الآن بالتقدم خطوة إضافية».

قال إرلندور وهو يفكر في سيغوردور أولي وإيلينبورغ: «إنهما ليسا مأموريَّ».

قال كوين: «أجل، مهما يكن. أعرف أنك مسؤول عن التحقيق في قضية الهيكل العظمي الذي تمّ العثور عليه في البحيرة. لم يقتنعا تماماً بما أخبرناهما به بشأن اختفاء لوثر وايزر. لدينا معلومات بأنه جاء إلى آيسلندا ولم يغادر البلد مطلقاً، لكن الطريقة التي عرضنا فيها المعلومات بدت، كيف يمكنني أن أعبِّر عن ذلك، واهيةً بعض الشيء. اتصلتُ بواشنطن وأخذت إذناً بالتعمُّق أكثر. لدينا اسم رجل تشيكي قد يكون قادراً على تأكيد اختفاء وايزر. يُدعى ميروسلاف. سأرى ما يمكنني فعله».

قال إرلندور: «أخبرني شيئاً آخر. هل تملكون صورة للوثر وايزر لتعيرونا إياها».

قال كوين: «لا أعلم. سأبحث عنها. قد يتطلب الأمر بعض الوقت».

«شكراً».

قال كوين: «مع ذلك، لا تتوقع الكثير». ثم أنهى الاتصال.

اتصل إرلندور بالبائع العجوز، وكان على وشك إعادة السماعة إلى مكانها عندما رُفعت السماعة من الطرف الآخر. بسبب ضعف سمعه، أخطأ الرجل في سماع مهنة إرلندور، وظن أنه كان موظفاً في الخدمة الاجتماعية فبدأ يشتكي حول الوجبات التي كانت تُرسَل إلى منزله. «الطعام بارد دائماً. وهذا ليس كل شيء».

تولَّد لدى إرلندور انطباع بأنه كان على وشك الدخول في حديث طويل حول معاملة المسنين في ريكيافيك.

قال إرلندور بصوت عالٍ وواضح: «أنا من الشرطة. أردت أن أسألك حول بائع كان يعمل معك في شركة ماشين آند بلانت في الماضي البعيد. اختفى ذات يوم ولم يُسمَع عنه منذ ذلك الحين».

قال الرجل: «تعني ليوبولد. لماذا تسأل عنه؟ هل وجدتموه؟».

«لا. لم يُعثَر عليه. هل تتذكره؟».

«قليلاً. ربما أكثر من معظم الآخرين، بسبب ما حدث فقط. لأنه اختفى. ألم يترك سيارة جديدة في مكان ما؟».

قال إرلندور: «خارج محطة الحافلات. أي نوع من الرجال كان؟».

«هه؟».

كرر إرلندور السؤال - كان واقفاً حينئذ - بصوت يكاد يصل إلى حد الصراخ.

«من الصعب قول ذلك. كان رجلاً غامضاً، ولم يكن يتحدث عن نفسه كثيراً. كان يعمل على السفن، وربما وُلد في الخارج. على الأقل، كان يتحدث بلكنة خفيفة. وكانت بشرته غامقة، وليس أبيض ناصعاً مثلنا نحن الآيسلنديين. كان رجلاً ودوداً حقاً. مؤسفٌ ما حصل له».

قال إرلندور: «كان يقوم بجولات مبيعات حول البلد».

«أوه أجل، بالتأكيد، كلنا كنا نفعل ذلك. كنا نذهب إلى المزارع مع بروشوراتنا ونحاول بيع أشياء للمزارعين. لعله كان يبذل الجهد الأكبر في هذا الأمر. كان يأخذ معه شراباً، كما تعلم، لكسر الجليد. الجميع كانوا يفعلون ذلك. كان يساعد دائماً على إتمام الصفقات».

«هل كنتم تملكون مناطق مبيعات محددة؟ أعني، هل كنتم تتشاركون المناطق؟».

«لا، ليس تماماً. المزارع الأكثر غنى موجودة في الجنوب والشمال

بالطبع، وكنا نحاول تقسيمها بيننا. لكن التعاونيات اللعينة سيطرت عليها كلها على أي حال».

«هل كان ليوبولد يذهب إلى أماكن محددة؟ هل كان يزورها أكثر من غيرها؟».

صمت العجوز قليلاً، فتخيَّل إرلندور أنه كان يحاول التنقيب في ذاكرته بحثاً عن تفاصيل حول ليوبولد نسيها منذ زمن بعيد.

ثم قال: «تذكَّرت.كان ليوبولد يمضي وقتاً طويلاً في الممرات البحرية الشرقية، الجزء الجنوبي. يمكنك أن تعتبرها منطقته المفضلة. والغرب أيضاً، غرب آيسلندا بأكمله. والممرات البحرية الغربية. والجنوبية الغربية أيضاً. كان يذهب إلى كل مكان، حقاً».

«هل كان يبيع كثيراً؟».

«لا، لا يمكنني قول ذلك. أحياناً كان يغيب لأسابيع متواصلة، وحتى أشهر، بدون تقديم الكثير. ولكن، ينبغي عليك التحدث مع بينيديكت العجوز؛ المالك. لعله يعرف أكثر. لم يبقَ ليوبولد معنا لمدة طويلة، وإن كانت ذاكرتي صحيحة فقد حدث بعض الإرباك بخصوص تأمين مكان له».

«إرباك بخصوص تأمين مكان له!».

«أعتقد أنهم اضطرّوا لفصل شخص ما كي يفسحوا له المجال. أصرَّ بينيديكت على ضمِّه إلى الشركة، لكنه لم يكن مسروراً بعمله. لم أفهم ذلك مطلقاً. تحدَّث معه. تحدَّث مع بينيديكت».

أطفأ سيغوردور أولي التلفاز في المنزل. كان يشاهد موجزاً مسائياً حول أخبار كرة القدم الآيسلندية، وكانت بيرجثورا برفقة مجموعة الحياكة المنتمية إليها. اعتقدَ أنها هي المتصلة عندما ردّ على الهاتف، لكن ظنه لم يكن في محله.

«آسف، أنا أتصل بك دائماً».

تردّد سيغوردور أولي قليلاً قبل أن يضع السماعة مكانها وينهي الاتصال، لكنه رنَّ مجدداً على الفور.

حدَّق في الهاتف ثم رفع السماعة وقال: «اللعنة».

قال الرجل: «لا تقفل. أريد أن أتحدث معك فقط. أشعر بأنني أستطيع التحدث معك منذ أن جئتَ مع الخبر».

«أنا... بشكل جدّي، أنا لست معالجك النفسي. لقد تماديتَ كثيراً. أريدك أن تتوقف. لا يمكنني مساعدتك. كانت مصادفة فظيعة لا أكثر،

ويتوجب عليك أن تقبل بها. حاول أن تفهم ذلك. الوداع».

قال الرجل: «أعرف أنها كانت مصادفة. لكنني أنا من جعلها تحدث».

قال سيغوردور أولي: «لا أحد يجعل المصادفات تحدث. لهذا السبب هي مصادفات. إنها تبدأ من لحظة ولادتك».

«لو لم أؤخرها، لوصلتا إلى البيت سالمتين».

«هذا سخيف، وأنت تعرف ذلك. لا يمكنك أن تلوم نفسك. ببساطة، لا أحد يلوم نفسه على مثل هذا النوع من الأشياء».

«لِمَ لا؟ المصادفات لا تحدث من فراغ، بل إنها تنتج عن الظروف التي نوجدها. مثلي أنا في ذلك اليوم».

«هذا في غاية السخافة لدرجة أنني لا أستطيع أن أزعج نفسي بمناقشته».

«لماذا؟».

«لأننا إذا سمحنا لهذا النوع من التفكير بالسيطرة على أفعالنا، فكيف سنتخذ أي قرار؟ ذهبت زوجتك إلى المحل في زمن معين، وأنت لم تتدخل مطلقاً في ذلك القرار. فهل كان ذلك انتحاراً؟ لا، كان أبله مخمور يقود سيارة رينج روفر؛ لا أكثر من ذلك».

«أنا جعلت المصادفة تحدث عندما اتصلت بها».

قال سيغوردور أولي: «يمكننا المواصلة على هذا المنوال إلى نهاية الزمن. هل ينبغي أن نذهب بالسيارة إلى خارج المدينة؟ هل نذهب إلى السينما؟ هل نلتقي في مقهى؟ من سيجرؤ على اقتراح أي شيء خوفاً من شيء سيحدث؟ أنت تثير السخرية».

قال الرجل: «ذلك هو بيت القصيد».

«ماذا؟».

«كيف يُفترَض بنا أن نفعل أي شيء؟».

سمع سيغوردور أولي بيرجثورا تدخل المنزل، فقال: «يجب أن أوقف هذا. إنه هراء محض».

قال الرجل: «أجل، وأنا أيضاً. يجب أن أوقف هذا».

ثم أنهى المكالمة.

22

تابع التقاربر الإذاعية والتلفزيونية والصحفية حول اكتشاف الهيكل العظمي، ولاحظ كيف تضاءلت أهمية القصة تدريجياً إلى أن لم يعد يسمَع كلمة واحدة حولها. كان يظهر بيان، بين الحين والآخر، يعلن عن عدم وجود شيء جديد للإبلاغ عنه؛ نقلاً عن لسان محقق يُدعى سيغوردور أولي. كان يعلم أن سكون الأخبار المتعلقة بالهيكل العظمي لم يكن يعني شيئاً، فلا بد أن التحقيق جارٍ على قدم وساق، وإذا حدث تطوّر مهم فإن شخصاً ما سيطرق بابه في نهاية المطاف. لم يكن يعلم متى ومن هو الشخص الذي سيأتي. ربما بعد وقت قصير، وربما سيغوردور أولي ذاك نفسه. وربما لن يكتشفوا أبداً ما حدث. ابتسم لنفسه. لم يعد واثقاً بأن هذا ما كان يريده؛ إذ كان يرزح تحت وطأة ما حدث منذ أمد بعيد. أحياناً، كان يشعر بأنه لم يكن لديه أي وجود، أي حياة؛ بعيداً عن العيش خوفاً من الماضي.

في السابق، كان يشعر أحياناً بدافع خارج عن السيطرة لكشف ما حدث، للإقدام وقول الحقيقة. لكنه كان دائماً يقاومه. ومع الزمن ضعفت هذه الحاجة، وأصبح فاقد الإحساس مجدداً حيال ما حدث. لم يكن نادماً على شيء؛ لأنه لم يكن قادراً على تغيير أي شيء، استناداً إلى طريقة تكشُّف الأمور.

كلما نظر إلى الماضي كان يرى وجه إيلونا في أول مرة التقاها. وكان يتذكر عندما جلست بجانبه في المطبخ وشرح لها قصيدة «نهاية الرحلة» لجوناس هالجريمسون وقبَّلته. كانت تلك الذكرى غالية جداً عليه لدرجة أنه كان بوسعه الشعور بالقبلة الرقيقة على شفتيه.

جلس على كرسيه بجانب النافذة، وراح يتذكر ذلك اليوم عندما انهار عالمه.

بدلاً من العودة إلى آيسلندا لقضاء عطلة الصيف، عمل توماس في منجم فحم لفترة من الوقت، وتجوَّل في أرجاء ألمانيا الشرقية برفقة إيلونا. كانا ينويان الذهاب إلى هنغاريا، لكنه لم يتمكن من الحصول على تصريح بالدخول. حسبما فهم، كان الأجانب يجدون صعوبة متزايدة في الحصول على تصريح بالدخول. وسمع أيضاً أن السفر إلى ألمانيا الغربية كان أيضاً مقيداً بشدة آنذاك.

كانا يسافران بالقطار والحافلات، وفي ما عدا ذلك على الأقدام غالباً، وكانا مستمتعين بالسفر وحدهما. أحياناً كانا ينامان في العراء. وفي أحيان أخرى، في فنادق صغيرة أو مدارس أو محطة قطار أو محطة حافلات. وبين الحين والآخر، كانا يقضيان بضعة أيام في مزارع يصادفانها أثناء ترحالهما. وأطول مدة مكثا فيها في إحدى تلك المزارع كانت لدى مُزارع يملك أغناماً. لقد تأثَّر ذلك المزارع كثيراً لأن آيسلندياً طرق بابه، وكان يسأله بصورة متكررة حول وطنه الشمالي، وبخاصة الكتلة الجليدية سنايفلسيوركل، وتبيَّن لهما أنه قرأ في السابق قصة جول فيرن «رحلة إلى مركز الأرض». أمضيا أسبوعين لديه، واستمتعا بالعمل في مزرعته. وبعد اطلاعهما الجيد على مهنة الزراعة، ودَّعاه وعائلته وانطلقا في طريقهما محمَّلين بأمنيات طيبة وحقيبة ظهر مليئة بالطعام.

وصفت له منزل طفولتها في بودابست، وأبويها الطبيبين اللذين كانا يعرفانه من خلال رسائلها. سألتها أمها مرةً في إحدى رسائلها: «ما الذي تنويان فعله؟». فأخبرتها إيلونا أنه لا حاجة للقلق، لكنها بقيت تشعر بالقلق رغم ذلك. هل ستتزوجان؟ ماذا بشأن دراستكما؟ ماذا عن المستقبل؟ كانت إيلونا ابنتها الوحيدة.

لقد فكَّرا في كل هذه الأسئلة معاً، وكلٌّ على حدة، لكنها لم تكن أسئلة ضاغطة. كل ما كان يهمّهما في الوقت الحاضر هو علاقتهما، أما المستقبل فكان غامضاً ومجهولاً، لكنهما كانا متأكدين من أمر واحد وهو أنهما سيقابلانه معاً.

أحياناً، في أوقات المساء، كانت تخبره حول أصدقائها - الذين سيرحِّبون به، حسب تأكيدها له - وكيف كانوا يجلسون في المقاهي ويناقشون على الدوام ضرورة الإصلاحات التي كانت تلوح في الأفق. كان ينظر إليها ويراها تشتعل بالحماسة كلما تحدثت عن هنغاريا الحرة. كانت تتحدث حول الحرية - التي عرفها وتمتع بها طوال حياته - كما لو أنها كانت سراباً وغير ملموسة ونائية. كل ما كانت إيلونا وأصدقاؤها يرغبون به كان يمتلكه دائماً ويعتبره من المسلّمات، حيث لم يكن يعره أي اهتمام خاص. أخبرته عن أصدقاء اعتُقلوا وأمضوا مدة في السجن، وعن أشخاص اختفوا ولم يُعرَف مكانهم. كان يلاحظ الخوف في صوتها، ولكن أيضاً الحيوية والبهجة الناجمتين عن امتلاك عقيدة قوية وعن الكفاح من أجلها بصرف النظر عن الأثمان. كان يشعر بتوترها وحماستها حيال الأحداث الكبيرة التي كانت تتكشَّف.

فكَّر توماس كثيراً خلال الأسابيع التي أمضياها معاً في التجوال في ذلك الصيف، وازداد اقتناعاً بأن الاشتراكية التي اكتشفها في لايبزيغ كانت مبنية على كذبة. وبدأ يفهم شعور هانز، فقد صحا مثله على إدراك أن الحقيقة لم تكن واحدة وبسيطة واشتراكية، بل لم يكن هناك وجود لحقيقة بسيطة. وهذا ما عقَّد إلى درجة كبيرة نظرته للعالم؛ الأمر الذي أرغمه على مواجهة أسئلة جديدة وصعبة. وكان أولها وأهمها يتمحور حول طريقة تفاعله. لقد وجد نفسه في الوضع نفسه الذي كان هانز واقعاً فيه. هل ينبغي عليه مواصلة الدراسة في لايبزيغ؟ هل ينبغي عليه العودة إلى آيسلندا في ما بعد؟ لقد تغيَّرت غايته من الدراسة في لايبزيغ. ماذا سيقول لعائلته؟ لقد سمع من آيسلندا أن هانز كتب مقالات في الصحف وخطب في اجتماعات حول ألمانيا الشرقية؛ منتقداً السياسة الشيوعية. لقد أثار الغضب والضجيج معاً بين الاشتراكيين الآيسلنديين وأضعف قضيتهم، وخاصة في ظل ما كان يحدث في هنغاريا.

كان يعرف أنه لا يزال اشتراكياً، وأن هذا لن يتغير، لكن نسخة الاشتراكية التي عايشها في لايبزيغ لم تكن ما يريده.

وماذا عن إيلونا؟ لم يكن يريد أن يفعل أي شيء بدونها. كل شيء كانا سيفعلانه تالياً، كانا سيفعلانه معاً.

لقد ناقشا كل هذه المسائل خلال الأيام الأخيرة من رحلتهما وتوصلا إلى قرار مشترك. بالنسبة لها، كانت ستستمر في الدراسة والعمل في لايبزيغ، وستذهب إلى اجتماعات خليتها السرية، وستنشر المعلومات وتراقب التطورات في هنغاريا. وهو سيواصل دراسته ويتصرف كما لو أن شيئاً لم يتغير. تذكَّر انتقاده اللاذع لهانز بسبب إساءته لضيافة الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية. وهو كان سيفعل الشيء ذاته بالضبط، وكان يجد صعوبة في تبرير ذلك لنفسه.

كان يشعر بعدم الارتياح، إذ لم يسبق له قطّ أن عاش مثل هذا الوضع المتناقض. كانت حياته دائماً بسيطة وآمنة. فكَّر في أصدقائه في آيسلندا. بمَ سيخبرهم؟ لقد فقد يقينه. كل ما كان يثق به بقوة أصبح غريباً بالنسبة إليه. كان يعلم أنه سيعيش على الدوام وفقاً للمبدأ الاشتراكي المتمثل بالمساواة والتوزيع العادل للثروة، لكن الاشتراكية التي كانت تُمارَس في ألمانيا الشرقية لم تعد تستحق الإيمان بها أو النضال من أجلها. كان ذهنه لا يزال في بداية التحوُّل. كان الأمر سيتطلب منه وقتاً كي يفهم ذلك على نحو تام ويعيد تعريف العالم، لكنه في ذلك الحين لم يكن يريد

اتخاذ أي قرارات جذرية. عندما عادا إلى لايبزيغ، انتقل من الفيلا المتداعية إلى غرفة إيلونا. كانا ينامان معاً على السرير القديم. في البداية، لم تكن صاحبة الشقة مرتاحة لذلك، فبصفتها كاثوليكية ملتزمة كانت تريد الحفاظ على الحشمة، لكنها استسلمت لاحقاً. أخبرته أنها فقدت زوجها وابنيها كليهما في حصار ستالينغراد وأرته صوراً لهم. أصبحا قريبين من بعضهما، حيث كان توماس يؤدي لها الكثير من المهام، مثل تصليح الأشياء المعطلة، وشراء الطعام وأدوات المطبخ، والطبخ. كان أصدقاؤه من المهجع يزورونه في بعض الأحيان، لكنه كان يشعر بأنه يبتعد تدريجياً عنهم، وهم كانوا يجدونه أكثر هدوءاً وكتماناً من ذي قبل.

ذكر إميل - صديقه المقرَّب - هذا الأمر له مرةً عندما كان يجلس بجانبه في المكتبة.

قال إميل: «هل كل شيء على ما يُرام؟». كان مصاباً بالزكام. فقد كان فصل الخريف كئيباً وعاصفاً، والمهجع كان بارداً كثلاجة.

«على ما يُرام؟! أجل، كل شيء على ما يُرام».

قال إميل: «لا، لأننا... في الواقع... نحن نشعر بأنك تتحاشانا. هذا غير صحيح، أليس كذلك؟».

نظر توماس إلى إميل وقال: «بالتأكيد غير صحيح. هناك أشياء كثيرة تغيرت بالنسبة لي، هذا كل ما في الأمر. إيلونا و - كما تعلم - الكثير من الأشياء تغيرت».

قال إميل بصوت مهموم: «أجل، أعلم. إيلونا وكل تلك الأمور. هل تعرف الكثير عن هذه الفتاة؟».

ضحك وقال: «أعرف كل شيء عنها. كل شيء بخير يا إميل. لا تقلق كثيراً».

«تحدَّث لوثر عنها».

«لوثر! هل عاد؟».

لم يخبر أصدقاءه بما كشفه أصدقاء إيلونا حول لوثر وايزر ودوره في طرد هانز من الجامعة. لم يكن لوثر في الجامعة عندما فتحت أبوابها من جديد في ذلك الخريف، ولم يكن توماس قد رآه أو سمع عنه حتى هذه اللحظة. لقد قرر تجنب لوثر، وتجنب كل شيء يرتبط به، وتجنب التحدث معه وحوله.

قال إميل: «كان في مطبخنا في الليلة ما قبل الماضية. لقد جلب كيساً كبيراً من اللحم. إنه دائماً يملك الكثير من الطعام».

«ماذا قال عن إيلونا؟ لماذا كان يتحدث عنها؟».

«فقط أنها كانت هنغارية، وأنهم لا يطيعون القوانين. مثل هذه الأشياء. الجميع يتحدث حول ما يحدث في هنغاريا، ولكنْ لا يبدو أن أحداً يعرف بالضبط ماهيته. هل سمعت شيئاً من خلال إيلونا؟ ما الذي يجري في هنغاريا؟».

«لا أعلم الكثير. كل ما أعرفه هو أن الناس تناقش التغيير. ماذا قال لوثر بالتحديد عن إيلونا؟ هل قال إنهم لا يطيعون القوانين؟ لماذا قال هذا؟ ماذا يعني بذلك؟».

عندما لاحظ إميل لهفته، حاول أن يتذكر كلمات لوثر حرفياً. وبعد فترة صمت طويلة، قال: «قال إنه لم يكن يعرف أين تقف. كان يشك في كونها اشتراكية حقيقية، وقال إن لها تأثيراً سيئاً، وكانت تتحدث عن الناس خلف ظهورهم. وعنا أيضاً، نحن رفاقك. قال إنها كانت تتحدث بالسوء عنا. لقد سمعها تقول ذلك».

«لماذا قال ذلك؟ ما الذي يعرفه عن إيلونا؟ إنهما غريبان تماماً عن بعضهما. إنها لم تتحدث معه على الإطلاق».

«لا أعلم. إنه مجرد كلام تافه، أليس كذلك؟».

لم يقل توماس شيئاً لأنه كان غارقاً في التفكير.

قال إميل: «توماس؟ أليس مجرد كلام تافه هذا الذي يكرره لوثر؟».

«بالتأكيد إنه هراء. إنه لا يعرف إيلونا مطلقاً. وهي لا تتحدث بالسوء عنكم أبداً. إنه كذب قذر. لوثر -».

كان على وشك إخبار إميل بما قيل له حول لوثر، لكنه أدرك فجأة أنه لا يستطيع فعل ذلك. أدرك أنه لا يستطيع أن يثق بإميل؛ صديقه. ورغم أنه لم يكن يملك أي سبب يدعوه لعدم الوثوق به، إلا أن حياته بدأت فجأة تدور حول من يمكنه الوثوق به ومن لا يمكنه الوثوق به؛ من يمكنه أن يفتح له قلبه ومن لا يمكنه التحدث معه. ليس لأنهم غدّارون أو خائنون ومتآمرون، ولكن لأنهم قد يُفشون أمراً يصدر عنه من دون قصد أو بشكل متهور؛ كما فعل هو نفسه مع هانز. وهذا كان يشمل إميل وهرافنهيلدر وكارل، أصدقاء المهجع. لقد أخبرهم حول تجربته في القبو عندما حصل ذلك، وكيف تعارف هانز وإيلونا، وكم كان الوضع مثيراً وخطراً، ولكن لم يعد باستطاعته التحدث بهذه الطريقة.

أما في ما يتعلق بلوثر، فقد كان ينبغي عليه أن يحسب خطواته بعناية خاصة. حاول أن يكتشف سبب تحدث لوثر عن إيلونا بتلك

الطريقة أمام أصدقائه. حاول أن يتذكّر إن كان الألماني قد وصف هانز يوماً بمثل هذه التعابير. لكنه لم يستطع التذكر. كانوا يعرفون النزر اليسير عن لوثر. لم يكونوا يعرفون من يكون بالضبط ولصالح من يعمل. كانت إيلونا تصدِّق أصدقاءها الذين كان يعتقدون أنه كان يعمل لصالح شرطة الأمن. وقد يكون ذلك هو الأسلوب الذي تستخدمه الشرطة؛ أي نشر الإشاعات المسيئة ضمن مجموعات صغيرة بغية إحداث انقسامات.

«توماس!». كان إميل يحاول حمله على الانتباه. «ماذا بشأن لوثر؟».

«عفواً، كنت أفكر».

قال إميل: «كنتَ ستقول شيئاً حول لوثر».

«لا. لم يكن شيئاً مهماً».

قال إميل: «وماذا بشأنكما أنت وإيلونا؟».

«ماذا بشأننا؟».

قال إميل بتردد: «هل ستمكثان معاً؟».

«ماذا تعني؟ بالطبع. ما الذي يجعلك تسأل؟».

«فقط انتبه».

«ماذا تعني؟».

«في الحقيقة، بعد طرد هانز، لا تعرف أبداً ماذا يمكن أن يحدث».

أخبر إيلونا بما دار بينه وبين إميل، محاولاً قدر الإمكان التقليل من أهميته. لكن ملامح القلق ارتسمت على وجهها على الفور، وراحت تسأله عن كل تفصيل قاله إميل. حاولا فهم دافع لوثر. كان واضحاً أنه يحاول تشويه سمعتها أمام الطلاب الآخرين ودائرتها المقربة؛ أصدقاء توماس. هل كانت تلك بداية لشيء أكبر؟ هل كان باستطاعة لوثر وضع مراقبة خاصة عليها؟ هل كان يعرف بشأن الاجتماعات؟ وفي النهاية، قررا الاستكانة لبضعة أسابيع.

قالت إيلونا محاولةً الابتسام: «حينئذ سيرسلوننا إلى بلدينا وحسب. ماذا يمكنهم أن يفعلوا غير ذلك؟ سوف يحدث لنا ما حدث لهانز. لن يكون الأمر أخطر من ذلك أبداً».

قال مواسياً: «لا. لن يكون أخطر من ذلك».

قالت: «يمكنهم اعتقالي بتهمة محاولة انقلابية، أو حملة دعائية معادية للشيوعية، أو مؤامرة ضد حزب الوحدة الاشتراكي. لديهم عبارات من أجل ذلك».

«ألا يمكنك التوقف والانسحاب لبعض الوقت؟ مراقبة ما يحدث عن

بعد؟».

نظرت إليه وقالت: «ماذا تعني؟ أنا لا أسمح لأغبياء مثل لوثر بأن يُملوا علي ما أفعله».

«إيلونا!».

«أنا أقول ما أفكِّر فيه دائماً. سوف أخبر كل شخص مهتم بما يجري في هنغاريا، وبالإصلاحات التي يطالب بها الناس. كنت كذلك على الدوام. أنت تعلم هذا. لن أتوقف».

سكتا للحظات.

ثم قالت: «ما هو أسوأ شيء يمكنهم فعله؟».

«يرسلونك إلى الوطن».

«سيرسلونني إلى الوطن».

نظرا إلى بعضهما، ثم قال توماس: «يجب أن تكوني حذرة. يجب أن تكوني حذرة. عديني بذلك».

ومرَّت أسابيع وأشهر، واصلت خلالها إيلونا حياتها كما في السابق، لكنها كانت أكثر حذراً من أي وقت مضى. وهو كان يداوم على محاضراته رغم أن القلق عليها كان يساوره على الدوام، حيث كان يطلب منها باستمرار التزام الحيطة والحذر. وذات يوم التقى لوثر. كانت قد مضت مدة طويلة على آخر مرة رآه فيها، وعندما فكَّر لاحقاً في ما حصل، عرف أن لقاءهما لم يكن مصادفة. كان خارجاً من محاضراته وفي طريقه للقاء إيلونا بجانب توماسكيرتشه عندما ظهر أمامه لوثر من العدم. حيّاه لوثر بحرارة لكنه لم يردَّ عليه التحية وواصل المشي، فأمسكه لوثر من ذراعه وقال: «ألا تريد أن تقول مرحباً؟».

جذب ذراعه محرراً إياها من قبضة لوثر وهمَّ بالنزول على السلَّم فشعر بيدٍ تمسك بذراعه من جديد.

قال لوثر عندما التفت توماس نحوه: «يجب أن نتحدث».

قال توماس: «ليس لدينا أي شيء لنتحدث بشأنه».

قال لوثر: «على العكس. لدينا الكثير من الأشياء لنتحدث بشأنها».

قال توماس: «دعني وشأني». واستمر بالنزول على السلَّم نحو الطابق الذي يوجد فيه المقهى. لم ينظر إلى الخلف، وأمل أن يتركه لوثر وشأنه، لكن لوثر أوقفه ثانيةً وتلفَّت حوله. لم يكن يريد أن يثير الانتباه.

قال توماس بحدة: «لماذا كل هذا؟ ليس لدي أي شيء لأقوله لك. حاول أن تضع هذا في رأسك. دعني وشأني!».

حاول أن يتجاوزه، لكن لوثر اعترض طريقه قائلاً: «ما المشكلة؟».

حدَّق في عيني الألماني لبضع لحظات، ثم قال: «لا شيء. فقط دعني وشأني».

«أخبرني لماذا لا تريد أن تتحدث معي. كنت أعتقد أننا صديقان».

«لا، لم نكن صديقين. هانز كان صديقي».

«هانز؟».

«أجل، هانز».

«هل هذا بسبب هانز؟ هل بسبب هانز أنت تتصرف على هذا النحو؟».

«دعني وشأني».

«ما علاقة هانز بي؟».

قال توماس: «أنت -» ثم سكت فجأةً. خطر له أنه إذا كان هناك شيء واحد ينبغي عليه فعله، فهو عدم السماح للوثر بمعرفة أي شيء مما كان يدور في ذهنه، أو الإيحاء له بأنه كان يعرف من يكون.

وخطر في ذهنه أيضاً بأنه سيتوجب عليه تعلُّم الكثير حول اللعبة التي كان قد بدأ بلعبها، ليس فقط مع لوثر، وإنما مع أصدقائه الآيسلنديين أيضاً. وفي الحقيقة، كل الأشخاص الذين كان يقابلهم، باستثناء إيلونا.

قال لوثر بعناد: «أنا ماذا؟».

«لا شيء».

قال لوثر: «لقد فقد هانز كل صلة له بهذا المكان. لم يكن لديه أي عمل هنا. أنت قلت هذا بنفسك. قلت هذا لي. جئتَ إلي وتحدثنا حول الأمر. كنا جالسين في المشرب وأنت أخبرتني عن نذالة هانز. أنت وهانز لم تكونا صديقين».

قال توماس باشمئزاز: «لا، هذا صحيح. لم نكن صديقين».

أحسَّ بوجوب قوله ذلك. لم يكن يدرك تماماً من كان يغطي، ولماذا لم يقل ما كان يدور في ذهنه كما كان يفعل في السابق. كان يلعب لعبة خداع بالكاد كان يفهمها، محاولاً شق طريقه رويداً رويداً في ظلمة حالكة. لعله لم يكن أشجع من ذلك، أو لعله كان جباناً. تحوَّلت أفكاره إلى إيلونا التي كانت ستعرف تماماً ما يجب أن تقوله للوثر.

ثم قال مقوِّياً نفسه: «لم أقل قطّ إنه كان ينبغي أن يُطرَد».

قال لوثر: «في الحقيقة، أذكر أنك قلت هذه الكلمات بالضبط».

«لا». ثم رفع صوته، «هذا كذب».

ابتسم لوثر وقال: «اهدأ».

«دعني وشأني فقط».

همَّ بالذهاب، لكن لوثر أوقفه مجدداً. هذه المرة أمسك بذراعه بقوة أكبر، وجذبه إليه وهمس في أذنه: «يجب أن نتحدث».

قال توماس: «ليس لدينا ما نتحدث بشأنه». حاول تحرير نفسه، لكن لوثر أمسكه بقوة.

«نحن بحاجة للتحدث حول إيلونا».

شعر بوجهه يحمرُّ فجأة، وارتخت عضلاته، وأحسَّ لوثر بذراع توماس تفقد قوتها لوهلة.

قال توماس محاولاً عدم كشف نفسه: «عمّ تتحدث؟».

قال لوثر: «لا أعتقد أنها صالحة بما يكفي لكي ترافقها. وأنا أقول ذلك بصفتي المسؤول عن رعاية شؤونك وكرفيق. أرجو أن تغفر لي تدخُّلي».

قال مرة ثانية: «عم تتحدث؟ غير صالحة بما يكفي؟! لا أعتقد أن هذا يعن -».

قاطعه لوثر قائلاً: «لا أعتقد أنها تشارك أمثالنا. أخشى أنها ستجرُّك إلى المستنقع معها».

حدَّق في لوثر، وقال للمرة الثالثة: «عم تتحدث؟» لم يكن يعرف ماذا ينبغي عليه قوله سوى ذلك. كان ذهنه فارغاً، إلا من إيلونا.

قال لوثر: «نحن نعلم بخصوص الاجتماعات التي تنظِّمها إيلونا، ونعرف من يذهب إلى تلك الاجتماعات، ونعرف أنك ذهبت إلى تلك الاجتماعات، ونعرف بشأن المنشورات التي توزعها».

لم يكن يصدِّق ما يسمعه.

قال لوثر: «دعنا نساعدك».

حدَّق في لوثر، فوجده ينظر إليه بجدية صارمة. لقد أسقط عنه كل المظاهر المزيفة، بما فيها ابتسامته، فلم يعد يرى في وجهه إلا القسوة المحضة.

قال توماس: «أدعكم؟! من أنتم؟ وما الذي تقوله؟».

قال لوثر: «تعال معي. أريد أن أريك شيئاً».

«لن أذهب معك. لست مضطراً للذهاب معك إلى أي مكان!».

قال لوثر بالصوت الحازم نفسه: «لن تندم. أنا أحاول مساعدتك.

حاول أن تفهم ذلك. دعني أريك شيئاً حتى تفهم بالضبط ما أتحدث بشأنه».

«ماذا يمكنك أن تريني؟».

قال لوثر وهو يشدُّه برفق إلى الأمام: «تعال، أنا أحاول مساعدتك. ثقْ بي».

كان يريد أن يقاوم، لكن الخوف والفضول دفعاه للمضي معه فاستسلم له. إذا كان لوثر يملك شيئاً ليريه إياه، فإنه قد يستحق المشاهدة بدلاً من إدارة الظهر له. غادرا مبنى الجامعة باتجاه مركز المدينة، عن طريق ساحة كارل ماركس. وبعد فترة قصيرة وجد أنه كان يقترب من ديتريتشرينغ 24، وهو المقر الرئيس لشرطة الأمن في المدينة. أبطأ توماس خطاه، ثم توقف تماماً عندما شاهد أن لوثر كان ينوي صعود الدرجات المؤدية إلى المبنى.

فسأله: «ماذا نفعل هنا؟».

قال لوثر: «تعال، نحن بحاجة للتحدث معك. لا تصعِّب الأمر على نفسك».

«أصعِّب الأمر!؟ لن أدخل إلى هناك!».

«إما أن تأتي الآن أو سيأتون هم وسيجلبونك. هذه الطريقة أفضل».

وقف متسمِّراً في مكانه. كان يودّ أن يهرب. ماذا كانت شرطة الأمن تريد منه؟ لم يفعل أي شيء. نظر من مكانه إلى جميع الاتجاهات. هل يمكن أن يراه شخص ما وهو يدخل إلى المبنى؟

قال بصوت منخفض: «ماذا تعني؟». كان خائفاً حقاً.

قال لوثر: «تعال». وفتح الباب.

صعد الدرجات بتردد، ولحق بلوثر إلى داخل المبنى. دخلا عبر مدخل صغير ذي جدران رخامية بنية وسلَّم حجري كئيب يوجد في نهايته باب يفضي إلى غرفة استقبال. لاحظ على الفور رائحة الأرضية القذرة المصنوعة من اللينوليوم، والجدران المسودَّة، والدخان، والعرَق، والخوف. أومأ لوثر برأسه إلى الرجل الموجود في قاعة الاستقبال، وفتح باباً يؤدي إلى ممر طويل جدرانه مطلية بطلاء أخضر. وفي منتصف الممر كان هناك مكتب بابه مفتوح ويقابله باب فولاذي ضيِّق. دخل لوثر إلى المكتب، وكان فيه رجل في منتصف العمر يجلس خلف طاولة.

نظر الرجل إلى لوثر وقال له متجاهلاً الضيف: «لقد تطلَّب ذلك وقتاً طويلاً».

كان الرجل يدخِّن سيجارة ثخينة ذات رائحة لاذعة. وكانت أصابعه مصبوغة باللون الأصفر، والمنفضة مملوءة بأعقاب سجائر صغيرة. كان لديه شارب كثٌّ، مصبوغ بفعل الدخان، وكانت بشرته سمراء مع سالفين يغزوهما الشيب. فتح أحد أدراج الطاولة وأخرج ملفاً وفتحه. كانت في داخله بضع صفحات مطبوعة، وبعض الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود. أخرج الرجل الصور ونظر إليها، ثم رماها على الطاولة إلى توماس، وسأله: «هل هذا أنت؟».

التقط توماس الصور ونظر إليها. تطلَّب الأمر منه بعض الوقت ليدرك ما هي. كانت مُلتَقَطة في المساء من مسافة بعيدة نسبياً، وفيها أشخاص يغادرون مبنىً سكنياً. كان هناك ضوء فوق الباب يضيء المجموعة. عندما دقق النظر في الصورة أكثر، استطاع رؤية إيلونا ورجل كان موجوداً في اجتماع القبو، وامرأة كانت موجودة أيضاً في الاجتماع نفسه، بالإضافة إليه. ثم نظر إلى بقية الصور. كانت بينها صورتان لوجهين مكبَّرين؛ وجهه ووجه إيلونا.

بعد إشعاله سيجارة، أسند الرجل ذو الشارب الكث ظهره على مقعده. كان لوثر جالساً على كرسي في إحدى زوايا الغرفة. رأى توماس خارطة تُبيِّن الطرق في لايبزيغ وصورة لأولبريتش على أحد الجدران، وثلاث خزائن فولاذية متينة واقفة أمام جدار آخر.

التفت توماس إلى لوثر محاولاً إخفاء ارتعاش يديه، وقال: «ما هذه؟».

أجابه لوثر بحدة: «أنت من ينبغي عليه أن يخبرنا ما هذه».

«من التقط هذه الصور؟».

قال لوثر: «هل تعتقد أن هذا مهم؟».

«هل تتجسون علي؟».

تبادل لوثر والرجل ذو الشارب المحروق النظرات، ثم بدأ لوثر بالضحك.

قال توماس موجِّهاً كلامه إلى لوثر: «ماذا تريد؟ لماذا تلتقطون هذه الصور؟».

سأله لوثر: «هل تعرف ما هو هذا الاجتماع؟».

«لا أعرف أولئك الأشخاص، باستثناء إيلونا بالطبع». لم يكن يكذب هنا. «لماذا تصوِّرونهم؟».

قال لوثر: «لا، بالتأكيد أنت لا تعرفهم؛ باستثناء إيلونا الصغيرة الجميلة. أنت تعرفها. تعرفها أكثر مما يعرفها معظم الناس، بل تعرفها أكثر

من صديقك هانز».

لم يعرف إلى ماذا كان لوثر يلمِّح. نظر إلى الرجل ذي الشارب، ثم نظر إلى الممر حيث كان الباب الفولاذي يواجهه. كانت توجد فيه فتحة صغيرة مغلقة فتساءل توماس عمّا إذا كان هناك أحد في الداخل؛ وعمّا إذا كان هناك شخص معتقل فيها. كان يريد الخروج من ذلك المكتب بأي ثمن. كان يشعر مثل حيوان محاصَر يبحث بيأس عن طريق للهروب.

قال لهما: «هل تريدون مني التوقف عن الذهاب إلى تلك الاجتماعات. هذه ليست مشكلة. لم أحضر الكثير منها».

نظر مجدداً إلى الباب الفولاذي، واجتاحه فجأة شعور غامر بالخوف. لقد بدأ مسبقاً بالتراجع، ووعد بتغيير سلوكه، رغم أنه لم يكن يعرف على وجه الدقة ما هو الخطأ الذي ارتكبه أو ماذا يمكنه فعله لإرضائهما. كان سيفعل أي شيء من أجل الخروج من ذلك المكتب.

قال الرجل ذو الشارب: «تتوقف! أبداً. لا أحد يطلب منك أن تتوقف، بل على العكس. نحن نود منك أن تذهب إلى المزيد من الاجتماعات. لا بد أنها ممتعة جداً. ما هي غايتهم؟».

قال محاولاً قدر استطاعته التظاهر بالشجاعة: «لا شيء. لا توجد أي غاية. نحن فقط نتحدث حول مسائل الجامعة. الموسيقا. الكتب. أشياء كهذه».

ابتسم الرجل ذو الشارب ابتسامة عريضة. لا بد أن الرجل عرف أنه خائف. لا بد أن خوفه كان واضحاً تماماً. على أي حال، إنه لم يكن في أي يوم بارعاً في الكذب.

نظر إلى لوثر وقال بتردد: «ماذا كنت تقول حول هانز؟ وحول أنني أعرف إيلونا أفضل من معرفة هانز بها؟ ماذا تقصد؟».

قال لوثر متظاهراً بالدهشة: «ألم تكن تعلم؟! كانا معاً؛ تماماً كما أنت وإيلونا معاً الآن. أقصد، قبل أن تظهر أنت في المشهد. ألم تذكر لك ذلك؟».

لم يعرف ماذا يقول، فاكتفى بالنظر إليه بفم فاغر.

قال لوثر بالنبرة المندهشة المزيفة نفسها: «لماذا برأيك لم تخبرك؟ لا بد أنها كانت بارعة معكم أنتم الآيسلنديين. أتعلم ماذا أعتقد؟ لا أعتقد أن هانز كان راغباً بمساعدتها».

«مساعدتها؟».

«كانت تريد الزواج بواحد منكم والانتقال إلى آيسلندا. لم ينجح ذلك

مع هانز. لربما يمكنك أنت مساعدتها. كانت تريد مغادرة هنغاريا لمدة طويلة. ألم تخبرك أي شيء حول ذلك؟ لقد بذلتْ جهداً كبيراً من أجل الهرب».

قال توماس: «ليس لدي وقت لكل هذا. يجب أن أذهب. شكراً لكما على إبلاغي بكل هذا. لوثر، سأناقش الأمر بشكل أفضل معك لاحقاً».

اتجه نحو الباب نصف متردد، فنظر الرجل من خلف طاولته إلى لوثر، فرفع الأخير كتفيه.

وثب الرجل عن كرسيه وصرخ قائلاً: «اجلس أيها الأحمق اللعين!».

توقف توماس بجانب الباب مصعوقاً، ثم استدار.

صرخ الرجل في وجهه: «نحن لا نتحمَّل الانقلاب! وخاصة من أجانب قذرين مثلك تأتون إلى هنا تحت ادعاءات مزيفة. اجلس، أيها الأحمق اللعين! أغلق الباب واجلس!».

أغلق الباب وعاد وجلس على الكرسي بجانب الطاولة.

قال لوثر وهو يهز برأسه: «الآن جعلته يغضب».

تمنّى لو كان باستطاعته العودة إلى آيسلندا ونسيان الأمر برمته. وحسد هانز لأنه هرب من هذا الكابوس. كانت تلك أول فكرة تخطر في باله عندما أطلقا سراحه أخيراً. لكنهما منعاه من مغادرة البلد، وأمراه بتسليم جواز سفره في اليوم نفسه. وبعد ذلك تحوَّلت أفكاره إلى إيلونا. كان يعلم أنه لم يكن قادراً على تركها، ولم يكن يريد فعل ذلك أيضاً، وخاصة عندما انحسر خوفه. لقد استخدماها لتهديده. إذا لم يفعل ما طلباه منه، فإن شيئاً ما قد يحدث لها. ورغم أن التهديد لم يكن صريحاً، إلا أنه كان واضحاً بما يكفي. إن أخبرها بما دار بينهم، فإن شيئاً ما قد يحدث لها. لم يقولا ما هو ذلك الشيء، بل تركا التهديد معلقاً كي يسمحا له بتخيُّل الأسوأ.

بدا له أنهما كانا يضعانه نصب عيونهما منذ وقت طويل. كانا يعرفان بالضبط ماذا سيفعلان وكيف يريدان منه أن يخدمهما. لم يقررا أياً من ذلك في لحظتها، بل كانا يخططان لجعله جاسوساً لهم في الجامعة. كان يُفترَض به تقديم تقارير لهما، ومراقبة الأنشطة المناهضة للاشتراكية، وإعلامهما بذلك. كان يعلم أنه سيوضَع تحت المراقبة منذ تلك اللحظة، لأنهما أخبراه بهذا. وأكثر ما كان يهمُّهما هو أنشطة إيلونا ورفاقها في لايبزيغ وبقية ألمانيا. كانا يريدان معرفة ما كان يجري في الاجتماعات، ومن هم القادة، وما هي إيديولوجيتهم المرشدة، وما إذا كانوا يملكون صلات مع

هنغاريا أو بلدان أوروبية شرقية أخرى، ومدى اتساع الانشقاق، وماذا كان يُقال عن أولبريتش والحزب الشيوعي. لقد ذكرا نقاطاً أخرى لكنه كان قد توقف عن الإصغاء منذ وقت طويل.

قال للوثر بالآيسلندية: «ماذا لو رفضت؟».

قال الرجل ذو الشارب: «تحدَّث بالألمانية!».

قال لوثر: «لن ترفض».

أخبره الرجل بما سيحدث إن رفض؛ سوف يُرحَّل من البلاد، لكنه لن يخرج بالسهولة التي خرج فيها هانز. لم يكن يملك أي قيمة بالنسبة إليهما. كان مثل جرذ ينقل الأمراض، وإذا لم يفعل ما طُلب منه، فسوف يفقد إيلونا.

قال توماس: «لكنني إذا أخبرتكم بكل شيء فسأفقدها على أي حال».

قال الرجل ذو الشارب وهو يطفئ سيجارة أخرى: «ليس بالطريقة التي أعددناها».

ليس بالطريقة التي أعددناها.

هذه هي الجملة التي ستسكنه بعد مغادرته المقر وترنُّ في رأسه طوال الطريق إلى المنزل.

ليس بالطريقة التي أعددناها.

حدَّق إلى لوثر. لقد أعدّا شيئاً يتعلق بإيلونا مسبقاً. وسينفذانه ببساطة إن لم يفعل ما أُمر به.

قال للوثر وهو ينهض بعصبية عن كرسيه: «من أنت على أي حال؟».

فصرخ الرجل ذو الشارب وهو يقف أيضاً: «اجلسْ!».

واصل توجيه كلامه إلى لوثر راسماً ابتسامة غامضة على وجهه: «كيف تنام في الليل؟».

ظل لوثر صامتاً.

«ماذا لو أخبرت إيلونا بذلك؟».

قال لوثر: «ينبغي عليك عدم فعل ذلك. أخبرني بشيء آخر، كيف تمكَّنَتْ من تغييرك؟ حسب معلوماتنا، كنتَ أشدَّ المتشددين. ماذا حصل؟ كيف استطاعت أن تقلب قناعاتك؟».

مشى نحو لوثر، واستجمع شجاعته ليخبره بما كان يريد قوله، ودار الرجل خلف طاولته ووقف وراءه.

قال توماس بالآيسلندية: «لم تكن هي التي قلبتني، بل أنتم. كل شيء تثقون به أقنعني. أنانيتكم، وحقدكم، وشغفكم بالسلطة. كل ما فيكم غيَّر

قناعاتي».

قال لوثر: «الأمر في غاية البساطة. إما أن تكون اشتراكياً أو لا تكون».

قال توماس: «لا. أنت لا تفهم. إما أن تكون إنساناً أو لا تكون».

هرع إلى المنزل وهو يفكر في إيلونا. كان سيخبرها بما حدث رغم ما طلباه منه وما خططا له. كان يتوجب عليها الهرب من المدينة. هل كان بوسعهما الذهاب إلى آيسلندا معاً؟ أحسَّ بأن آيسلندا كانت بعيدة بطريقة لا توصَف. لربما كانت تستطيع الهرب والعودة إلى هنغاريا، أو حتى تعبر إلى ألمانيا الغربية؛ إلى برلين الغربية. سوف يخبرهما بكل ما يريدان سماعه كي يبعدهما عن ظهر إيلونا أثناء وضعهما خطة هربها. كان يتوجب عليها مغادرة البلد.

وماذا بشأن هانز؟ ماذا قال لوثر حول هانز وإيلونا؟ هل كانا على علاقة ذات يوم؟ لم تخبره إيلونا بذلك مطلقاً. أخبرته فقط أنهما كانا صديقين وأنهما تعرَّفا على بعضهما في الاجتماعات. هل كان لوثر يخدعه؟ أو هل كانت إيلونا تستغله حقاً كي تهرب؟

بدأ يركض فجأة بأقصى سرعته. كان الناس يمرّون بجانبه كالبرق من دون أن يلاحظهم. كان يقطع الشوارع وهو غافل عنهم تماماً. كانت الأفكار تتزاحم في رأسه حول إيلونا، وحوله هو نفسه، ولوثر والرجل ذي الشارب وشرطة الأمن والباب الفولاذي ذي الفتحة المغلقة. لن يُظهرا له أي رحمة. هذا ما كان متأكداً منه؛ سواء أكان مواطناً آيسلندياً أم لا. لم يكن هذا يشكل فرقاً بالنسبة لهؤلاء الناس.

كانت إيلونا هي التي تهمهم.

بكى حال وصوله إلى البيت، وعانق إيلونا من دون أن ينبس ببنت شفة. أخبرته أنها كانت قلقة، وأنها انتظرته طويلاً خارج توماسكيرتشه. فأخبرها بكل شيء رغم أنهما طلبا منه عدم فعل ذلك. أصغت إيلونا إليه من دون مقاطعة إلى أن فرغ من الحديث، ثم بدأت تستجوبه. وأجابها توماس بأكثر ما استطاعه من دقة. كان أول شيء سألته إياه يتعلق بأصدقائها، أبناء لايبزيغ، وما إذا كان من الممكن التعرُّف عليهم من الصور. فقال إنه يعتقد أن الشرطة تعرف كل واحد منهم.

قالت إيلونا: «يجب أن نبلّغهم. كيف اكتشفوا هذا؟ لا بد أنهم كانوا يلاحقوننا. شخص ما وشى بنا؛ شخص يعرف بشأن الاجتماعات. لا أحد غيرنا كان يعرف شيئاً عن تلك الاجتماعات».

قال: «لا أعلم».

قالت وهي تذرع أرض غرفتهما الصغيرة جيئة وذهاباً: «يجب أن أتصل بهم». ثم توقفت عند النافذة المطلة على الشارع، واسترقت النظر إلى الخارج. «هل هم يراقبوننا الآن؟».

«لا أعلم».

«يا الله».

قال توماس: «قالوا إنك وهانز كنتما معاً. لوثر قال هذا».

قالت: «هذا كذب. كل شيء يقولونه كذب. حتماً أنت تعرف ذلك. إنهم يلعبون لعبة ما؛ يلعبون لعبة معنا. يجب أن نقرر ما سنفعله. يجب أن أحذِّر الآخرين».

«قالوا إنك تعاشريننا كي تهربي إلى آيسلندا».

«بالتأكيد سيقولون ذلك يا توماس. ماذا سيقولون غير ذلك؟ لا تكن غبياً».

«لم يكن يُفترَض بي إبلاغك، لذا ينبغي علينا التصرُّف بحذر». كان واثقاً بأنها صادقة، وبأن كل ما قالاه كان كذباً؛ كل شيء. «أنت في خطر كبير. قالوا لي ذلك. يجب ألا نقدم على فعل أي شيء غبي».

نظرا إلى بعضهما، ثم تنهَّد وقال: «فيمَ أقحمنا نفسينا؟».

«لا أعلم». عانقته محاولةً تهدئته. «إنهم لا يريدون هنغاريا أخرى. هذا ما أقحمنا نفسينا فيه».

وبعد ثلاثة أيام، اختفت إيلونا.

كان كارل معها عندما جاءوا واعتقلوها، فهرع إلى الجامعة لإبلاغ توماس بما حدث. لقد ذهب إلى غرفتها لاستعارة كتاب منها، فإذا بالشرطة تظهر فجأةً في الممر. رموا به إلى الحائط، وقلبوا الغرفة رأساً على عقب، ثم أخذوا إيلونا معهم.

كان كارل في منتصف وصفه لما حدث عندما تركه توماس وركض. كانا حذرين جداً. لقد نقلت إيلونا رسالة إلى رفاقها، وكانوا يعدّون طريقة للخروج من لايبزيغ. كانت تريد العودة إلى هنغاريا للبقاء مع عائلتها، وهو سيعود إلى آيسلندا وسيلتقيها في بودابست. لم تعد دراسته تهمه. لم يعد هناك شيء يهمه سوى إيلونا.

عندما وصل إلى الشقة، كانت رئتاه توشكان على الانفجار. كان الباب مفتوحاً، فركض إلى الداخل متوجهاً إلى غرفتهما. كانت الفوضى تعمُّ المكان،

حيث الكتب والمجلات وأغطية السرير كلها كانت ملقاة على الأرض، والمنضدة مقلوبة، والسرير مستنداً على جانبه. لم يستثنوا أي شيء. داس على الآلة الكاتبة التي كانت ملقاة على الأرض أيضاً.

ركض مباشرةً إلى مقر شرطة الأمن. لم يدرك أنه لا يعرف اسم الرجل ذي الشارب إلا عندما وصل إلى المكان، حيث لم يفهم الشخص الموجود في صالة الاستقبال من كان يقصده. طلب منه السماح له بالدخول إلى الممر وإيجاده بنفسه، لكن موظف الاستقبال هزَّ رأسه رافضاً. اندفع نحو الباب المؤدي إلى الممر، وحاول فتحه لكنه كان مقفلاً. صاح باسم لوثر، فخرج موظف الاستقبال من وراء طاولته، وطلب المساعدة، فجاء ثلاثة رجال وجرّوه بعيداً عن الباب. وفي تلك اللحظة، فُتح الباب ودخل الرجل ذو الشارب.

صرخ توماس بغضب: «ماذا فعلتم لها؟ دعوني أراها!». صرخ عبر الممر: «إيلونا! إيلونا!».

أغلق الرجل ذو الشارب الباب وراءه بقوة، وأمر الآخرين بأن يلقوه خارجاً، ففعلوا ذلك. راح يدق بيديه على الباب الأمامي وينادي باسم إيلونا، ولكن من دون طائل. كان مقتنعاً بأنهم كانوا يحتفظون بها في الداخل، وكان سيفعل أي شيء من أجل مساعدتها وإطلاق سراحها.

تذكَّر أنه لاحظ لوثر في حرم الجامعة في ذلك الصباح فغادر المكان بسرعة. توقف ترام بجانب المقر فركبه على الفور، ثم قفز منه بجانب الجامعة بينما كان الترام لا يزال يسير، ووجد لوثر جالساً بمفرده في المقهى. كان هناك القليل من الطلاب في الداخل. جلس مقابل لوثر لاهثاً، ومحمرَّ الوجه من الركض والقلق والخوف.

قال لوثر: «هل أنت بخير؟».

قال توماس على الفور: «سأفعل أي شيء من أجلكم إن أطلقتم سراحها».

نظر لوثر إليه مطوّلاً، مراقباً معاناته بطريقة تكاد تكون فلسفية، ثم قال: «من؟».

«إيلونا. أنت تعلم عمن أتحدث. سأفعل أي شيء إن أطلقتم سراحها».

قال لوثر: «لا أعرف شيئاً عمّا تتحدث».

«لقد اعتقلتم إيلونا اليوم في وقت الغداء».

«نحن؟! من نحن؟».

«شرطة الأمن. اعتُقلت إيلونا اليوم. كان كارل معها عندما جاءوا. ألن

تتحدث معهم؟ ألن تخبرهم أنني سأفعل كل ما يلزم من أجل إطلاق سراحها؟».

«لا أظن أنك تهمُّ بعد الآن».

قال توماس: «ألا يمكنك مساعدتي؟ هل تستطيع التدخُّل؟».

«إذا كانت قد اعتُقلت، فليس هناك ما أستطيع فعله. فات الأوان لسوء الحظ».

قال توماس وهو يوشك على البكاء: «ماذا يسعني أن أفعل؟ أخبرني ماذا أفعل».

نظر لوثر إليه مطوّلاً ثم قال: «عُدْ إلى بويتشيستراسه. عُد إلى المنزل وتمنّى الأفضل».

قال توماس بغضب: «أي نوع من الأشخاص أنت؟ أي نوع من السفلة أنت؟ ما الذي يجعلك تتصرف مثل... مثل وحش؟ ما هو؟ من أين يأتي هذا الدافع غير المعقول للسيطرة؟ هذه الغطرسة؟ هذه الوحشية!».

تلفَّت لوثر حوله ونظر إلى الأشخاص القليلين الجالسين في المقهى، ثم ابتسم وقال: «الأشخاص الذين يلعبون بالنار يحترقون، لكنهم دائماً يندهشون عندما يحترقون. دائماً يبدون أبرياء ومندهشين عندما يحصل ذلك». وقف وانحنى نحوه، وأردف قائلاً: «اذهب إلى المنزل، وتمنّى الأفضل. سأتحدث معهم لكنني لا أستطيع أن أعدك بشيء».

ثم خرج لوثر من المقهى بخطوات هادئة، على مهل، كما لو أن كل ذلك لم يكن يعنيه في شيء. بقي توماس جالساً هناك ودفن وجهه بين يديه. فكَّر في إيلونا، محاولاً إقناع نفسه أنهم استدعوها كي يستجوبوها فقط وسرعان ما سيطلقون سراحها. لعلهم كانوا يخيفونها وحسب، كما فعلوا معه منذ بضعة أيام. كانوا يستغلون الخوف، ويتغذّون عليه. لعلها عادت إلى المنزل الآن. وقف وغادر المقهى.

عندما خرج من الجامعة وجد كل شيء على حاله. كان الناس يتصرفون كما لو أن شيئاً لم يحدث. كان بعضهم يمشي بعجلة على الأرصفة، وبعضهم الآخر يتبادل الأحاديث وقوفاً. كان عالمه ينهار، ومع ذلك كل شيء يبدو كما هو. كان سيعود إلى غرفتهما وينتظرها. لعله سيجدها هناك مسبقاً، أو قد تعود لاحقاً. لا بد أنها ستعود. لماذا كانوا يحتجزونها؟ بسبب الاجتماع مع بعض الأشخاص والتحدث معهم؟!

من فرط قلقه، لم يعرف ماذا يفعل تالياً فهرع نحو المنزل. لقد أخبرته إيلونا منذ فترة قصيرة جداً - عندما كانا مستلقيين على السرير -

أن ما كانت تشتبه فيه منذ بعض الوقت أصبح أكيداً. همست بذلك في أذنه. لعله حدث في نهاية الصيف.

استلقى بدون حراك محدِّقاً في السقف، ثم عانقها وقال لها إنه يريد أن يعيش معها طوال عمره.

قالت له هامسة: «كلانا».

«أجل، كلاكما». ثم وضع رأسه على بطنها.

أعاده الألم النابض في يده إلى الواقع من جديد. عندما كانت الذاكرة تعود به إلى ما حدث في ألمانيا الشرقية، غالباً ما كان يقبض يديه بشدة إلى أن يشعر بالألم. أرخى عضلاته متسائلاً عمّا إذا كان بوسعه منع حدوث ذلك، وعمّا إذا كان بوسعه فعل شيء آخر؛ شيء كان سيغيِّر مجرى الأحداث. لكنه لم يصل إلى جواب مطلقاً.

نهض عن كرسيه بتصلُّب، وسار نحو الباب المفضي إلى القبو. فتحه وأشعل النور، ثم نزل بحذر على السلَّم الحجري الذي أصبح زلقا بعد عقود من الاستخدام. دخل إلى القبو الفسيح وأشعل الأضواء. كانت هناك مجموعة متنوعة من الأغراض التي تجمّعت على مرِّ السنين. لو كان الأمر بيده، لما رمى أي شيء أبداً. لكن القبو لم يكن فوضوياً، وذلك لأنه كان يرتبه باستمرار. كل شيء كان في مكانه.

كانت هناك طاولة عمل مستندة على أحد الجدران. كان ينحت في بعض الأحيان مجسَّمات صغيرة من الخشب ثم يطليها. يأخذ قطعة مربعة من الخشب ويجعل منها شيئاً جميلاً نابضاً بالحياة. كان يحتفظ ببعض مجسّمات الحيوانات المنحوتة في شقته؛ تلك التي حازت على رضاه أكثر من غيرها. كلما كانت منحوتاته أصغر حجماً، زادت سعادته بها. لقد نجح في نحت كلب ماشية آيسلندي ذي ذيل معقوف وأذنين منتصبتين بحجم ظفر الإبهام تقريباً.

مدَّ يده تحت طاولة العمل، وفتح صندوقاً كان يحتفظ به هناك. تحسَّس المقبض ثم أخرج المسدس من مكانه. كان المعدن بارد الملمس. في بعض الأحيان، كانت ذكرياته تجرُّه إلى القبو كي يداعب السلاح، أو ليتأكد فقط من أنه موجود في مكانه.

لم يندم على ما حصل طوال تلك السنين؛ رغم مضي مدة طويلة على عودته من ألمانيا الشرقية.

مدة طويلة على اختفاء إيلونا.

لن يندم أبداً على ذلك.

23

استقبلتهما السفيرة الألمانية في ريكيافيك، الدكتورة إلسا مولر، شخصياً في مكتبها عند منتصف الظهر. كانت امرأة مهيبة تجاوزت عقدها السادس. وعلى الفور، بدأت تتمعَّن في سيغوردور أولي. أما إرلندور، بكنزته الصوفية ذات الأزرار، والظاهرة من تحت سترته العتيقة، فقد حظي باهتمام أقل منها. أخبرتهما أنها مختصة بالتاريخ، ومن هنا جاءت شهادة الدكتواره. كانت قد أمرت مسبقاً بوضع بسكويت ألماني وقهوة لهما، فقبل سيغوردور أولي عرض القهوة لأنه لم يشأ أن يكون قليل التهذيب. لكن إرلندور رفض. كان يود أن يدخن، إلا أنه لم يستطع حمل نفسه على طلب الإذن.

تبادلوا بعض المجاملات في البداية، حيث أعرب المحققان عن تقديرهما للجهود التي بذلتها السفارة الألمانية، في حين قالت الدكتورة مولر إنه من الطبيعي أن تحاول مساعدة السلطات الآيسلندية.

أخبرتهما - أو بالأحرى أخبرت سيغوردور أولي، لأنها كانت توجه معظم كلامها إليه - بأن استفسار قسم التحقيقات الجنائية الآيسلندي حول لوثر وايزر عَبَرَ كل القنوات المناسبة. كانوا يتحدثون بالإنكليزية. وأكدت لهما أن ألمانياً يحمل الاسم ذاته عمل كدبلوماسي في الممثلية التجارية الألمانية الشرقية في الستينيات. كان الحصول على معلومات حوله صعباً على نحو خاص لأنه كان عميلاً لصالح الخدمة السرية في ألمانيا الشرقية في ذلك الحين، وكانت لديه ارتباطات مع الكي جي بي في موسكو. وأخبرتهما أن عدداً هائلاً من الملفات أُتلف بعد سقوط جدار برلين، وأن المعلومات الضئيلة التي بقيت استُحصل عليها من مصادر استخبارية ألمانية غربية.

قالت السيدة مولر: «لقد اختفى من دون أن يترك أي أثر في آيسلندا عام 1968. لم يعرف أحد ماذا حدث له. في ذلك الحين، رُجِّح أنه ارتكب خطأً ما و...». سكتت السيدة مولر ورفعت كتفيها.

فأكمل إرلندور الجملة عنها: «قُتل».

«ربما يكون هذا أحد الاحتمالات، لكننا لا نملك أي إثبات عليه بعد. ربما يكون قد أقدم على الانتحار أيضاً وأُرسل بواسطة حقيبة دبلوماسية». ابتسمت لسيغوردور أولي وكأنها كانت تشير إلى أن تلك ملاحظة مضحكة، ثم واصلت كلامها: «أعلم أنكما ستجدان ذلك أمراً سخيفاً على نحو يثير الضحك، ولكن في ما يتعلق بالخدمة الدبلوماسية، إن آيسلندا تمثل النهاية الخلفية للعالم؛ الطقس المريع، والعواصف المستمرة، والظلام والبرد. لم يكن

هناك عقاب يمكن تخيله أسوأ من تعيين الناس هنا».

سألها سيغوردور أولي: «إذاً، هل كان يُعاقَب على شيء ما عندما أُرسل إلى هنا؟».

«حسب المعلومات التي استطعنا إيجادها، لقد عمل لصالح شرطة الأمن في لايبزيغ عندما كان أصغر سناً». قلَّبت بعض الصفحات على الطاولة أمامها. «خلال الفترة الممتدة من 1953 إلى 1957 أو 1958، أُوكلت إليه مهمة إقناع الطلاب الأجانب في الجامعة في المدينة، الذين كانوا في الغالب - إن لم يكونوا كلهم - شيوعيين، للعمل لصالحه أو أن يصبحوا مخبرين. لم يكن هذا تجسساً حقيقياً، بل مراقبة لأنشطة الطلاب».

قال سيغوردور أولي: «مخبرون؟».

قالت السيدة مولر: «لا أعرف ماذا يمكن أن تسمِّي ذلك. تجسس على الناس حولك. قيل إن لوثر وايزر كان بارعاً في إقناع الناس بالعمل لصالحه. كان يعرض عليهم المال أو نتائج جيدة في الامتحانات. كان الوضع قلقاً حينئذ بسبب هنغاريا، وكان الناس يراقبون دائماً ما كان يحصل هناك. وكانت شرطة الأمن تراقب الشبان عن كثب. تغلغل وايزر في صفوفهم. وليس وحده فقط. كان هناك أشخاص مثل وايزر في كل جامعة في ألمانيا الشرقية، وفي البلدان الشيوعية عادة. كانوا يريدون مراقبة شعوبهم، وأن يعرفوا بماذا كانوا يفكرون. كان يمكن أن يكون للطلاب الأجانب تأثير خطر، رغم أن معظمهم كانوا واعين كطلاب وكاشتراكيين معاً».

تذكَّر إرلندور أنه سمع حول اتقانه اللغة الآيسلندية، فسألها: «هل كان يوجد طلاب آيسلنديون في ذلك الحين؟».

قالت السيدة مولر: «لا أعرف حقاً. يجب أن تكون قادراً على اكتشاف ذلك».

قال سيغوردور أولي: «وماذا عن لوثر؟ ماذا حصل له بعد أن كان في لايبزيغ؟».

«لا بد أن هذا يبدو غريباً نوعاً ما بالنسبة إليكم، حسب تصوُّري. خدمة سرية وتجسس. أنتم لا تعرفون عن هذه الأشياء إلا من الأقاويل هنا في منتصف المحيط، أليس كذلك؟».

ابتسم إرلندور وقال: «ربما. لا أذكر أننا امتلكنا جاسوساً محترماً واحداً».

«أصبح وايزر جاسوساً للخدمة السرية في ألمانيا الشرقية. كان قد توقف عن العمل لصالح شرطة الأمن في ذلك الحين. سافر كثيراً، وعمل في

سفارات حول العالم. ومن بين مناصب أخرى أُرسل إلى هنا. كان يملك اهتماماً خاصاً بهذا البلد، وتُثبت ذلك حقيقة أنه تعلَّم اللغة الآيسلندية عندما كان شاباً. كان لوثر وايزر متحدث لغات موهوباً جداً. وكما في كل الأمكنة الأخرى، تمثَّل دوره هنا في دفع أناس محليين للعمل لصالحه، وهكذا كان لديه نوع الوظيفة نفسه كما في لايبزيغ. إذا كانت مبادئهم مهزوزة، فقد كان باستطاعته عرض المال عليهم».

قال سيغوردور أولي: «هل كان مسؤولاً عن أي آيسلندي؟».

قالت السيدة مولر: «ربما لا يكون قد حقق أي تقدم هنا».

قال إرلندور: «ماذا بشأن موظفي السفارة الذين عملوا معه في ريكيافيك؟ هل لا يزال أي منهم على قيد الحياة؟».

«لدينا قائمة بأسماء الموظفين من تلك المرحلة، لكننا لم نتمكن من تحديد أي شخص لا يزال على قيد الحياة ويعرف وايزر أو ما حدث له. كل ما نعرفه في الوقت الحالي هو أن هذه القصة تنتهي هنا في آيسلندا، في ما يبدو. كيف، لا نعرف. يبدو الأمر كما لو أنه تبدد في الهواء. من المعلوم أن ملفات الخدمة السرية القديمة ليست موثوقة جداً. فهناك الكثير من الثغرات، كما في ملفات ستاسي تماماً؛ عندما كُشفت للعلن بعد الوحدة، أو معظم السجلات الشخصية على أي حال، كان الكثير منها مفقوداً. كي أكون صادقة، إن معلوماتنا حول ما حصل للوثر وايزر غير مُرْضية، لكننا سنواصل البحث».

سكتوا قليلاً، فاستغل سيغوردور أولي الفرصة وقضم قطعة بسكويت، أما إرلندور فكان لا يزال يتحرَّق لإشعال سيجارة. لم يتمكن من رؤية أي منفضة في المكتب، لذا كان إشعال واحدة أشبه بأمل بعيد المنال.

قالت السيدة مولر: «في الحقيقة، ثمة نقطة واحدة مثيرة للاهتمام في كل هذه القصة؛ نظراً لأن فيها جزءاً يتعلق بلايبزيغ. إن سكان لايبزيغ فخورون جداً لإشعالهم - عملياً - فتيل الانتفاضة التي أسقطت هونيكر والجدار. لقد حدثت احتجاجات ضخمة في لايبزيغ ضد الحكم الشيوعي، وكان مركز الانتفاضة يقع في نيكولايكيرتشه القريبة من مركز المدينة. تجمَّع الناس هناك للاحتجاج والصلاة، وذات ليلة غادر المتظاهرون واتجهوا نحو مقر ستاسي القريب منهم. في لايبزيغ على الأقل، يُنظَر إلى هذا على أنه بداية التطورات التي أسقطت جدار برلين».

قال إرلندور: «بالفعل».

قال سيغوردور أولي: «غريب أنه فُقد جاسوس ألماني في آيسلندا. إنه

نوعاً ما...».

«سخيف؟». ابتسمت السيدة مولر. «في أحد الجوانب، كان مناسباً لقاتل وايزر - إن قُتل - أنه كان عميلاً سرياً. يمكنكما ملاحظة ذلك في رد فعل الممثلية التجارية الألمانية الشرقية هنا؛ لم يكونوا يملكون سفارة لائقة حينئذ. لم يفعلوا شيئاً. هذا رد فعل نموذجي لتغطية فضيحة دبلوماسية. لم يقل أحد كلمة واحدة. كما لو أن وايزر لم يكن موجوداً مطلقاً. ليست لدينا أي أدلة على إجراء تحقيق في اختفائه».

قال إرلندور: «لم تُبلّغ الشرطة هنا عن اختفائه. لقد تحققنا من ذلك».

قال سيغوردور أولي: «ألا يوحي ذلك بأنها كانت مسألة داخلية؟ وبأن أحد زملائه قتله؟».

قالت السيدة مولر: «ربما. ما زلنا نعرف القليل جداً عن وايزر ومصيره».

قال سيغوردور أولي: «ألا تعتقدين أن القاتل ميت الآن؟ فقد حدث ذلك منذ مدة طويلة جداً؛ أقصد إن كان لوثر وايزر قد قُتل».

قالت السيدة مولر: «هل تعتقدان أنه هو الرجل في البحيرة؟».

قال سيغوردور أولي: «ليست لدينا أي فكرة». لم يخبروا السفارة بأي تفاصيل تتعلق بالاكتشاف. نظر سيغوردور أولي إلى إرلندور فأومأ له هذا الأخير برأسه موافقاً.

قال سيغوردور أولي: «الهيكل العظمي الذي وجدناه كان مربوطاً بجهاز تنصت روسي من الستينيات».

قالت السيدة مولر بتفكُّر: «فهمت». ثم أردفت قائلةً: «جهاز روسي؟! وماذا يعني ذلك؟ ما هي أهمية ذلك؟».

قال سيغوردور أولي: «هناك عدد من الاحتمالات».

قال إرلندور: «هل يمكن أن يكون الجهاز قد جاء من سفارة ألمانيا الشرقية أو الممثلية أو مهما كانت تسميتها؟».

«بالتأكيد. كانت دول حلف وارسو تتعاون في كل شيء، بما في ذلك حقل التجسس».

قال إرلندور: «عندما توحدت ألمانيا، واندمجت السفارتان هنا في ريكيافيك، هل وجدتم أي أجهزة مثله في أيدي الألمان الشرقيين؟».

قالت السيدة مولر: «لم نندمج. لقد حُلَّت السفارة الألمانية الشرقية بدون علمنا. لكنني سأتأكد من مسألة الأجهزة».

قال سيغوردور أولي: «ماذا تستنتجين من إيجاد جهاز تنصت روسي مع الهيكل العظمي؟».

«لا يمكنني أن أعرف. ليست وظيفتي التخمين».

قال سيغوردور أولي: «لا، صحيح، ولكن كل ما نملكه هو التخمين، لذا...».

وضع إرلندور يده في جيب سترته وأمسك بعلبة سجائره، غير أنه لم يجرؤ على إخراجها من جيبه.

ثم قال: «ما هو الخطأ الذي ارتكبتِه؟».

قالت السيدة مولر: «ماذا تقصد بقولك ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟».

«لماذا أُرسلت إلى هذا البلد المريع؟».

ابتسمت السيدة مولر وقالت: «هل تعتقد أنه سؤال لائق؟ أنا سفيرة ألمانيا في آيسلندا، تذكَّر هذا».

رفع إرلندور كتفيه وقال: «آسف، لكنك وصفت العمل الدبلوماسي هنا بأنه نوع من العقاب. لكنه ليس شأني على أي حال».

خيَّم صمت مربك على المكتب إلى أن قطعه سيغوردور أولي حين تنحنح وشكرها على مساعدتها. قالت السيدة مولر ببرودة إنها ستتصل بهم إذا ظهر أي شيء جديد يمكن أن يكون مفيداً حول لوثر وايزر، فأحسّا بوضوح من نبرة صوتها أنها لن تهرع إلى أقرب هاتف.

عندما أصبحا خارج السفارة، ناقشا إمكانية أن يكون هناك طلاب آيسلنديون في لايبزيغ على معرفة بلوثر وايزر. قال سيغوردور أولي إنه سيتحقق من الأمر.

ثم سأل إرلندور: «ألم تكن فظاً قليلاً معها؟».

فقال إرلندور: «إن ما قالته أغضبني». ثم أشعل سيجارة طال انتظارها.

24

عندما عاد إرلندور إلى المنزل من المكتب في ذلك المساء، وجد سيندري سناير ينتظره. كان نائماً على الأريكة، لكنه استيقظ عندما دخل إرلندور.

قال إرلندور: «أين كنت مختبئاً؟».

قال سيندري سناير وهو يجلس: «في الجوار».

«هل لديك ما تأكله؟».

«لا، لا بأس».

جلب إرلندور بعضاً من خبز الجاودار، ولحم حَمَل قابلاً للدهن وزبدة، وأعدَّ قهوة. قال سيندري إنه لم يكن جائعاً، لكن إرلندور لاحظ كيف التهم الخبز ولحم الحمل، فوضع الجبن على الطاولة فاختفت بدورها.

بعد إشباع جوع سيندري سناير، وبينما كانا يشربان القهوة، قال إرلندور: «هل تعرف شيئاً عن إيفا ليند؟».

«أجل، لقد تحدثت معها».

«هل هي بخير؟».

قال سيندري: «نوعاً ما». ثم أخرج علبة سجائر، وفعل إرلندور مثله. أشعل سيندري سيجارة والده بواسطة ولاعة رخيصة، ثم أكمل كلامه: «أعتقد أنه مضى زمن طويل منذ أن كانت إيفا بخير».

صمتا قليلاً وتابعا شرب قهوتهما. نظر سيندري إلى الستائر السميكة التي كانت تحجب ضوء الشمس عن غرفة الجلوس، ثم قال: «لماذا الغرفة مظلمة جداً؟».

«الضوء شديد في الخارج؛ في المساءات والليالي». لم يستفض أكثر في الموضوع ويخبر سيندري أنه كان يفضِّل الأيام القصيرة والظلمة الحالكة على الشمس الدائمة والضوء المتواصل. لم يكن هو نفسه يعرف السبب، ولم يكن يعرف لماذا كان يشعر بأن حاله يكون أفضل في الشتاء المظلم منه في الصيف المشرق.

قال إرلندور: «أين عثرت عليها؟ أين وجدت إيفا؟».

«بعثت لي رسالة فاتصلت بها. نحن نبقى على تواصل دائماً، حتى عندما أغيب عن المدينة. إن علاقتنا جيدة». صمت قليلاً. «إيفا فتاة جيدة».

قال إرلندور: «أجل».

قال سيندري: «أتكلم بجدية. لو عرفتها عندما كانت...».

قاطعة إرلندور قائلاً: «لستَ مضطراً لإخباري بأي شيء عن هذا. أعرفه كله». لم يدرك إرلندور كم بدا فظاً بقوله هذا الكلام.

راقب سيندري أباه بصمت، ثم أطفأ سيجارته، وفعل إرلندور مثله.

وبعد ذلك، وقف سيندري، وقال: «شكراً على القهوة».

«هل أنت مغادر؟». قال إرلندور وهو يلحق بابنه إلى خارج المطبخ. «إلى أين أنت ذاهب؟».

أخذ سيندري سترته الجينز عن الكرسي ولبسها من دون أن يُجيبه. ووقف إرلندور يراقبه، غير راغب في أن يغادر وهو غاضب.

قال إرلندور: «أنا لم أقصد أن... كل ما في الأمر هو أن... إيفا... أعرف أنكما صديقان مقرَّبان».

سأله سيندري: «ماذا تظن أنك تعرف عن إيفا؟ لماذا تعتقد أنك تعرف كل شيء عنها؟».

قال إرلندور: «لا تجعل منها شهيدة. إنها لا تستحق ذلك، ولا تريد منك أن تفعل ذلك أيضاً».

قال سيندري: «وأنا لا أفعل ذلك. ولكن، لا تخدع نفسك وتعتقد أنك تعرف إيفا. وماذا تعرف عما تستحقه؟».

قال إرلندور بغضب: «أعرف أنها مدمنة لعينة. هل هناك شيء آخر أحتاج لمعرفته؟ إنها لا تفعل أي شيء لإصلاح نفسها. أنت تعلم أنها أجهضت. قال الأطباء إن هذا كان رحمة بعد كل المخدرات التي تعاطتها خلال الحمل. لا ترفع كثيراً من شأن أختك. تلك الحمقاء لم تتعلم الدرس مجدداً، ولا يمكنني تحمُّل الخوض في كل ذلك الهراء بعد الآن».

فتح سيندري الباب وخرج، وقبل أن يصل إلى السلَّم توقف والتفت نحو إرلندور، ثم استدار ودخل ثانيةً إلى الشقة وأغلق الباب.

اقترب من إرلندور وقال: «أنا أرفع كثيراً من شأن أختي؟!».

قال إرلندور: «يجب أن تكون واقعياً. هذا كل ما أقوله. لأنه طالما أنها لا تريد فعل أي شيء لمساعدة نفسها، فإن كل ما نفعله سيذهب هباءً».

قال سيندري: «أذكرُ إيفا جيداً عندما لم تكن تتعاطى المخدرات. هل تتذكرها أنت؟».

كان قد أصبح حينئذ قريباً جداً من أبيه الذي استطاع رؤية الغضب في حركاته ووجهه وعينيه.

كرر سيندري سؤاله: «هل تتذكر إيفا عندما لم تكن تتعاطى المخدرات؟».

فقال إرلندور: «لا. لا أتذكرها. أنت تعلم ذلك جيداً».

قال سيندري: «أجل، أعلم ذلك جيداً».

قال إرلندور: «لا تبدأ بإلقاء عظات لا معنى لها علي. لقد سمعت الكثير من ذلك من إيفا».

«لا معنى لها؟! هل نحن بلا أي معنى بالنسبة إليك؟».

«توقف. لا أريد أن أتجادل معك، ولا أريد أن أتجادل معها، وبالتأكيد لا أريد أن أتجادل حولها».

«أنت لا تعلم أي شيء، صحيح؟ لقد رأيتُ إيفا. قبل يوم أمس. إنها تعيش مع شخص يُدعى إدي يكبرها بعشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً. كان فاقداً صوابه تماماً. كان سيطعنني لأنه ظنَّ أنني مجرم. ظن أنني جئت كي أسترد ديْناً. كلاهما يبيعان المخدرات، لكنهما يفعلان الكثير من الأشياء أيضاً، ومن ثم يحتاجان إلى المزيد، ويأتي الأشرار من أجل المال. هناك أشخاص يلاحقونهما الآن. لعلك تعرف إدي هذا بما أنك شرطي. لم تكن إيفا تريد أن تخبرني أين تنام. إنها مرعوبة. إنهما موجودان في مكان قذر بالقرب من مركز المدينة. إدي يزودها بالمخدرات وهي تحبه. لم أرَ مثل هذا الحب الحقيقي. هل تفهمني؟ إنه بائع مخدرات. كانت متسخة. لا، كانت قذرة. وهل تعلم ما الذي كانت تريد معرفته؟».

هز إرلندور رأسه نافياً.

«كانت تريد أن تعرف إن كنتُ قد رأيتك. ألا تعتقد أن هذا غريب. الشيء الوحيد الذي أرادت معرفته هو إن كنتُ قد رأيتك. لماذا برأيك؟ لماذا برأيك هي قلقة بخصوص ذلك؟ وسط كل تلك القذارة وذلك البؤس؟ لماذا برأيك؟».

قال إرلندور: «لا أعلم. لقد توقفت عن محاولة فهم إيفا منذ وقت طويل».

كان باستطاعته إبلاغ سيندري بأنه وإيفا عاشا معاً لبعض الوقت رغم كل الظروف السيئة. ورغم أن علاقتهما كانت صعبة وهشّة، ولم تكن قطّ خالية من الخلافات، إلا أنها كانت علاقة مع ذلك. وفي بعض الأحيان كانت جيدة جداً. تذكَّر الكريسماس عندما كانت مكتئبة بشدة بسبب الجنين الذي فقدته لدرجة أنه ظن أنها قد تحاول فعل شيء أحمق. أمضت الكريسماس ورأس السنة معه، وتحدثا حول الجنين والشعور بالذنب

الذي كان يعذِّبها. وذات صباح، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، اختفت.

قال سيندري: «كانت قلقة بشأن طريقة تواصلكما! بشأن طريقة تواصلكما!».

ظل إرلندور صامتاً.

«لو كنتَ تعرفها في السابق، قبل أن تتورط في المخدرات، لو كنت تعرفها كما عرفتها أنا لصُدمت. كانت قد مضت مدة طويلة على آخر مرة رأيتها فيها، وعندما رأيتها، رأيت شكلها... أردت... أردت أن...».

قال إرلندور: «أعتقد أنني فعلت كل ما بوسعي لمساعدتها. هنالك حدود لما يمكنك فعله. وعندما تشعر بعدم وجود رغبة لفعل أي شيء بالمقابل...». تبخرت الكلمات من ذهنه.

قال سيندري: «كانت تملك شعراً بلون الزنجبيل. عندما كنا طفلين. كان شعرها كثيفاً أحمر مائلاً إلى البني. وكانت أمي تقول إنها أخذته حتماً من طرفك من العائلة».

قال إرلندور: «أذكر الشعر الزنجبيلي».

قال سيندري: «عندما كانت في الثانية عشرة قصَّته وصبغته باللون الأسود».

«لماذا فعلت ذلك؟».

قال سيندري: «كانت علاقتها مع أمي متوترة في كثير من الأوقات. أمي لم تعاملني مطلقاً كما كانت تعامل إيفا. ربما لأنها كانت أكبر وتُذكِّرها بك كثيراً. وربما لأن إيفا كانت دائماً جاهزةً لفعل شيء ما. لا شك أنها كانت مفرطة النشاط. شعر زنجبيلي ونشاط مفرط. كانت تزعج أساتذتها فيكرهونها فترسلها أمها إلى مدرسة أخرى، وكان هذا يزيد الأمر سوءاً. كانت تتضايق من كونها الفتاة الجديدة، ولهذا السبب كانت تقوم بكل الحيَل كي تجذب الانتباه إليها. وكانت تخيف الآخرين لأنها كانت تعتقد أن هذا كان يساعدها على الاندماج. ذهبت أمي إلى ملايين الاجتماعات في المدرسة بسببها».

أشعل سيندري سيجارة، ثم واصل كلامه: «لم تصدِّق قطّ ما كانت أمي تقوله عنك. أو قالت إنها لم تكن تصدِّقه. كانتا تتقاتلان مثل القط والكلب، وكانت إيفا بارعة في استخدامك لإغاظتها. كانت تقول إنه ليس مما يدعو للاستغراب أنك تركتها، وإنه لا يمكن لأي أحد أن يعيش معها. كانت تدافع عنك».

تلفَّت سيندري حوله حاملاً سيجارته، فأشار إرلندور إلى منفضة فوق

طاولة القهوة. أخذ سيندري نفَساً من السيجارة وجلس بجانب الطاولة. لقد هدأ الآن وخفَّ التوتر بينهما. أخبر إرلندور كيف كانت إيفا تخترع قصصاً حوله عندما بلغت من العمر ما يكفي كي تطرح أسئلة عاقلة حوله.

كانت إيفا تصوِّر أباها بشكل مختلف كلياً عن طريقة وصف أمها له. لقد هربت مرتين من المنزل في سن التاسعة والحادية عشرة للبحث عنه. وكانت تكذب على أصدقائها وتقول إن والدها الحقيقي - ليس أولئك الذين كانوا يرافقون أمها - كان دائماً في الخارج. وكلما كان يأتي من السفر كان يجلب لها هدايا رائعة. ولم يكن باستطاعتها عرضها عليهم لأن والدها لم يكن يحب أن تتفاخر أمامهم. وكانت تقول لآخرين إن أباها يعيش في منزل فاخر وكبير، وعندما كانت تذهب للبقاء عنده في بعض الأحيان، كان بوسعها الحصول على ما كانت تحلم به لأنه كان ثرياً جداً.

وعندما بدأت تكبر أصبحت حكاياتها حول أبيها أكثر واقعيةً. قالت أمهما ذات مرة إن أباهما، على حد علمها، كان لا يزال في الشرطة. وسط كل مشاكلها في المدرسة وفي المنزل - عندما بدأت إيفا ليند بتدخين التبغ والحشيش وباحتساء الشراب في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة - كانت واثقة تماماً بأن أباها موجود في مكان ما في المدينة. ومع مرور الزمن لم تعد متأكدة مما إذا كانت حقاً تريد العثور عليه أم لا.

أخبرت سيندري ذات يوم أن من الأفضل لها ربما إبقاءه في رأسها. وكانت مقتنعة بأنه سيخيِّب آمالها مثل كل الأشياء الأخرى في حياتها.

قال إرلندور: «لا شك أنني فعلت ذلك». كان حينئذ جالساً على كرسيه ذي المسندين.

أخرج سيندري علبة سجائرة مجدداً.

قال إرلندور: «ولم تكن تعطي انطباعاً جيداً مع كل أولئك الرجال الذين كانوا يرافقونها. كانت دائماً تقع في الحفرة نفسها. لم تكن تملك أي نقود، لذا كانت تلتصق بأحد بائعي المخدرات وتقضي الوقت معه، ومهما كانت معاملته لها سيئة، فإنها كانت تظل معه».

قال سيندري: «سأحاول التحدث معها. ولكن ما أعتقده حقاً هو أنها تنتظرك كي تأتي وتنقذها. أعتقد أنها على حافة الانهيار. صحيح أنها غالباً ما تكون في وضع سيئ، لكنني لم أرها بهذا الشكل مطلقاً من قبل».

قال إرلندور: «لماذا قصَّت شعرها عندما كانت في الثانية عشرة؟».

«لمسها شخص ما وداعب شعرها وقال لها كلاماً بذيئاً».

قال هذا على الفور كما لو أنه كان يستطيع البحث في ذاكرته عن

مثل هذه الحوادث وإيجاد الكثير منها. في تلك الأثناء، بقيت ملامح إرلندور على حالها. كانت عيناه باردتين كالرخام.

نظر سيندري إلى رفوف الكتب - لم يكن يوجد في شقته تقريباً سوى الكتب - ثم قال: «قالت إيفا إنك كنت دائماً مهتماً بالأشخاص المفقودين».

«صحيح».

«أبسبب شقيقك؟».

قال إرلندور: «ربما».

«قالت إيفا إنك أخبرتها أنك كنت شخصها المفقود».

قال إرلندور: «أجل. لأن اختفاء الناس لا يعني بالضرورة أنهم أموات». خطرت في باله سيارة الفورد فالكون السوداء الواقفة خارج محطة الحافلات، وغطاء إحدى عجلاتها مفقود.

دعا إرلندور ابنه لكي يبقى عنده وينام على الأريكة، لكن سيندري لم يكن يريد البقاء فودَّع أباه وذهب. وبعد مغادرته، ظل إرلندور مدة طويلة جالساً على كرسيه وهو يفكر في شقيقه وإيفا ليند. كانت في الثانية من عمرها عندما انفصل عنها. لقد ضرب وصفُ سيندري لطفولتها على وتر حساس داخله، فبدأ يرى علاقته المتوترة مع إيفا في ضوء مختلف، ولكن أشد حزناً.

كان لا يزال يفكر في شقيقه وإيفا وسيندري، وفي نفسه أيضاً، عندما غفا أخيراً بعد منتصف الليل بقليل. وحلم حلماً غريباً. كان ذاهباً في نزهة مع ولديه بالسيارة. كان الولدان جالسين على المقعد الخلفي وهو وراء المقود، ولم يكن بوسعه معرفة المكان الذي كانوا فيه لأن الضوء كان ساطعاً بشدة حولهم؛ لدرجة أنه لم يستطع تمييز المكان. ومع ذلك أحس بأن السيارة كانت تسير، وأنه كان بحاجة لقيادتها بحذر أكبر بسبب عدم قدرته على الرؤية. عندما نظر إلى الولدين الجالسين خلفه في مرآة الرؤية الخلفية لم يتمكن من تمييز وجهيهما. بدوَا له بأنهما يشبهان سيندري وإيفا، لكن وجهيهما كانا غير واضحيْن أو ملفوفيْن بالضباب. قال لنفسه إنهما لا يمكن أن يكونا إلا سيندري وإيفا. كانت إيفا تبدو أنها لا تتجاوز الرابعة من عمرها. ولاحظ أنهما كانا متشابكي اليدين.

كان المذياع يعمل، وكان هناك صوت أنثوي جذاب يغني:

أعلم أنك ستأتي إلي الليلة...

وفجأةً، رأى شاحنة ضخمة تتوجه نحوه. حاول إطلاق البوق والضغط

على المكابح فلم يحدث أي شيء. نظر إلى المرآة فلم يشاهد الولدين، وأحس بشعور لا يوصَف بالراحة. ثم نظر إلى الطريق أمامه فوجد أنه كان يقترب من الشاحنة بسرعة قصوى. كان الاصطدام بها محتوماً.

وعندما كان الأوان قد فات، أحسَّ بوجود غريب بجانبه. التفت إلى يمينه فشاهد إيفا جالسة هناك، تحدِّق فيه مبتسمة. لم تعد طفلة صغيرة وإنما صارت شابة ناضجة، لكن منظرها كان مريعاً بمعطفها الواقي من المطر الأزرق الوسخ، وكتل الوحل الملتصقة بشعرها، والدائرتين القاتمتين حول عينيها، وشفتيها السوداوين. لاحظ من خلال ابتسامتها العريضة أن بعض أسنانها كانت مفقودة.

أراد أن يقول لها شيئاً لكنه لم يستطع إخراج الكلمات من فمه. أراد أن يصرخ فيها كي ترمي نفسها من النافذة، لكن شيئاً ما منعه؛ نوعاً من الهدوء حيال إيفا؛ لامبالاة وسلام مطلقيْن. حوَّلت نظرها منه إلى الشاحنة وبدأت تضحك.

وقبل لحظة من الاصطدام بدأ يستفيق ونادى باسم ابنته. تطلَّب منه الأمر بعض الوقت لمعرفة مكان تواجده، ثم وضع رأسه ثانيةً على الوسادة، وفجأة غمرته أغنية حزينة على نحو غريب قادته مجدداً إلى نوم بدون أحلام.

أعلم أنك ستأتي إلي الليلة...

25

لم يتذكَّر نيلز شقيقَ هارالدر بوضوح، أو لم يفهم تماماً سبب تذمُّر إرلندور لعدم ذكره في التقرير المتعلق بالشخص المفقود. كان نيلز يتحدث عبر الهاتف عندما دخل إرلندور إلى مكتبه. كان يتحدث مع ابنته التي كانت تدرس الطب في أميركا، أو تتخصص في طب الأطفال حسبما أخبره نيلز بفخر بعد انتهاء المكالمة، وكأنه لم يخبر أحداً بهذا الأمر من قبل. في الواقع، كان بالكاد يتحدث عن أي شيء آخر سوى ذلك، لكن إرلندور لم يكترث لهذا. كان نيلز يقترب من سنّ التقاعد، ويتعامل بشكل أساسي مع الجرائم الثانوية - مثل سرقة السيارات والسرقات البسيطة - حيث كان يطلب من الناس دائماً محاولة نسيان الأمر، وعدم توجيه أي تهم، لأن ذلك كان مجرد مضيعة للوقت. فإذا وجدوا المرتكبين، كانوا يكتبون تقريراً، ويُطلَق سراحهم بعد الاستجواب مباشرةً، ولا تُحوَّل القضية إلى المحكمة أبداً. وفي حال حدث ذلك وحُوِّلت إلى المحكمة، عندما يكون قد تجمَّع ما يكفي من الجرائم الثانوية، فإن الحكم يكون مضحكاً ومهيناً للضحايا.

قال إرلندور: «ماذا تتذكر حول ذاك المدعو يوهان؟ هل قابلته؟ هل ذهبت إلى مزرعتهما في موزفيلسباير؟».

أجابه نيلز بسرعة: «ألا ينبغي عليك التحقيق في ما يتعلق بجهاز التجسس الروسي؟». ثم أخرج مقص أظافر من جيب سترته وبدأ يقلِّم أظافره. كان ينتظره بعد وقت قصير غداء ممتع وطويل.

قال إرلندور: «آه، أجل. هناك الكثير من الأعمال».

كان ثمة شيء في نبرة صوت إرلندور لم يرق لنيلز الذي توقف عن تقليم أظافره وقال: «يوهان، أو جوي كما كان أخوه يدعوه، كان غريباً نوعاً ما. كان خجولاً، أو أبله؛ كما كان يُسمَح لكم أن تقولوا في السابق، قبل أن تلطِّف شرطةُ التصحيح السياسي اللغةَ بكل العبارات المهذبة».

قال إرلندور: «خجولاً؟! كيف؟». كانت يتفق مع نيلز بخصوص اللغة. لقد أصبحت عاجزة تماماً بسبب مراعاة أي أقلية محتملة.

قال نيلز: «كان غبياً فقط». واستأنف تقليم أظافره. «ذهبت إلى هناك مرتين، وتحدثت مع الأخوين. كان الكبير يتحدث عن كليهما. يوهان لم يكن يتحدث كثيراً. كانا مختلفين كلياً. أحدهما كان مجرد جلد وعظم مع وجه مثلث الشكل، والآخر كان أكثر بدانة مع تعابير طفولية وخجولة نوعاً ما».

قال إرلندور: «لا أستطيع تصوُّر يوهان تماماً».

«لا أذكره بشكل جيد يا إرلندور. كان متشبثاً بأخيه مثل صبي صغير، وكان دائماً يسأل عنه. ولم يكن يتحدث بشكل جيد، بل كان يتأتئ. كان - كما يمكنك أن تتخيل - يشبه مزارعاً من قرية نائية يملأ القش شعره، وينتعل جزمة مطاطية في قدميه».

قال إرلندور: «وهل تمكَّن هارالدر من إقناعك بأن ليوبولد لم يأتِ إلى مزرعتهما مطلقاً؟».

«لم يكونا بحاجة لإقناعي. لقد وجدنا السيارة خارج محطة الحافلات. لم يكن هناك ما يوحي بأنه كان مع الأخوين. لم يكن لدينا شيء لنعتمد عليه. ليس أكثر منك».

«ألا تعتقد أنه يحتمل أن يكون الأخوان هما اللذين أخذا السيارة إلى هناك؟».

قال نيلز: «لم تكن هناك أي إشارة إلى ذلك. أنت تعرف قضايا المفقودين. كنت ستفعل الشيء ذاته تماماً بالمعلومات التي كنا نملكها».

«لقد وجدتُ الفالكون. أعلم أن الأمر قد حدث منذ سنوات طويلة، ولا بد أن السيارة قد تغيَّرت كثيراً منذ ذلك الحين، ولكن وُجد فيها شيء يمكن أن يكون روث بقر. وخطر لي أنك لو كبَّدت نفسك مشقة التحقيق في القضية بشكل ملائم، لربما وجدت الرجل وطَمْأَنْت المرأة التي كانت تنتظره حينئذ، ولا تزال تنتظر حتى الآن».

رفع نيلز رأسه عن أظافره وقال: «أي هراء هو هذا الذي تقوله؟ كيف يمكنك أن تتخيل شيئاً بهذا الغباء؟ فقط لأنك وجدت بعض روث البقر في السيارة بعد ثلاثين عاماً. هل بدأت تفقد رشدك؟».

قال إرلندور: «كنت تملك الفرصة لاكتشاف شيء مفيد».

قال نيلز: «أنت وأشخاصك المفقودون! على أي حال، إلى أين تريد أن تصل بهذا؟ من طلب منك ذلك؟ هل هي قضية حقيقية؟ ومن يقول ذلك؟ لماذا تعيد فتح مسألة عمرها ثلاثون سنة ولا أحد يقدر على حلها في كل الأحوال، وتحاول أن تجعل منها قضية؟ هل رفعت من آمال تلك المرأة؟ هل ستخبرها أنك تستطيع إيجاده؟».

«لا».

قال نيلز: «أنت مجنون. لطالما قلتُ ذلك. منذ أن بدأتَ العمل هنا، أخبرت ماريون بذلك. لا أعلم ما الذي كان ماريون يراه فيك».

قال إرلندور: «أريد أن أجري بحثاً عنه في الحقول هناك».

قال نيلز بغضب: «تبحث عنه في الحقول! هل أنت معتوه؟ أين

ستبحث؟».

قال إرلندور بهدوء: «حول المزرعة، توجد جداول وأخاديد في أسفل الهضبة تقود كلها إلى البحر. أريد أن أرى إذا كان بوسعنا إيجاد شيء ما».

قال نيلز: «ما هي الأسس التي تملكها؟ هل هناك اعتراف؟ أو أية تطورات جديدة؟ لا تملك إلاّ مجرد كومة من الروث في كومة من الحديد المهترئ!».

وقف إرلندور وقال: «أردت فقط أن أبلغك أنك إذا كنت تخطط لاختراع أغنية والرقص عليها، فلا بد أن أبيِّن كم كان التحقيق الأصلي رديئاً لأن الثقوب الموجودة فيه أكثر من -».

قاطعه نيلز وهو ينظر إليه بكره: «افعلْ ما يحلو لك. اجعلْ من نفسك أحمق إذا أردت ذلك. ولكنك لن تحصل على إذن أبداً!».

فتح إرلندور الباب وخرج إلى الممر، وقال قبل أن يغلق الباب وراءه: «لا تجرح نفسك».

عقد إرلندور اجتماعاً قصيراً مع سيغوردور أولي وإيلينبورغ حول قضية بحيرة كلايفارفاتن. كان البحث عن معلومات إضافية حول لوثر وايزر بطيئاً وشاقاً، وذلك لأن كل الاستفسارات كان ينبغي أن تمر عبر السفارة الألمانية التي أُهينت سفيرتها من قبل إرلندور، إضافة إلى أنهم لم يكونوا يملكون إلا بضعة خيوط. أرسلوا استفساراً - شكلياً - إلى الإنتربول، وجاءهم الرد المؤقت بأنهم لم يسمعوا باسم لوثر وايزر من قبل. كان كوين من السفارة الأميركية يحاول إقناع أحد موظفي السفارة التشيكية في تلك الحقبة بالتحدث إلى الشرطة الآيسلندية، لكنه لم يكن يعرف إن كانت جهوده ستثمر أم لا. ولم يكن لوثر وايزر - في ما يبدو - على ارتباط مع الآيسلنديين كثيراً، فالاستفسارات بين الموظفين الحكوميين القدامى لم تقدهم إلى أي مكان. كانت لائحة ضيوف السفارة الألمانية الشرقية ضائعة منذ وقت طويل، ولم تكن هناك لائحة ضيوف من السلطات الآيسلندية في ما يتعلق بتلك السنوات. كان المحققون في حيرة من أمرهم. كيف يمكنهم اكتشاف إن كان لوثر على معرفة بأي آيسلندي في ذلك الحين؟ لا أحد كان يتذكّر الرجل، في ما كان يبدو.

كان سيغوردور أولي قد طلب مساعدة من السفارة الألمانية ووزارة التعليم الآيسلندية من أجل تقديم لائحة بالطلاب الآيسلنديين في ألمانيا

الشرقية. وبما أنه لم يكن يعرف أي مرحلة ينبغي عليه التركيز عليها، بدأ بالسؤال عن الطلاب منذ نهاية الحرب وحتى العام 1970 .

في تلك الأثناء، كان لدى إرلندور متسع من الوقت لتكريس اهتمامه بموضوعه المفضل، رجل الفالكون. كان يدرك تماماً أنه لم يكن يملك أي شيء تقريباً للاستناد عليه إن أراد مذكرة لإجراء بحث شامل عن جثة في أرض الأخوين بالقرب من موزفيلسباير.

قرر زيارة ماريون برايم الذي تحسَّن وضعه قليلاً. كانت أسطوانة الأوكسجين لا تزال جاهزة للاستعمال، لكن المريض بدا أفضل حالاً عندما كان يتحدث عن أدوية جديدة أظهرت مفعولاً أفضل من الأدوية القديمة، ويلعن الطبيب لأنه «لم يكن يعرف مؤخرته من مرفقه». ظن إرلندور أن ماريون كان يستعيد نشاطه كما كان في الماضي.

قال ماريون: «ما الذي تفعله هنا طوال الوقت؟ ألا تملك عملاً أفضل لتقوم به؟».

«بل الكثير، كيف حالك؟».

قال ماريون: «لستُ محظوظاً مع الموت. اعتقدتُ أنني متّ في الليلة الماضية. شيء مضحك. بالتأكيد يمكن أن يحدث هذا عندما تكون مستلقياً طوال الوقت بدون أي شيء تفعله سوى انتظار الموت. كنت متأكداً بأن الأمر قد انتهى».

رشف ماريون من كأس ماء بشفتيه الجافتين، ثم أكمل كلامه: «أعتقد أنه ما يدعونه خروج الروح من الجسد. كان هذياناً عندما كنت غافياً. لا شك أن الأدوية الجديدة هي السبب. لكنني كنت أحوم هناك فوق»، نظر ماريون إلى السقف، «ونظرت إلى جسدي البائس، وظننت أنني أرحل، وكنت متقبلاً الأمر في قرارة نفسي. لكنني بالطبع لم أكن أحتضر. كان مجرد حلم مضحك. ذهبت لإجراء فحص هذا الصباح فأخبرني الطبيب أنني كنت أكثر إشراقاً بقليل. كان دمي أفضل مما كان عليه منذ أسابيع. لكنه لم يعطني أي أمل بالنسبة للمستقبل».

قال إرلندور: «ماذا يعلم الأطباء؟».

«ماذا تريد مني على أي حال؟ هل هي الفورد فالكون؟ لماذا تحوم حول هذه القضية؟».

«هل تذكر إن كان المزارع الذي كان صاحب الفورد ذاهباً لزيارته بالقرب من موزفيلسباير لديه أخ؟». لم يكن إرلندور يريد إرهاق ماريون، لكنه كان يعرف أن رئيسه القديم كان يستمتع بكل ما هو غامض

وغريب.

فكَّر ماريون بعينين مغمضتين، ثم قال: «ذلك التافه الكسول نيلز تحدث حول الأخ وقال إنه كان مضحكاً قليلاً».

قال إرلندور: «يقول إنه كان أبله، لكنني لا أعرف ما الذي يقصده بذلك بالضبط».

«كان متخلفاً عقلياً إن كانت ذاكرتي سليمة. كان ضخماً وقوياً ولكن مع عقل طفل. لا أعتقد أنه كان قادراً على الكلام حقاً. كان يتفوه بأشياء لا معنى لها».

قال إرلندور: «لماذا لم يُتابَع هذا التحقيق يا ماريون؟ لماذا سُمح بإيقافه؟ كان من الممكن فعل الكثير».

«لماذا تقول ذلك؟».

قال إرلندور: «كان يجب تمشيط أرض الأخوين. الجميع سلَّموا بأن البائع لم يذهب إلى هناك، ولم تُثَر أي شكوك. كان كل شيء واضحاً، حيث قرروا أن الرجل إما أن يكون قد أقدم على الانتحار أو غادر المدينة وسيرجع عندما يناسبه ذلك. لكنه لم يرجع، وأنا لست واثقاً بأنه انتحر».

«هل تظن أن الأخوين قد قتلاه؟».

«أود التحقق من هذا الأمر. المتخلف العقلي مات، لكن الشقيق الكبير موجود في دار للمسنين هنا في ريكيافيك، وأعتقد أنه كان قادراً على مهاجمة أي شخص بأقل ذريعة».

قال ماريون: «وما الذي يعنيه هذا؟ أنت تعلم أنك لا تملك أي دافع. كان ذاهباً لبيعهما جراراً؛ ولم يكونا يملكان أي سبب لقتله».

قال إرلندور: «أعرف. إذا كانا قد فعلا ذلك، فربما كان السبب شيئاً حصل هناك عندما زارهما؛ حوادث متسلسلة تحركت، ربما بالصدفة المحضة، وأدّت إلى موت الرجل».

قال ماريون: «إرلندور، أنت أعقل من ذلك. هذه تخيُّلات. أوقف هذا الكلام الفارغ».

«أعرف أنني لا أملك أي دافع ولا جثة، وأن الأمر حدث منذ سنوات بعيدة، ولكن هناك شيئاً غير منسجم وأود اكتشافه».

«هناك دائماً شيء لا ينسجم يا إرلندور. لا يمكنك موازنة كل الأعمدة. الحياة أشد تعقيداً من ذلك، كما ينبغي عليك أن تعرف من بين كل الناس. من أين يُفترَض بالمزارع امتلاك جهاز التجسس الروسي لإغراق الجثة في كلايفارفاتن؟».

«أجل، أعرف، لكن هذه قد تكون قضية أخرى؛ قضية منفصلة».

نظر ماريون إلى إرلندور. كان يدرك أن هذا ليس شيئاً جديداً على الإطلاق، إذ لطالما كان هناك محققون انغمسوا بشدة في قضايا يحققون فيها ومن ثم أصبحوا مهووسين بها تماماً. لقد حدث ذلك مراراً لماريون نفسه الذي كان يعرف أن إرلندور يميل للتأثر بقوة في القضايا الهامة. كانت لديه حساسية نادرة، وتلك كانت نعمته ولعنته في آن واحد.

قال إرلندور: «كنتَ تتحدث عن جون واين في ذلك اليوم؛ عندما شاهدنا الفيلم الغربي».

قال ماريون: «هل وجدته؟».

هز إرلندور برأسه دلالة على التأكيد. لقد سأل سيغوردور أولي الذي كان يعرف الكثير حول الثقافة الأميركية، وكان منجم معلومات حول المشاهير.

قال إرلندور: «كان اسمه ماريون أيضاً. صحيح؟ تملكان الاسم نفسه».

«هذا غريب، أليس كذلك؟ أقصد بسبب وضعي الحالي».

26

رحَّب بينيديكت جونسون، مستورد الآليات الزراعية المتقاعد، بإرلندور عند الباب ودعاه للدخول. كانت زيارة إرلندور قد أُرجئت قليلاً لأن بينيديكت كان يزور ابنته التي تعيش في كوبنهاجن وعاد منذ مدة قصيرة. قال إنه شعر حين كان في الدانمارك وكأنه في بلده تماماً.

كان إرلندور يهز برأسه بين الحين والآخر عندما كان بينيديكت يتحدث حول الدانمارك. كان قصير القامة، وذا أصابع صغيرة وسمينة، ووجه أحمر يوحي بأنه شخص مسالم. وكان أرملاً يعيش بمفرده في منزل صغير ومرتب. وكان واضحاً أنه ميسور الحال، فقد رأى إرلندور سيارة مرسيدس جيب جديدة خارج المرأب.

قال بينيديكت عندما انتهى أخيراً من الحديث عن الدانمارك: «كنتُ أعرف أنني سأجيب على أسئلة تتعلق بذلك الرجل في نهاية المطاف».

«أجل، أردتُ أن أتحدث حول ليوبولد».

«كان الأمر برمته شديد الغموض. لا بد أن شخصاً ما سيبدأ بالتساؤل في النهاية. كان ينبغي علي إخباركم بالحقيقة في ذلك الحين ولكن...».

«الحقيقة؟!».

قال بينيديكت: «أجل. هل يمكنني أن أسأل عن سبب استفسارك حول هذا الرجل الآن؟ قال ابني إنك استجوبته أيضاً. وعندما تحدثتُ معك عبر الهاتف كنتَ كتوماً إلى حد ما. ما هو سبب الاهتمام المفاجئ به؟ ظننتُ أنكم حققتم في القضية وكشفتم الحقيقة في حينه. في الواقع، كنت آمل ذلك».

أخبره إرلندور عن الهيكل العظمي المكتشف في بحيرة كلايفارفاتن، وأن ليوبولد كان واحداً من عدة أشخاص مفقودين يجري التحقيق في إمكانية ارتباطهم بالهيكل العظمي.

قال إرلندور: «هل كنتَ تعرفه شخصياً؟».

«شخصياً؟! لا، لا يمكنني أن أقول ذلك أبداً. ولم يكن يبيع الكثير أيضاً خلال المدة القصيرة التي عمل فيها لصالحنا. إن كنت أتذكر بشكل صحيح، كان يقوم بالكثير من الجولات خارج المدينة. جميع الباعة لدي كانوا يقومون بعمل مناطقي - كنا نبيع آليات زراعية وبلدوزرات – ولكن، لا أحد منهم كان يسافر مثل ليوبولد، ولا أحد منهم كان أسوأ منه كبائع».

قال إرلندور: «إذاً، هو لم يكن يعود عليك بأي أموال؟».

«لم أكن أريد توظيفه في البداية».

«حقاً!؟».

«أجل، لا، هذا ليس ما أقصده. لقد أجبروني، حقاً. اضطررت أن أطرد رجلاً جيداً كي أتيح المجال له. لم تكن شركة كبيرة قطّ».

«انتظرْ لحظة، قلْ ذلك مجدداً. من أرغمك على توظيفه؟».

«أخبروني أنه يجب علي عدم إخبار أحد بذلك... لا أعرف إذا كان ينبغي علي التحدث حول الأمر. فطالما انتابني شعور سيئ جداً حيال تلك السرية. أنا لست من النوع الذي يفعل أشياء من خلف ظهور الناس».

قال إرلندور: «حدث ذلك منذ عقود. من الصعب أن تؤذي أحداً ببوحك بما حصل الآن».

«لا، أعتقد ذلك. لقد هددوني بنقل وكالتهم إلى مكان آخر إن لم أوظف ذلك الرجل. كما لو أنني تورطت مع المافيا».

«من أرغمك على تشغيل ليوبولد؟».

«الشركة المصنِّعة في ألمانيا الشرقية، كما كانت حينئذ. كانوا يملكون جرارات جيدة وأرخص بكثير من الجرارات الأميركية. لقد بعنا الكثير منها رغم أنها لم تكن تُعتبَر ممتازة مثل ماسي فيرجسون أو كاتربيلر».

«هل كان لهم رأي في الكادر الذي توظفه؟».

قال بينيديكت: «ماذا كان يُفترَض بي أن أفعل؟ لم يكن باستطاعتي فعل أي شيء؟ بالطبع وظَّفتُه».

«هل أعطوك أي تفسير؟ هل أخبروك لماذا كان يجب عليك توظيف ذلك الشخص بالتحديد؟».

«لا. لا شيء. بدون أي تفسير. وظفته رغم أنني لم أكن أعرفه. قالوا إنه إجراء مؤقت كما أخبرتُك، لم يكن يتواجد في المدينة كثيراً، بل كان يقضي وقته متجولاً في أرجاء البلد».

«إجراء مؤقت؟».

«قالوا إنه لم يكن بحاجة للعمل معي لوقت طويل، ووضعوا شروطاً. كان يجب عليّ عدم وضعه في سجل الرواتب، وأن أدفع له راتبه كمتعاقد، تحت الطاولة. كان هذا صعباً للغاية. ومحاسبي كان يستفسر باستمرار حول هذا الأمر. لكن الأجر لم يكن كبيراً جداً، ولم يكن كافياً لتأمين معيشته، لا بد أنه كان يملك دخلاً آخر إضافة إليه».

«ما هو دافعهم برأيك؟».

«ليست لدي أي فكرة. وبعد ذلك اختفى ولم أسمع أي شيء آخر حوله، إلا منكم في الشرطة».

«ألم تبلِّغ أحداً بما أخبرتني إياه الآن عندما اختفى؟».

«لم أخبر أي شخص. لقد هددوني. كان يجب علي التفكير في عمّالي. كانت معيشتي تعتمد على تلك الشركة؛ رغم أنها لم تكن كبيرة، لكننا نجحنا في جني بعض الأموال، ومن ثم بدأت مشاريع الطاقة المائية. محطتا سيغالدا وبورفيل كانتا بحاجة لآلياتنا الزراعية الثقيلة حينئذ. جنينا ثروة من مشاريع الطاقة المائية. حدث ذلك في تلك الفترة تقريباً. كانت لدي أشياء أخرى أفكر فيها».

«إذاً، هل حاولتَ نسيان الأمر وحسب؟».

«صحيح. ولم أعتقد أن الأمر كان يخصني أيضاً. وظّفتُه لأن الشركة المصنِّعة أرادت مني ذلك، ولكن لم تكن لي أي علاقة به بحد ذاته».

«هل لديك أي فكرة عما يمكن أن يكون قد حدث له؟».

«لا، أبداً. كان يُفترَض به مقابلة أشخاص خارج موزفيلسباير لكنه لم يذهب إلى هناك؛ على حد علمنا. لعله صرف النظر عن الفكرة أو أجَّلها. هذا ليس أمراً مستبعَداً».

«ألا تظن أن المزارع الذي كان من المقرر أن يذهب للقائه كان يكذب؟».

«صدقاً لا أعرف».

«من الذي اتصل بك كي توظِّف ليوبولد؟ هل فعل ذلك بنفسه؟».

«لا، لم يكن هو. جاء إلي مسؤول من سفارتهم في آيجيسيدا. كانت ممثلية تجارية في الواقع، وليست سفارة حقيقية، تلك التي كانوا يديرونها في تلك الأيام. في ما بعد كبرت كثيراً. في الواقع، لقد قابلني في لايبزيغ».

«لايبزيغ!؟».

«أجل، كنا معتادين على الذهاب إلى هناك لحضور معارض تجارية سنوية. كانوا يقيمون معارض ضخمة للمنتجات والآليات الصناعية، وكانت مجموعة كبيرة إلى حد ما من الذين يتعاملون مع الألمان الشرقيين تحضرها دائماً».

«من كان ذلك الرجل الذي تحدث معك؟».

«لم يعرِّفني بنفسه مطلقاً».

«هل تعرف الاسم لوثر؟ لوثر وايزر. إنه ألماني شرقي».

«لم أسمع بالاسم مطلقاً. لوثر؟ لم أسمع به قط».

«هل يمكنك أن تصف مسؤول السفارة ذاك؟».

«حدث ذلك من زمن بعيد جداً. كان سميناً بعض الشيء، وشخصاً لطيفاً تماماً؛ بعيداً عن إرغامي على توظيف ذلك البائع».

«ألا تعتقد أنه كان ينبغي عليك نقل هذه المعلومة إلى الشرطة في ذلك الحين؟ ألا تعتقد أن هذه المعلومات كان من الممكن أن تكون مفيدة وهامة حينها؟».

تردد بينيديكت قليلاً، ثم رفع كتفيه وقال: «حاولت التصرف وكأن الأمر لم يكن يعنيني أو يعني شركتي. وأنا بصدق لم أعتقد أنه كان يعنيني. لم يكن الرجل واحداً من أفراد فريقي. حقاً، لم تكن له أي علاقة مع الشركة. وهم هددوني. ماذا كان يُفترَض بي أن أفعل؟».

«هل تذكر صديقته؟ صديقة ليوبولد؟».

فكَّر بينيديكت قليلاً ثم قال: «لا. لا، لا يمكنني قول ذلك. هل كانت...؟». لم يكمل جملته، كما لو أنه لم يكن يعرف ما يقوله حول امرأة فقدت الرجل الذي تحبه ولم تحصل على أي جواب يتعلق بمصيره.

قال إرلندور: «أجل، كانت مفطورة الفؤاد. ولا تزال».

كان ميروسلاف، الموظف السابق في السفارة التشيكية، يعيش في جنوب فرنسا. كان رجلاً مسنّاً، لكنه يتمتع بذاكرة جيدة. كان يتحدث اللغة الفرنسية، والإنكليزية أيضاً، وكان مستعداً للتحدث مع سيغوردور أولي عبر الهاتف. لقد لعب كوين من السفارة الأميركية - الذي أمَّن اتصالهم مع التشيكي - دور الوسيط في هذا الشأن. في الماضي، أُدين ميروسلاف بالتجسس على بلده، وأمضى في السجن عدة سنوات. لم يُعتبَر جاسوساً مثمراً أو هاماً نظراً إلى كونه قد أمضى معظم فترة عمله الدبلوماسي في آيسلندا. وهو أيضاً لم يكن يعتبر نفسه جاسوساً. قال إنه استسلم للإغراء عندما عُرض عليه المال لإبلاغ بعض الدبلوماسيين الأميركيين بأي تطورات غير عادية تحدث في سفارته أو سفارات دول الستار الحديدي الأخرى. لكنه لم يكن يملك ما يقوله لهم، إذ لم يحدث أي شيء في آيسلندا.

كان ذلك في منتصف الصيف. كان الهيكل العظمي في كلايفارفاتن قد سقط تماماً من دائرة الاهتمام في ذلك الحين. وكان قد مضى وقت طويل على آخر مرة ذُكر فيها في وسائل الإعلام. أما بالنسبة لطلب إرلندور المتعلق بالبحث عن رجل الفالكون في أرض الأخوين، فلم يكن الردُّ قد جاءه بعد لأن المسؤولين كانوا في إجازة.

أمضى سيغوردور أولي أسبوعين في إسبانيا مع بيرجثورا، وعاد مسفوعاً بالشمس وسعيداً. وتجوّلت إيلينبورغ في أرجاء آيسلندا مع تيدي، وأمضيا أسبوعين في شاليه أختها في الشمال. كان كتابها لا يزال يستحوذ على اهتمام كبير، حيث نقلت مجلة غالية الثمن، في عمودها أشخاص في خبر، عنها قولها إنها وضعت مسبقاً «واحداً آخر في الفرن».

وذات يوم في نهاية تموز، همست إيلينبورغ لإرلندور قائلةً إن سيغوردور أولي وبيرجثورا نجحا أخيراً.

فسألها إرلندور: «لماذا تهمسين؟».

«أخيراً». تنهَّدت إيلينبورغ بفرح. «أخبرتني بيرجثورا منذ قليل. إن الأمر لا يزال سراً».

قال إرلندور: «ما هو؟».

«بيرجثورا حامل! كان الأمر شاقاً جداً عليهما. لقد اضطرا لتجربة التخصيب في الأنبوب، وقد نجح الأمر أخيراً».

قال إرلندور: «هل سيصبح لسيغوردور أولي ولد؟».

«أجل، ولكن لا تتحدث في الأمر. إذ لا يُفترَض أن يعلم أحد بالأمر».

قال إرلندور بصوت عالٍ: «الولد المسكين». فمضت إيلينبورغ في طريقها وهي تتمتم بكلمات ساخطة غير مفهومة.

حصلت المحادثة الهاتفية مع ميروسلاف في مكتب سيغوردور أولي بوجود إرلندور وإيلينبورغ. كان الهاتف موصولاً بمسجلة. وفي الوقت المحدد، رفع سيغوردور أولي السمّاعة وطلب الرقم.

وبعد بضع رنّات، ردَّ عليه صوت أنثوي، فعرَّف سيغوردور أولي بنفسه وسأل عن ميروسلاف. طلبت منه أن ينتظر قليلاً. نظر سيغوردور أولي إلى إرلندور وإيلينبورغ ورفع كتفيه. وفي النهاية، جاء رجل وتحدّث عبر الهاتف وقال إن اسمه ميروسلاف، فعرَّف سيغوردور أولي بنفسه مرة ثانية قائلاً إنه محقق من ريكيافيك وعرض عليه طلبه. قال ميروسلاف على الفور إنه يعرف سبب طلبهم التحدث معه. لقد تحدث ببعض الآيسلندية أيضاً، رغم أنه طلب إجراء الحوار بالإنكليزية، قائلاً بلغة آيسلندية ضعيفة: «إن ذلك أفضل بالنسبة لي».

قال سيغوردور أولي بالإنكليزية: «أجل، صحيح. يتعلق الأمر بذلك الموظف في الممثلية التجارية الألمانية الشرقية في ريكيافيك في الستينيات».

«أعرف أنكم وجدتم جثة في بحيرة وتعتقدون أنه هو».

قال سيغوردور أولي: «لم نصل إلى نتيجة بعد». ثم أضاف بعد فترة

صمت وجيزة، «إنه مجرد احتمال من بين عدة احتمالات».

قال ميروسلاف: «هل تجدون كثيراً جثثاً مربوطة بأجهزة تجسس روسية؟». ثم ضحك. كان واضحاً أن كوين قد وضعه في الصورة. «لا، أعرف. أتفهَّم أنكم تريدون اللعب بطريقة آمنة وعدم قول الكثير، وبالتأكيد ليس عبر الهاتف. هل سأحصل على أي نقود لقاء معلوماتي؟».

قال سيغوردور أولي: «لسوء الحظ لا. ليس لدينا إذن بالتفاوض حول هذا الأمر. قيل لنا إنك ستكون متعاوناً».

قال ميروسلاف: «متعاون، صحيح». ثم أضاف بالآيسلندية: «لا فلوس؟».

أجابه سيغوردور أولي بالآيسلندية: «لا. بدون نقود».

خيَّم الصمت على الخط، فنظروا إلى بعضهم بعضاً وهم مجتمعون في مكتب سيغوردور أولي. انقضى بعض الوقت قبل أن يسمعوا صوت التشيكي ثانيةً. صاح بكلمات اعتقدوا أنها تشيكية فردَّ عليه صوت امرأة. كانت الأصوات شبه مكتومة وكأنه كان يضع يده على السمّاعة. لم يكونوا يعرفون إن كان جدالاً أم لا.

«لوثر وايزر كان أحد جواسيس ألمانيا الشرقية في آيسلندا». قال ميروسلاف هذه الكلمات فور معاودته التحدث عبر الهاتف، كما لو أن حواره مع المرأة حثَّه على فعل ذلك. «كان يتحدث الآيسلندية بشكل ممتاز، وقد تعلَّمها في موسكو. هل كنتم تعرفون ذلك؟».

«أجل، نعرف ذلك. ماذا كان يفعل هنا؟».

«كان يُدعى مُلحَقاً تجارياً. كلهم كانوا كذلك».

قال سيغوردور أولي: «ولكن، هل كان يفعل أي شيء آخر».

قال ميروسلاف: «لم يُوظَّف من قبل الممثلية التجارية. كان يعمل لصالح الخدمة السرية في ألمانيا الشرقية، وكان متخصصاً في تجنيد الناس للعمل لصالحه. وكان بارعاً في ذلك. كان يستخدم جميع أنواع الحيل، وكان موهوباً في استغلال نقاط الضعف. كان يبتز، وينصب الأفخاخ، ويستخدم العاهرات. كلهم كانوا يفعلون ذلك. وكان يلتقط صوراً مُوَرِّطة. هل تعلم ما أعنيه؟ كان واسع الخيال على نحو لا يُصدَّق».

«هل كان يملك، كيف ينبغي أن أقول ذلك، متعاونين في آيسلندا؟».

«ليس على حد علمي. لكن هذا لا يعني أنه لم يكن يملك أحداً».

أخذ إرلندور قلماً كان موجوداً على الطاولة، وبدأ بكتابة فكرة خطرت له.

قال سيغوردور أولي: «هل كان صديقاً لأي آيسلندي تتذكّره؟».

«لا أعلم الكثير عن صلته بالآيسلنديين. لم أكن على معرفة جيدة به».

«هل يمكنك أن تصف لنا لوثر بتفصيل أكبر؟».

قال ميروسلاف: «كل ما كان يهمّ لوثر هو نفسه. لم يكن يبالي بمن يخونه إن كان ذلك سيفيده. كان لديه الكثير من الأعداء، والكثير من الناس كانوا حتماً يريدونه ميتاً. هذا ما سمعته، على الأقل».

«هل كنت تعرف أي شخص كان يريده ميتاً؟».

«لا».

«ماذا بشأن الجهاز الروسي؟ من أين يمكن أن يكون قد أتى؟».

«من أي سفارة شيوعية في ريكيافيك. كلنا كنا نستخدم أجهزة روسية الصنع. كانوا يصنعونها، وكل السفارات كانت تستخدمها؛ أجهزة إرسال، ومسجِّلات، وأجهزة تنصت، وأجهزة راديو أيضاً، وتلفزيونات روسية فظيعة. كانوا يتخموننا بتلك القمامة، ونحن كنا مضطرين لشرائها».

قال سيغوردور أولي: «نعتقد أننا وجدنا جهاز تنصت استُخدم لمراقبة الجيش الأميركي في قاعدة كيفلافيك».

قال ميروسلاف: «هذا ما كنا نفعله عملياً. كنا نتنصَّت على السفارات الأخرى. والقوات الأميركية كانت منتشرة في مختلف أنحاء البلد. لكنني لا أريد التحدث عن ذلك. فهمت من كوين أنكم تريدون أن تعرفوا فقط عن اختفاء لوثر في ريكيافيك».

سلَّم إرلندور الملاحظة لسيغوردور أولي فقرأ الأخير السؤال الذي خطر في ذهنه مسبقاً: «هل تعرف لماذا أُرسل لوثر إلى آيسلندا؟».

«لماذا؟».

«علمنا أن التواجد هنا في آيسلندا لم يكن يروق لموظفي السفارات كثيراً».

قال ميروسلاف: «كان ذلك جيداً بالنسبة لنا نحن التشيكسلوفاكيين. لكنني لا أعلم إن كان لوثر قد فعل أي شيء ليستحق إرساله إلى آيسلندا كعقاب له؛ إذا كان هذا ما تقصده. أعلم أنه طُرد من النرويج ذات مرة. فقد اكتشف النرويجيون أنه كان يحاول حمل أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية للعمل لصالحه».

قال سيغوردور أولي: «ماذا تعلم عن اختفاء لوثر؟».

«آخر مرة رأيته فيها كانت في السفارة السوفييتية. حدث ذلك قبل أن نسمع تقارير حول اختفائه؛ في عام 1968. كانت أوقات سيئة بالطبع؛

بسبب ما كان يحدث في براغ. في قاعة الاستقبال، كان لوثر يتذكَّر الانتفاضة الهنغارية عام 1956. لم أسمع سوى القليل ممّا قاله، لكنني أذكر ذلك لأن ما كان يقوله كان خير وصف لطبيعته».

«ماذا كان يقول؟».

«كان يتحدث حول الهنغاريين الذين كان يعرفهم في لايبزيغ. وخاصة فتاة كان يرافقها مع طلاب آيسلنديين هناك».

قال سيغوردور أولي: «هل يمكنك أن تتذكر ما كان يقوله؟».

«قال إنه كان يعرف كيف يتعامل مع المنشقين؛ الثوار في تشيكسلوفاكيا. كان ينبغي القبض على الكثيرين منهم وإرسالهم إلى المعتقل. كان ثملاً عندما قال ذلك، ولا أعرف على وجه الدقة ما الذي كان يقصده بذلك، ولكن هذا هو الفحوى فقط».

قال سيغوردور أولي: «وبعد فترة قصيرة من هذه الحادثة سمعتَ أنه اختفى، أليس كذلك؟».

«لا بد أنه ارتكب خطأً ما. على الأقل، هذا ما ظنَّه الجميع. سرت إشاعات تقول إنهم قتلوه بأنفسهم؛ أقصد الألمان الشرقيين، وأرسلوه إلى الوطن في حقيبة دبلوماسية. كان بوسعهم فعل ذلك بسهولة. إذ لم يكن بريد السفارات يُفتَّش، وكان بوسعنا أخذ كل ما كنا نريده معنا من وإلى البلد. أكثر الأشياء التي لا يمكن تصديقها».

قال سيغوردور أولي: «أو ربّما رموه في البحيرة».

«كل ما أعرفه هو أنه اختفى ولم يُسمَع عنه شيء بعد ذلك».

«هل تعرف ما هي الجريمة التي يُفترَض أنه ارتكبها؟».

«اعتقدنا أنه انقلب».

«انقلب؟!».

«باع نفسه للطرف الآخر. كان هذا يحدث كثيراً. ما عليك إلا أن تنظر إلي. لكن الألمان لم يكونوا رحماء مثلنا نحن التشيك».

«أتقصد أنه كان يبيع معلومات -».

قاطعه ميروسلاف قائلاً: «هل أنت متأكد أنه ليس هناك نقود في هذا الأمر». عاد صوت المرأة حينئذ، وبشكل أعلى ممّا كان عليه من قبل.

قال سيغوردور أولي: «للأسف لا».

سمعوا ميروسلاف يقول شيئاً، ربما باللغة التشيكية. ثم قال بالإنكليزية: «قلت ما يكفي. لا تتصل بي ثانيةً». ثم أنهى الاتصال.

مدَّ إرلندور يده وأوقف التسجيل، ثم قال لسيغوردور أولي: «يا لك

من غبي! ألم يكن بوسعك أن تكذب عليه. عدْه بعشرة آلاف كرونر. أي شيء. ألم تكن تستطيع إبقاءه على الخط لمدة أطول؟».

قال سيغوردور أولي: «اهدأ. لم يكن يريد أن يقول المزيد. لم يعد يريد التحدث معنا. لقد سمعتَ ذلك».

قالت إيلينبورغ: «هل اقتربنا ولو قليلاً من معرفة هوية من كان قابعاً في قعر البحيرة؟».

قال إرلندور: «لا أعرف. ربّما ملحق تجاري ألماني شرقي وجهاز تنصت روسي. قد يكون هذا مناسباً».

قالت إيلينبورغ: «أعتقد أن الأمر واضح. كان لوثر وليوبولد شخصاً واحداً، وهم أغرقوه في البحيرة. لقد ارتكب خطأً ما فاضطروا للتخلص منه».

قال سيغوردور أولي: «والمرأة في محل منتجات الحليب؟».

قالت إيلينبورغ: «إنها لا تعرف شيئاً عن الرجل سوى أنه كان يعاملها جيداً».

قال إرلندور: «لعلها كانت جزءاً من غطائه في آيسلندا».

قالت إيلينبورغ: «ربما».

قال سيغوردور أولي: «لا بد باعتقادي أن يكون هناك مغزى لمسألة أن الجهاز لم يكن يعمل عندما استُخدم لإغراق الجثة. كأن يكون قد بَطُل استخدامه أو أُتلف».

قالت إيلينبورغ: «كنت أتساءل عمّا إذا كان الجهاز قد جاء بالضرورة من إحدى السفارات. وعمّا إذا كانت ثمة إمكانية لدخوله البلد عن طريق قناة أخرى».

قال سيغوردور أولي: «من كان يريد تهريب جهاز تجسس روسي إلى آيسلندا؟».

سكتوا ثلاثتهم، وراحوا يفكرون، كلٌّ بطريقته الخاصة، في أن القضية كانت تفوق قدرتهم على الفهم. كانوا معتادين على التعامل مع جرائم آيسلندية بسيطة بدون أجهزة غامضة أو ملحقين تجاريين لم يكونوا ملحقين تجاريين، وبدون سفارات أجنبية، وبعيداً عن الحرب الباردة. وإنما مجرد واقع آيسلندي محلي، وعادي، وبعيد كل البعد عن مناطق الصراع في العالم.

سألهما إرلندور في النهاية، لمجرد قول شيء ما: «ألا يمكننا أن نجد زاوية آيسلندية في هذه القضية؟».

قالت إيلينبورغ: «ماذا بشأن الطلاب؟ ألا ينبغي علينا أن نحاول

إيجادهم؟ وأن نكتشف إن كان أحدهم يعرف لوثر هذا؟ ما زال لدينا هذا الأمر لنتحقق منه».

في اليوم التالي، حصل سيغوردور أولي على لائحة بأسماء الطلاب الآيسلنديين الذين درسوا في الجامعات الألمانية الشرقية بين نهاية الحرب والعام 1970. قُدِّمت المعلومات من قبل وزارة التعليم الآيسلندية والسفارة الألمانية. بدأوا بالطلاب الذين درسوا في لايبزيغ في الستينيات. وبما أنهم لم يكونوا مستعجلين، فقد عالجوا القضية إلى جانب تحقيقات أخرى كانت تأتي في طريقهم؛ معظمها سرقات ومحاولات سرقة. كانوا يعرفون أن لوثر انتسب إلى جامعة لايبزيغ في الخمسينيات، لكنه ربما ظل مرتبطاً بها لمدة أطول بكثير من ذلك. ولهذا قرروا العمل بشكل عكسي؛ بدءاً من تاريخ اختفائه من السفارة.

بدلاً من الاتصال بالناس والتحدث معهم عبر الهاتف، فكَّروا في القيام بزيارات مفاجئة إلى منازلهم، لأن ذلك قد يكون أكثر فائدةً. كان إرلندور يثق بأن رد الفعل الأول على زيارة الشرطة يقدِّم في الغالب أدلة جوهرية؛ كما في الحرب، الهجوم المفاجئ يمكن أن يكون حاسماً. إذ إن تغييراً بسيطاً في الملامح عندما يذكرون غرضهم لأول مرة قد يكون كافياً، أو الكلمات الأولى التي تُقال.

وهكذا، ذات يوم في أيلول، عندما وصل تحقيقهم بخصوص الطلاب الآيسلنديين إلى منتصف الخمسينيات، طرق سيغوردور أولي وإيلينبورغ على باب امرأة تُدعى روت بيرنهاردس. وفقاً لمعلوماتهما، لقد تركت دراستها في لايبزيغ بعد سنة ونصف.

فتحت الباب وارتعبت لدى سماعها أنهما من الشرطة.

27

وقفت روت بيرنهاردس وهي تنظر بعينين رامشتين إلى سيغوردور أولي ثم إيلينبورغ، غير قادرة على فهم سبب كونهما من الشرطة. اضطر سيغوردور أولي لقول ذلك لها ثلاث مرات قبل أن تفهم أخيراً، ثم سألتهما عما يريدانه فشرحت لها إيلينبورغ الأمر. كان ذلك حوالى الساعة العاشرة صباحاً. وكانا يقفان قرب السلم في مبنى سكني ليس مختلفاً عن مبنى إرلندور لكنه أكثر قذارةً، والسجاد أشد اهتراءً، مع رائحة رطوبة تنبعث من كل طابق.

اندهشت روت أكثر عندما ذكرت إيلينبورغ سبب زيارتهما، حيث قالت: «طلاب في لايبزيغ! ماذا تريدان أن تعرفا عنهم؟ ولماذا؟».

قالت إيلينبورغ: «هل يمكننا أن ندخل لدقيقة. لن نبقى طويلاً».

فكَّرت روت لوهلة قبل أن تفتح لهما الباب. دخلا إلى رواق صغير يُفضي إلى غرفة الجلوس. كانت غرف النوم تقع على الجانب الأيمن، وكان المطبخ بجانب غرفة الجلوس. طلبت منهما روت الجلوس، وسألتهما إن كانا يريدان شاياً أو غير ذلك، معتذرةً منهما عن ارتباكها لأنها لم تتحدث مع الشرطة مسبقاً من قبل. لاحظا أنها كانت مرتبكة جداً عندما كانت واقفة بجانب باب المطبخ، واعتقدت إيلينبورغ أنها قد تستعيد توازنها إذا أعدّت الشاي، فقبلت عرضها؛ الأمر الذي أثار استياء سيغوردور أولي الذي لم يكن مهتماً بحضور حفلة شاي، فرمق إيلينبورغ بنظرة تدل على استيائه، لكنها ردَّت عليه بابتسامة.

في اليوم السابق، تلقى سيغوردور أولي اتصالاً آخر من الرجل الذي فقد زوجته وابنته في حادثة السيارة؛ بعد عودته وبيرجثورا بقليل من زيارة إلى الطبيب الذي أخبرهما أن الحمل يتطور بشكل ممتاز، والجنين ينمو، وليس هناك ما يدعو للقلق. لكن كلماته لم تطمئنهما لأنهما سمعاه يتحدث بهذه الطريقة من قبل. كانا جالسين في المطبخ يناقشان المستقبل بحذر، عندما رن جرس الهاتف.

حالما سمع سيغوردور أولي صوت الرجل على الطرف الآخر من الخط قال: «لا يمكنني أن أتحدث معك الآن».

فقال الرجل بتهذيبه المعتاد: «لم أقصد إزعاجك». لم يتغير مزاجه مطلقاً، ولا نبرة صوته، إذ كان يتحدث بالنبرة الهادئة نفسها؛ الأمر الذي عزاه سيغوردور أولي إلى المهدِّئات.

قال سيغوردور أولي: «لا. لا تزعجني ثانيةً».
قال الرجل: «أردت فقط أن أشكرك».
«لا حاجة لذلك، لم أفعل شيئاً. لست بحاجة لشكري على الإطلاق».
«أعتقد أنني أتجاوز الأمر تدريجياً».
«هذا جيد».
سكت الرجل لبرهة ثم قال: «أنا أفتقدها بشدة».
قال سيغوردور أولي وهو ينظر إلى بيرجثورا: «بالطبع أنت تفتقدها».
«لن أستسلم. من أجلهما. سأحاول أن أكون شجاعاً».
«هذا أمر جيد».
«آسف لإزعاجك. لا أعرف لماذا أتصل بك دائماً. ستكون هذه هي المرة الأخيرة».
«ليست مشكلة».
«يجب علي أن أواصل طريقي».
كان سيغوردور أولي على وشك أن يقول وداعاً عندما أنهى الرجل الاتصال فجأة.
سألته بيرجثورا: «هل هو بخير؟».
«لا أعرف. أرجو ذلك».

أصغى سيغوردور أولي وإيلينبورغ لأصوات تحركات روت بينما كانت تعد الشاي في المطبخ قبل أن تعود حاملةً الفناجين وعلبة سكر، وتسألهما إن كانا يتناولان الحليب مع الشاي. كررت إيلينبورغ ما قالته عند الباب بخصوص بحثهم عن طلاب آيسلنديين من لايبزيغ، مضيفةً أن ذلك يُحتمَل أن يكون مرتبطاً - يُحتمَل فقط، قالت مؤكدةً - بشخص فُقد في ريكيافيك قبل عام 1970 بقليل.

استمعت روت إليها من دون أن تُجيب، إلى أن بدأ الإبريق يصفر في المطبخ، فغادرت ثم عادت مع الشاي وبضع بسكويتات في طبق. كانت إيلينبورغ تعرف أنها تجاوزت السبعين من العمر، ففكرت في سرّها أن شيخوختها ممتازة. كانت نحيلة، وتوازيها من حيث الطول، وشعرها مصبوغ باللون البني، ووجهها طويل مع ملامح جدية تؤكدها التجاعيد، ولكن مع ابتسامة جميلة بدا لها أنها كانت تستخدمها باقتصاد.

«وأنتما تعتقدان أن هذا الرجل قد درس في لايبزيغ؟».
قال سيغوردور أولي: «ليست لدينا أي فكرة».

قالت روت: «عن أي شخص مفقود تتحدثان؟ لا أتذكر أي شيء من الأخبار حول...» وتحوَّلت ملامحها إلى التفكُّر، ثم أضافت: «باستثناء كلايفارفاتن في الربيع. هل تتحدثان عن الهيكل العظمي من كلايفارفاتن؟».

قالت إيلينبورغ مبتسمةً: «تماماً».

«هل هو مرتبط بلايبزيغ؟».

قال سيغوردور أولي: «لا نعرف».

قالت روت بصرامة: «ولكن، لا بد أنكما تعرفان شيئاً ما طالما أنكما جئتما إلى هنا للتحدث مع طالبة سابقة من لايبزيغ».

قالت إيلينبورغ: «لدينا بعض الأدلة، لكنها ليست مقنعة بما يكفي للتحدث عنها كثيراً، وكنا نأمل أن تكوني قادرة على مساعدتنا».

«كيف يرتبط هذا الأمر بلايبزيغ؟».

قال سيغوردور أولي بصوت أكثر حدةً بقليل من السابق: «لا ينبغي أن يكون الرجل على صلة بلايبزيغ مطلقاً». ثم أضاف كي يغيِّر الموضوع: «لقد تركتِ الجامعة بعد عام ونصف. ألم تنهي دراستك، أم ماذا؟».

من دون أن تجيبه، صبَّت الشاي، وأضافت الحليب إلى كوبها، ثم حرَّكته بملعقة صغيرة. كانت أفكارها تسرح في مكان آخر.

ثم قالت: «هل كان رجلاً ذاك الذي وجدتموه في البحيرة؟ فقد قلتَ الرجل».

قال سيغوردور أولي: «أجل».

قالت إيلينبورغ: «أعرف أنك مدرِّسة».

«ذهبت إلى كلية لتدريب المعلِّمين عندما عدت إلى آيسلندا. كان زوجي معلِّماً أيضاً. كلانا معلمان للمرحلة الابتدائية. لكننا تطلَّقنا منذ مدة قصيرة. لقد توقفت عن التعليم الآن. أنا متقاعدة. لم يعودوا بحاجة إلي. إن الأمر يشبه التوقف عن العيش عندما تتوقفين عن العمل».

رشفت من كوبها وفعل سيغوردور أولي وإيلينبورغ مثلها.

ثم أضافت: «احتفظْتُ بالشقة».

قالت إيلينبورغ: «إنه لأمر محزن دائماً عندما...».

فقاطعتها روت وكأنها لم تكن تطلب تعاطفاً من شخص غريب، قائلةً: «كلنا كنا اشتراكيين». ونظرت إلى سيغوردور أولي، «كلنا في لايبزيغ».

صمتت قليلاً بينما كانت أفكارها تعود بها إلى تلك السنوات عندما كانت شابة وتنتظرها حياة بأكملها، ثم قالت: «كانت لدينا مبادئ». نقلت نظرها إلى إيلينبورغ. «لا أعرف إذا كان هناك من لا يزال يملكها الآن.

أقصد الشبّان. مبادئ حقيقية من أجل مجتمع أفضل وأكثر عدلاً. لا أظن أن أحداً يفكر في هذه الأمور الآن. في هذه الأيام، الجميع يفكرون في الثراء فقط. لم نكن نفكر في جمع المال أو امتلاك أي شيء. ولم تكن توجد هذه النزعة التجارية في ذلك الزمن. لم يكن ثمة أحد يملك أي شيء؛ ربما باستثناء مبادئ جميلة».

قال سيغوردور أولي: «مبنية على أكاذيب. أليس كذلك؟ إلى حد ما؟».

قالت روت: «لا أعرف. مبنية على أكاذيب؟! أي كذبة؟».

قال سيغوردور أولي بنبرة عدائية: «لا، أقصد أن الشيوعية هُجرت في مختلف أنحاء العالم باستثناء أماكن تُرتكَب فيها انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان مثل الصين وكوبا. لم يعد هناك أحد تقريباً يعترف بأنه كان شيوعياً في الماضي. إنه مصطلح سيئ إلى حد ما. ألم يكن الوضع يشبه ذلك في الماضي، أم ماذا؟».

حدَّقت إيلينبورغ فيه مصدومة. لم تكن تصدق أن سيغوردور أولي يتصرف بوقاحة مع المرأة. كانت تعرف أنه صوَّت للمحافظين، وسمعته في بعض الأحيان يتحدث حول الشيوعيين الآيسلنديين كما لو أنه كان يتوجَّب عليهم القيام بشيء ما للتكفير عن ذنبهم المتمثل في الدفاع عن نظام كانوا يعلمون أنه عديم النفع ولم يقدم في النهاية شيئاً سوى الديكتاتورية والقمع، وكأن الشيوعيين كانوا لا يزالون بحاجة لتسوية حساباتهم مع الماضي؛ لأنه كان ينبغي عليهم معرفة الحقيقة منذ وقت طويل، ولأنهم كانوا مسؤولين عن الأكاذيب. ولعله وجد روت هدفاً سهلاً، أو لعله فَقَدَ صبره.

راغبةً بقيادة الحوار إلى مياه أكثر سلامةً، سارعت إيلينبورغ إلى القول: «اضطررتِ إلى ترك دراستك».

قالت روت التي كانت لا تزال تحدق في سيغوردور أولي: «بالنسبة لطريقة تفكيرنا، لم يكن هناك شيء أكثر نُبْلاً. ولم يتغيَّر هذا. الاشتراكية التي كنا نثق بها في ذلك الحين وما زلنا كذلك حتى الآن تبقى هي ذاتها، وقد لعبت دوراً في تأسيس الحركة العمالية، وضمان أجور معيشة محترمة، ومستشفيات مجانية للعناية بك وبعائلتك، وعلَّمتك لتصبح ضابطاً في الشرطة، وأنشأت نظام التأمين الوطني، وأنشأت نظام الرعاية الاجتماعية. لكن هذا لا شيء بالمقارنة مع القيم الاشتراكية الضمنية التي نعيش كلنا عليها، أنا وأنت وهي، كي يتمكن المجتمع من القيام بوظيفته. إن الاشتراكية هي التي تجعلنا بشراً. لذا لا تسخر مني!».

قال سيغوردور أولي بعناد: «هل أنت واثقة بأن الاشتراكية هي التي أسست كل ذلك؟ على ما أذكر، إن المحافظين هم الذين أسسوا نظام التأمين الوطني».

قالت روت: «هراء».

قال سيغوردور أولي: «والنظام السوفييتي، ماذا عن تلك الكذبة؟».

قالت روت: «لماذا تعتقد أنك تملك حساباً لتسوّيه معي؟».

أجاب سيغوردور أولي: «لا أملك حساباً أسوّيه معك».

قالت روت: «ربما كان الناس يعتقدون أنهم كانوا مضطرين لأن يكونوا عقائديين. وربما كان الأمر ضرورياً آنذاك. لا يمكنك أن تفهم ذلك أبداً. تأتي أزمنة مختلفة وتتغير المواقف ويتغير الناس. لا شيء دائم. لا يمكنني أن أفهم هذا الغضب. من أين يأتي؟».

نظرت إلى سيغوردور أولي وكررت سؤالها: «من أين يأتي هذا الغضب؟».

قال سيغوردور أولي: «لم آتِ إلى هنا للجدال. لم يكن هذا هو الهدف».

قالت إيلينبورغ بارتباك: «هل تتذكرين شخصاً من لايبزيغ يُدعى لوثر؟». أملت إيلينبورغ أن يخترع سيغوردور أولي عذراً للخروج إلى السيارة، لكنه ظل جالساً بجانبها مثبّتاً عينيه على روت. ثم أضافت: «لوثر وايزر».

قالت روت: «لوثر، أجل، ولكن ليس جيداً. كان يتحدث الآيسلندية».

قالت إيلينبورغ: «علمت بذلك. إذاً، أنت تتذكرينه؟».

«بصورة غامضة فقط. كان يأتي لتناول العشاء معنا أحياناً في المهجع. لكنني لم أعرفه بشكل خاص. كنت دائماً أشعر بالحنين للوطن... والظروف لم تكن مميزة، والسكن سيئ و... أنا... لم يناسبني الوضع».

قالت إيلينبورغ: «لا، من الواضح أن الأوضاع لم تكن جيدة بعد الحرب».

قالت روت: «كان الوضع فظيعاً. كانت ألمانيا الغربية تتطور من جديد بسرعة أكبر بعشر مرات، مع دعم الغرب لها. أما في ألمانيا الشرقية فالأمور كانت تسير ببطء؛ إن كانت تسير أساساً».

قال سيغوردور أولي: «فهمنا أن دوره تمثَّل في دفع الطلاب للعمل لصالحه، أو مراقبتهم بطريقة ما. هل كنت مدركةً لذلك؟».

قالت روت: «كانوا يراقبوننا. كنا نعرف ذلك، وكل الآخرين كانوا يعرفون ذلك. كانت تُدعى مراقبة تفاعلية، وهذا مصطلح آخر للتجسس.

كان يُفترَض بالناس أن يأتوا من تلقاء أنفسهم ويبلِّغوا عن أي شيء يسيء إلى مبادئهم الاشتراكية. نحن لم نكن نفعل هذا الشيء بالطبع. لا أحد منا فعل ذلك. لم ألاحظ مطلقاً أن لوثر كان يحاول تجنيدنا. جميع الطلاب الأجانب كانوا يملكون راعياً يمكنهم اللجوء إليه، لكنه كان يراقبهم أيضاً. كان لوثر واحداً منهم».

قالت إيلينبورغ: «هل ما زلت تتواصلين مع أصدقائك الطلاب من لايبزيغ؟».

قالت روت: «لا. مرَّ وقت طويل على آخر مرة رأيت فيها أحدهم. نحن لا نتواصل، وإذا كانوا هم يفعلون، فليس لي علم بذلك. تركت الحزب عندما عدت إلى هنا، أو ربما لم أترك، بل فقدت الاهتمام. هذا يُدعى انسحاباً ربما».

قالت إيلينبورغ: «لدينا أسماء بعض الطلاب الآخرين من الفترة نفسها التي كنتِ فيها هناك: كارل، هرافنهيلدر، إميل، توماس، هانز...».

قاطعتها روت قائلةً: «هانز طُرد. قيل لي إنه توقف عن الذهاب إلى المحاضرات واستعراضات احتفال الجمهورية، ولم ينسجم مع الوضع بشكل عام. كان يُفترَض بنا الاشتراك في كل تلك الأشياء، وكنا نقوم بعمل اشتراكي في الصيف؛ في المزارع وفي مناجم الفحم. وكما فهمت، لم يعجب هانز بما رآه وسمعه. كان يريد إنهاء دراسته لكنهم لم يسمحوا له بذلك. ربما ينبغي عليكما التحدث معه؛ إن كان لا يزال حياً، لا أعلم».

نظرت إليهما وقالت: «هل هو الذي وجدتموه في البحيرة؟».

قالت إيلينبورغ: «ليس هو. عرفنا أنه يعيش في سيلفوس، ويدير نزلاً صغيراً».

«أتذكر أنه كتب حول تجاربه في لايبزيغ عندما عاد إلى آيسلندا فمزقوه إرباً بسبب ذلك. أقصد الحرس القديم للحزب. اعتبروه خائناً وكذاباً، في حين رحَّب المحافظون به كابن ضال عاد عن ضلاله وجعلوا منه بطلاً. لا يمكنني أن أتصور أنه كان يكترث لكل هذا. أعتقد أنه كان فقط يريد أن يخبرهم بالحقيقة كما شاهدها، ولكن بالطبع هناك ثمن سيُدفَع. قابلته مرةً بعد بضع سنوات، وكان يبدو مكتئباً للغاية. لعله ظن أنني كنت لا أزال نشطة في الحزب. ينبغي عليكما التحدث معه. لربما كان يعرف لوثر على نحو أفضل. بقيت هناك لفترة قصيرة جداً».

عندما عادا إلى السيارة، وبَّخت إيلينبورغ سيغوردور أولي للسماح لآرائه السياسية بالتأثير على تحقيق خاص بالشرطة. كان ينبغي عليه الحفاظ

على فمه مغلقاً وعدم مهاجمة الناس - حسب تعبيرها - وبخاصة النساء المسنات اللواتي يعشن بمفردهن.

قالت له عندما انطلقا بالسيارة: «ما خطبك، على أي حال؟ لم أسمع قطّ مثل هذا الهراء. بماذا كنت تفكر؟ أوافق معها عندما سألَتْك: من أين يأتي كل هذا الغضب؟».

قال سيغوردور أولي: «أوه، لا أعرف». سكت قليلاً ثم أضاف: «كان أبي شيوعياً، ولم يغيِّر قناعاته مطلقاً». كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمعه فيها إيلينبورغ يأتي على ذكر أبيه.

كان إرلندور قد عاد لتوه إلى المنزل عندما رن جرس الهاتف. تطلَّب منه الأمر بضع لحظات ليدرك من يكون بينيديكت الذي يتصل به، ثم تذكَّر فجأة. إنه الرجل الذي منح ليوبولد عملاً في شركته.

قال بينيديكت بتهذيب: «هل أزعجك باتصالي بك في المنزل؟».

قال إرلندور: «لا، هل ثمة شيء ما؟».

قال بينيديكت: «إنه يتعلق بذلك الرجل».

«أي رجل؟».

قال بينيديكت: «من السفارة الألمانية الشرقية أو الممثلية التجارية أو مهما كان اسمها. الشخص الذي طلب مني توظيف ليوبولد وقال إن الشركة في ألمانيا ستتخذ إجراءات إن لم أفعل ذلك».

قال إرلندور: «أجل، الرجل السمين. ماذا عنه؟».

قال بينيديكت: «حسبما أذكر، كان يعرف اللغة الآيسلندية. في الحقيقة، أعتقد أنه كان يتحدث بها بشكل ممتاز».

28

لم يجد إلا الكره واللامبالاة المطلقين من جانب السلطات في لايبزيغ في جميع الأمكنة التي قصدها. لم يخبره أحد عمّا حصل لها، وإلى أين أُخذت، وفي أي مكان تُحتجَز، وما هو سبب اعتقالها، وأي قسم من الشرطة كان مسؤولاً عن قضيتها. حاول طلب مساعدة اثنين من أساتذته في الجامعة، ولكن لم يكن بمقدورهما فعل أي شيء. وحاول حثَّ نائب رئيس الجامعة على التدخُّل فرفض. وطلب من رئيس منظمة شباب ألمانيا الحر أن يستفسر عما حصل لكن منظمة الطلاب تجاهلته.

وفي النهاية، اتصل بوزارة الخارجية في آيسلندا التي وعدت بالاستعلام عن المسألة. ولكن لم ينتج عن ذلك شيء؛ إذ لم تكن إيلونا مواطنة آيسلندية، ولم يكونا متزوجين، ولم تكن لآيسلندا أي مصلحة في الموضوع، ولم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع ألمانيا الشرقية. حاول أصدقاؤه الآيسلنديون في الجامعة مساعدته، ولكن لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء، ولم يكونوا يفهمون ما حدث. لعل الأمر كان سوء تفاهم. لا بد أنها ستعود عاجلاً أم آجلاً وسيتوضّح كل شيء. والأمر ذاته قاله أصدقاء إيلونا والهنغاريون الآخرون في الجامعة الذين لم يكونوا أقل إصراراً منه على إيجاد أجوبة. كلهم حاولوا مواساته، وطلبوا منه الحفاظ على هدوئه لأن الحقيقة ستظهر في نهاية المطاف.

اكتشف أن إيلونا لم تكن الوحيدة التي اعتُقلت في ذلك اليوم، فقد اقتحمت شرطة الأمن حرم الجامعة وأخذت بعض الطلاب، وكان من بينهم أصدقاؤها في الاجتماعات. كان يعلم أنها حذَّرتهم بعد اكتشافه أنهم كانوا مراقبين، وأن الشرطة كانت تملك صوراً لهم. أُطلق سراح بضعة أشخاص في اليوم نفسه، وبقي آخرون محتجزين لمدة أطول، في حين كان البعض الآخر لا يزال في السجن عندما رُحِّل توماس. ولم يسمع أحد منهم أي شيء عن إيلونا.

اتصل بوالدي إيلونا اللذين سمعا باعتقالها، وكتبا له رسائل مؤثرة يسألانه فيها عمّا إذا كان يعرف شيئاً عن مكانها. كل ما كانا يعرفانه هو أنها لم تُرسَل إلى هنغاريا. لم يصل إليهما أي شيء منها منذ أن كتبت إليهما قبل أسبوع من اختفائها، ولم يكن في رسالتها ما يوحي بأنها كانت في خطر. وصفا له جهودهما العبثية لإقناع السلطات الهنغارية بالتحقيق في مصير ابنتهما في ألمانيا الشرقية. غير أن السلطات لم تكن منزعجة تماماً من

مسألة اختفائها. أخبراه أنه لم يُسمَح لهما بالسفر إلى ألمانيا الشرقية للاستعلام عن اختفاء إيلونا. كان لسان حالهما يقول إنهما وصلا إلى نهاية مسدودة.

ردَّ عليهما توماس برسالة قال فيها إنه كان يبحث بنفسه عن أجوبة في لايبزيغ. كان يود إخبارهما بما كان يعرفه؛ كيف أنها كانت تقوم بحملة دعائية سرية ضد الحزب الشيوعي، وضد المنظمة الطلابية «شباب ألمانيا الحر» التي كانت إحدى أذرع الحزب، وضد المحاضرات وضد القيود على حرية الكلام والاجتماع والصحافة. وأنها كانت تعبئ شباناً ألماناً وتنظِّم اجتماعات سرية. وأنها - مثله -لم تكن تتوقع أن تُعتقَل. لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع كتابة هذا النوع من الرسائل؛ لأن كل ما سيرسله سيكون مراقَباً.

لذا، بدلاً من ذلك قال إنه لن يرتاح حتى يكتشف ما حدث لإيلونا ويضمن إطلاق سراحها.

في تلك الأثناء، توقف عن حضور المحاضرات. وخلال النهار، كان يذهب من مكتب حكومي إلى آخر، ويطلب مقابلة المسؤولين باحثاً عن المساعدة والمعلومات. ومع مرور الوقت، أصبح يفعل ذلك على سبيل الاعتياد؛ لأنه لم يحصل على أي أجوبة، وبات مدركاً أنه لن يحصل عليها أبداً. وفي الليل، كان يذرع أرض غرفتهما الصغيرة والحزن يعتصر قلبه. كان ينام بشق النفس، حيث كان يغفو بضع ساعات في كل مرة. كان يصحو على أي صوت يصدر من الشارع. وإن اقتربت سيارة كان يذهب إلى النافذة ليرى إن كانت ستنزل منها. وإن أصدر المنزل صريراً ما، كان يصغي السمع معتقداً أنها ربما تكون هي. ومن ثم يأتي يوم جديد من دون أن يحمل أي جديد.

وفي النهاية، استجمع شجاعته، وكتب رسالة جديدة لوالدي إيلونا أخبرهما فيها أنها كانت حاملاً منه. أحسَّ كما لو أنه كان قادراً على سماع بكائهما مع كل مفتاح ينقره على آلتها الكاتبة القديمة.

وهكذا، بعد كل تلك السنين، جلس حاملاً رسائلهما في يديه وأعاد قراءتها، وأحسَّ مجدداً بالغضب واليأس وعدم الفهم في كل كلمة كتباها. لم يريا ابنتهما ثانيةً، وهو لم يرَ حبيبته ثانيةً.

لقد اختفت إيلونا وأُخذت منهم مرة واحدة وإلى الأبد.

أخرج تنهيدة عميقة من صدره بعد سماحه لنفسه بالتوغُّل في

ذكرياته المؤلمة. لم يضعف ألمه أو شعوره بفقدانها رغم كل السنين التي انقضت. لكنه بات يتجنَّب تخيُّل مصيرها. في السابق، كان يعذِّب نفسه إلى ما لا نهاية بأفكار تتعلق بما يمكن أن يكون قد حصل لها بعد اعتقالها. كان يتصوَّر الاستجوابات، والزنزانة المقابلة للمكتب الصغير في مقر شرطة الأمن. وكان يتساءل: هل احتُجزت هناك؟ كم بقيت؟ هل كانت خائفة؟ هل قاومت؟ هل كانت تبكي؟ هل كانت تُضرَب؟ وبالطبع، السؤال الأكبر: ما المصير الذي لقيته؟

ظلت هذه الأسئلة هاجساً لديه لسنوات طويلة. كيف لا ولم يكن في حياته حيِّز لشيء آخر سواها؟ فهو لم يتزوج ولم ينجب أطفالاً. حاول البقاء في لايبزيغ لأطول مدة ممكنة، لكن منْحته سُحبت منه بعد أن توقف عن الذهاب إلى محاضراته؛ فضلاً عن تحدّيه للشرطة والمنظمة الطلابية. حاول إقناع المسؤولين عن الصحيفة الطلابية والصحافة المحلية بنشر صورة إيلونا مع تقرير يتحدث عن اعتقالها غير القانوني، لكن جميع مطالبه رُفضت، وفي النهاية طُلبت منه مغادرة البلد.

كانت هناك احتمالات متنوعة؛ استناداً إلى ما قرأه لاحقاً عندما استقصى حول معاملة المعارضين في بلدان أوروبا الشرقية في ذلك الزمن. ربما تكون قد ماتت على أيدي الشرطة في لايبزيغ أو برلين الشرقية؛ حيث يقع المقر الرئيس لشرطة الأمن، أو ربّما أُرسلت إلى سجن ما كي تموت فيه؛ مثل قلعة هونيكر، وهي أكبر سجن نسائي للسجناء السياسيين في ألمانيا الشرقية، أو سجن باوتزن الثاني سيئ السمعة الذي كان يُلقَّب «بالبؤس الأصفر» بسبب لون جدرانه. لم يكن يُرسَل إلى مثل ذينك السجنين إلا المذنبون بارتكاب «جرائم ضد الدولة». كان العديد من المعارضين يُطلَق سراحهم بعد مدة وجيزة من اعتقالهم الأول؛ حيث كان ذلك يُعتبَر بمثابة تحذير لهم. وكان بعضهم يُحتجزون بدون محاكمة لمدة قصيرة ثم يُطلَق سراحهم، في حين كان آخرون يُمضون في السجن قبل تحريرهم، إضافة إلى بعض المعارضين الذي لم يخرجوا مطلقاً. لم يتلقَّ والدا إيلونا أي تبليغ بموتها طيلة سنوات، وظلاّ يعيشان على أمل أنها ستعود، لكن هذا لم يحصل مطلقاً. فرغم كل مناشداتهما للسلطات في هنغاريا لم يحصلا على أي معلومة، ولم يعرفا إن كانت لا تزال حية أم لا. كان الأمر ببساطة يبدو كما لو أنها لم تتواجد في هذه الدنيا قطّ.

بصفته أجنبياً في بلد لم يكن يعرفه جيداً ولا يفهمه، كانت لديه بضعة مصادر للمساعدة فقط. كان يدرك تماماً أنه لم يكن يستطيع فعل

الكثير ضد قوة الدولة، ومع ذلك رفض الاستسلام. رفض القبول بأن شخصاً مثل إيلونا يمكن أن يُعتقَل لامتلاكه آراء لم تكن تتطابق مع السياسة الرسمية.

سأل توماس كارل مراراً وتكراراً عما حدث عندما اعتُقلت إيلونا، وذلك لأنه كان الشاهد الوحيد على اقتحام الشرطة لغرفتهما. إذ كان قد ذهب إلى هناك ليجلب مخطوطة قصائد لمعارض هنغاري شاب ترجمتها إيلونا إلى الألمانية وكانت ستعيره إياها.

«وبعد ذلك ماذا حصل؟». سأل توماس كارل للمرة الألف بينما كان جالساً قبالته في مقهى الجامعة برفقة إميل. كانت قد مضت ثلاثة أيام على اختفاء إيلونا، وكان لا يزال لديه أمل بإمكانية إطلاق سراحها. كان يتوقع أن يسمع شيئاً ما عنها في أي دقيقة، أو حتى أن يراها تدخل المقهى كعادتها، ولهذا السبب كان يلقي نظرة سريعة على الباب كل بضع ثوان.

قال كارل: «عرضت علي شرب الشاي فقلت أجل وذهبت لتغلي الماء».

«عم تحدثتما؟».

«لا شيء فعلياً، فقط عن الكتب التي كنا نقرأها».

«ماذا قالت؟».

«لا شيء. كان مجرد حوار فارغ. لم نتحدث عن أي شيء مميز. لم نكن نعلم أنها ستُعتقَل بعد لحظة» - كان كارل يدرك تماماً كم كان توماس يعاني - «إيلونا صديقتنا جميعاً. أنا لا أفهم الأمر. لا أفهم ماذا يجري».

«ثم ماذا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟».

«سمعنا طرقاً على الباب».

«أجل».

«باب الشقة. كنا في غرفتها، أقصد في غرفتكما. طرقوا على الباب بشدة، وصرخوا بكلمات لم نتمكن من فهمها. ذهبَتْ لتفتح الباب، وما إن فتحته حتى اندفعوا إلى الداخل».

«كم كان عددهم؟».

«خمسة، أو ربما ستة. لا أذكر بدقة، عدد قريب من هذا. احتشدوا في الغرفة. بعضهم كان يرتدي بذلة رسمية كتلك التي يرتديها رجال الشرطة في الشوارع. وبعضهم الآخر كان يرتدي بذلة عادية. وكان أحدهم مسؤولاً

عنهم لأنهم كانوا يطيعون أوامره. سألوها عن اسمها، وإن كانت إيلونا. كانوا يحملون صورة فوتوغرافية. ربما من ملفات الجامعة. لا أعلم. ثم أخذوها معهم».

قال توماس: «لقد قلبوا كل شيء رأساً على عقب!».

قال كارل: «وجدوا بعض الوثاق فأخذوها معهم، وبعض الكتب. لا أدري ما هي».

«ماذا فعلت إيلونا؟».

«من الطبيعي أنها كانت تريد أن تعرف ماذا كانوا يريدون، وظلت تسألهم عن ذلك. وأنا فعلت ذلك أيضاً. لكنهم لم يجيبوها، ولم يجيبوني. سألتُهم عن هوّيتهم وعمّا يريدونه، لكنهم لم يلقوا علي حتى نظرة واحدة. طلبت إيلونا إجراء اتصال هاتفي لكنهم رفضوا. لقد جاءوا كي يعتقلوها، ولا شيء سوى ذلك».

قال إميل: «ألم يكن بوسعك أن تسألهم إلى أين كانوا يأخذونها؟ ألم يكن بوسعك فعل أي شيء؟».

قال كارل بخجل: «لم يكن بالإمكان فعل أي شيء. يجب عليكما أن تفهما هذا. لم يكن بوسعنا فعل شيء. لم أستطع فعل أي شيء! كانوا يريدون أخذها فأخذوها».

قال توماس: «هل كانت خائفة؟».

نظر كارل وإميل إليه بتعاطف شديد.

ثم قال كارل: «لا. لم تكن خائفة، بل كانت متحدية. سألتهم عمّا يبحثون عنه، وعمّا إذا كان بوسعها مساعدتهم في إيجاده، ثم أخذوها. طلبت مني إبلاغك بأن كل شيء سيكون على ما يرام».

«ماذا قالت؟».

«أن أبلغك بأن كل شيء سيكون على ما يُرام. هي قالت ذلك. طلبت مني أن أخبرك هذا الكلام؛ أن كل شيء سيكون على ما يُرام».

«حقاً؟».

«ثم وضعوها في السيارة. كانت معهم سيارتان. ركضت خلفهما، ولكن بدون جدوى بالطبع. اختفتا خلف المنعطف الأول. وكانت تلك آخر مرة أرى فيها إيلونا».

تنهد توماس وقال: «ماذا يريدون؟ ماذا فعلوا بها؟ لماذا لا يخبرني أحد أي شيء؟ لماذا لا نحصل على أجوبة؟ ماذا سيفعلون بها؟ ماذا يمكنهم أن يفعلوا بها؟».

أسند مرفقيه على الطاولة وأمسك برأسه ثم قال: «ماذا حصل؟».

قال إميل محاولاً التخفيف عنه: «ربما سينتهي الأمر على خير. لعلها أصبحت في البيت الآن، أو ربما سترجع غداً».

كان كارل جالساً بصمت. نظر توماس إلى إميل بعينين حزينتين وقال: «هل عرفتما أن... لا، بالطبع لم تعرفا».

قال إميل: «ماذا؟ ماذا عرفنا؟».

«أخبرتني بذلك قبل اعتقالها بأيام. لم يكن أحد يعلم».

قال إميل: «لم يكن أحد يعلم بماذا؟».

«إنها حامل. كانت قد اكتشفت ذلك للتو. نحن نتوقع طفلاً. هل تفهمون ذلك؟ هل تدركون كم يبدو الوضع مثيراً للقرف؟ تلك المراقبة التفاعلية القذرة! ما هي طبيعتهم؟ أي نوع من الناس هم؟ من أجل ماذا يقاتلون؟ هل سيصنعون عالماً أفضل من خلال التجسس على بعضهم؟ كم من الوقت ينوون الحكم بالخوف والحقد؟».

قال إميل بألم: «كانت حاملاً!».

قال توماس: «كان يجب أن أكون معها، وليس أنت يا كارل. لم أكن لأسمح لهم بأخذها؛ مطلقاً».

قال كارل: «هل تضع اللوم عليّ؟ لم يكن بوسعي فعل أي شيء. كنت عاجزاً».

قال توماس وهو يدفن رأسه بين يديه كي يخفي دموعه: «لا. بالتأكيد لا. بالتأكيد لم يكن ذنبك».

في ما بعد، عندما كان يستعد للخروج من البلد بعد أن أُمر بمغادرة لايبزيغ وألمانيا الشرقية، بحث عن لوثر للمرة الأخيرة، ووجده في مكتب منظمة شباب ألمانيا الحر في الجامعة. كان الخوف والقلق اللذان حفَّزاه في الأيام والأسابيع الأولى من الحادثة قد تركا مكانهما لعبء لا يكاد يُحتمَل من اليأس والحزن.

كان لوثر يمازح فتاتين، وكانتا تضحكان لشيء قاله عندما دخل توماس إلى الغرفة فصمتتا على الفور. طلب توماس التحدث مع لوثر.

فقال لوثر من دون أن يتحرك من مكانه: «ما الأمر الآن؟». كان المرح قد فارق وجهي الفتاتين في تلك الأثناء. لقد انتشر خبر اعتقال إيلونا في الجامعة، حيث اعتُبرت خائنة وقيل إنها أُعيدت إلى هنغاريا. لكن توماس كان يعلم أنها كذبة.

«أريد فقط أن أتحدث معك قليلاً. هل أنت موافق؟».

قال لوثر: «أنت تعلم أنني لا أستطيع فعل أي شيء لك. لقد أخبرتك بذلك. دعني وشأني».

عاد لوثر ليواصل تسليته للفتاتين.

سأله توماس بالآيسلندية: «هل لعبتَ دوراً في اعتقال إيلونا؟».

أدار لوثر ظهره إليه ولم يجبه، في حين كانت الفتاتان تراقبان ما يجري.

قال بصوت أعلى: «هل أنت من طلب اعتقالها؟ هل أنت من أخبرهم أنها خطرة؟ وأنها كانت توزع منشورات مناهضة للاشتراكية؟ وأنها كانت تدير خلية معارضين؟ هل كنت أنت يا لوثر؟ هل كان هذا دورك؟».

متظاهراً أنه لم يسمع، قال لوثر شيئاً للفتاتين فرسمتا ابتسامتين سخيفتين.

مشى نحو لوثر وأمسكه، وقال له بهدوء: «من أنت؟ أخبرني بذلك».

التفت لوثر نحوه، ودفعه عنه، ثم اقترب منه وأمسك بطرفي سترته وصدمه بخزانة الأضابير، ثم قال له من بين أسنان منطبقة: «دعني وشأني!».

قال توماس بالنبرة الهادئة نفسها، محاولاً عدم المقاومة: «ماذا فعلت بإيلونا؟ أين هي؟ أخبرني بذلك».

قال لوثر من بين أسنانه: «لم أكن أعلم شيئاً. ألقِ نظرة أقرب أيها الآيسلندي الغبي!».

ثم دفعه على الأرض وخرج من الغرفة مسرعاً.

في طريق عودته إلى آيسلندا، سمع توماس أن الجيش السوفييتي كان يسحق انتفاضةً في هنغاريا.

سمع ساعة الجدّ القديمة تدق معلنةً حلول منتصف الليل فأعاد الرسائل إلى مكانها.

شاهد على التلفاز سقوط جدار برلين وإعادة توحيد ألمانيا. شاهد المحتشدين يتسلقون الجدار ويضربونه بالمطارق والفؤوس كما لو أنهم كانوا يوجهون الضربات إلى الوحشية الصرفة التي بنته.

عندما تحققت إعادة توحيد ألمانيا وأحس بأنه كان مستعداً، سافر إلى ألمانيا الشرقية السابقة للمرة الأولى منذ أن كان يدرس هناك. بات الوصول إلى وجهته يستغرق نصف يوم فقط. طار إلى فرانكفورت، ومن هناك استقل طائرة أخرى إلى لايبزيغ. ومن المطار ركب سيارة أجرة إلى فندقه حيث تناول طعامه وحيداً. لم يكن الفندق بعيداً عن مركز المدينة

والجامعة. كان في المطعم زوجان كهلان وبضعة رجال متوسطي الأعمار فقط. قال في سرّه، لعلهم بائعون. أومأ أحدهم برأسه محيّياً عندما التقت عيونهما.

في المساء، ذهب في نزهة طويلة سيراً على القدمين، وتذكَّر أول مرة مشى فيها في المدينة عندما وصل إليها كطالب. كم تغيَّر العالم! ذهب إلى المنطقة التي تقع الجامعة فيها. كانت الفيلا القديمة - المهجع - قد رُمِّمت وتحوَّلت إلى مقر لشركة متعددة الجنسيات. وكان مبنى الجامعة القديم الذي درس فيه يبدو أكثر كآبة في ظلمة الليل من صورته العالقة بذاكرته. ذهب إلى وسط المدينة، وألقى نظرة إلى داخل نيكولايكيرتشه؛ حيث أضاء شمعة في ذكرى الأموات. وبينما كان يعبر ساحة كارل ماركس القديمة نحو توماسكيرتشه، نظر إلى تمثال باخ الذي جلسوا تحته كثيراً في تلك الأيام.

اقتربت امرأة عجوز منه، ودعته لشراء بعض الأزهار، فاشترى باقة صغيرة مع ابتسامة.

وبعد ذلك اتجه صوب المكان الذي لطالما أرجعته أفكاره إليه. سُرَّ عندما رأى أن المنزل لا يزال موجوداً. كان مرمَّماً جزئياً، وكان هناك ضوء يبدو من النافذة. ورغم أنه كان يتوق بشدة لإلقاء نظرة سريعة داخله، إلا أنه لم يجرؤ على فعل ذلك. أحسَّ أن هناك عائلة تعيش فيه، إذ كان هناك ضوء تلفزيون يومض في ما كانت غرفة جلوس مالكة المنزل القديمة التي فقدت عائلتها في الحرب.

قبَّل باقة الزهور ووضعها عند الباب.

قبل بضع سنوات، طار إلى بودابست، والتقى والدة إيلونا العجوز وأخويها. كان أبوها ميتاً حينئذ. مات من دون أن يعرف مصير ابنته.

أمضى اليوم كلّه جالساً بجانب والدة إيلونا التي أرته صور إيلونا منذ أن كانت رضيعة إلى سنواتها الدراسية. أخبره أخواها اللذان كانا قد بدآ يتقدّمان في السن، مثله، بما كان يعرفه مسبقاً، وهو أنهما لم يتوصلا إلى شيء من بحثهما عن أجوبة تتعلق بشقيقتهما. كان بوسعه الإحساس بحسرتهما الناجمة عن تقبُّلهما المكرَه للواقع الذي تجذَّر فيهما منذ وقت طويل.

في اليوم التالي على وصوله إلى لايبزيغ، ذهب إلى المقر القديم لشرطة الأمن الذي كان لا يزال في المبنى ذاته الكائن في شارع ديتريشرينغ 24 . ولكن، بدلاً من وجود رجل شرطة خلف طاولة الاستعلامات في قاعة الاستقبال، كانت هناك شابة ابتسمت وهي تسلِّمه منشوراً باللغة الألمانية

التي كان لا يزال قادراً على التحدث بها على نحو مقبول. قدَّم نفسه بأنه زائر إلى المدينة، وطلب إلقاء نظرة. كان في المبنى أناس آخرون دخلوا للغرض نفسه، وكانوا يتجولون في أرجائه عبر أبواب مفتوحة، مع مطلق الحرية للذهاب إلى أي مكان فيه. عندما سمعتْ لكنته، سألته الشابة عن جنسيته، ثم أخبرته أنه كان يجرى إعداد أرشيف في مكاتب ستاسي القديمة، وأنه مرحَّب به للاستماع إلى كلمة ستُلقى بعد قليل قبل استكشاف المبنى. دلَّته إلى الممر المؤدي إلى حيث كان الحاضرون يجلسون. كانت جميع الكراسي مشغولة، وكان بعض الحاضرين يستندون إلى الجدران وهم واقفون. أما الكلمة فكانت تتعلق باحتجاز كتّاب معارضين في السبعينيات.

بعد الكلمة، ذهب إلى المكتب الذي استُجوب فيه من قبل لوثر والرجل ذي الشارب الكث. كانت الزنزانة المقابلة له مفتوحة فدخل إليها. خطر له مجدداً أن إيلونا قد تكون سُجنت فيها. كانت هناك كتابات وخربشات تملأ الجدران، فتخيَّل أنها كُتبت بواسطة الملاعق.

كان قد قدَّم طلباً رسمياً لإلقاء نظرة على الملفات عندما فُتح أرشيف ستاسي إثر سقوط جدار برلين. وكان الغرض من ذلك مساعدة الناس على معرفة مصير أحباء لهم اختفوا في تلك الأزمنة، أو إيجاد معلومات حولهم – هم أنفسهم - جُمعت من قبل جيران وزملاء وأصدقاء وأفراد العائلة في ظل نظام المراقبة التفاعلية. كل من كان يشك في أن هناك ملفات موثقة تتعلق به بوسعه التقدم بطلب للسماح له بالبحث، وهذا ما فعله عبر البريد وبواسطة الهاتف من آيسلندا. كان يتوجَّب على المتقدِّمين أن يشرحوا بالتفصيل سبب حاجتهم لدراسة الملفات والشيء الذي يبحثون عنه. كان يعرف أن آلاف الأكياس الورقية البنية الكبيرة المليئة بالملفات جرى تمزيقها إلى قصاصات في الأيام الأخيرة للنظام الألماني الشرقي، لكن السلطات الجديدة وظَّفت فريقاً ضخماً من أجل إعادة لصقها معاً.

لم تسفر زيارته إلى ألمانيا عن أي شيء، حيث لم يجد ولو جزءاً من معلومة حول إيلونا؛ رغم كل البحث الذي قام به. قيل له إن ملفها ربما يكون قد تعرَّض لإتلاف مقصود. وثمة احتمال بأن تكون قد أُرسلت إلى أحد معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفييتي، ولهذا هناك فرصة ضئيلة في أن يتمكن من إيجاد سجل لها في موسكو. وهناك احتمال أيضاً بأن تكون قد ماتت في سجن الشرطة في لايبزيغ أو في برلين في حال أُرسلت إلى هناك.

ولم يجد أيضاً أي معلومة في ملفات ستاسي حول أي خائن سلَّم

حبيبته إلى شرطة الأمن.

ظل طوال الصيف جالساً بانتظار اتصال الشرطة، وها قد حلَّ الخريف ولم يحدث شيء بعد. كان واثقاً من أن الشرطة ستدق على بابه عاجلاً أم آجلاً؛ لدرجة أنه كان يتساءل في بعض الأحيان عن رد فعله حينها. هل سيتصرف بطريقة لامبالية وينكر التهم ويتظاهر بالاستغراب؟ ذلك سيعتمد على الأدلة التي يملكونها. لم تكن لديه فكرة حول ماهية تلك الأدلة، لكنه تصوَّر أنها ستكون ملموسة؛ طالما أنهم تمكّنوا من تعقب خيط ما أوصلهم إليه في النهاية.

حدَّق في الفراغ وعاد مجدداً إلى سنواته في لايبزيغ.

ثلاث كلمات من لقائه الأخير مع لوثر ظلت محفورة في ذهنه طوال تلك السنين وستبقى هناك إلى الأبد. ثلاث كلمات فسَّرت كل شيء.

ألقِ نظرة أقرب.

29

وصل إرلندور وإيلينبورغ بدون موعد مسبق، مع القليل من المعلومات حول الرجل الذي سيقابلانه، باستثناء أن اسمه هانز وأنه درس ذات يوم في لايبزيغ. كان يدير نزلاً صغيراً في سيلفوس ويزرع البندورة كمصدر دخل إضافي. وبما أنهما كانا يعرفان مكان إقامته فقد توجّها مباشرةً إلى هناك، وركنا السيارة خارج منزل مكوَّن من طابق واحد، ومشابه لجميع المنازل الأخرى في البلدة الصغيرة؛ باستثناء أنه لم يُدهَن منذ زمن طويل. كان واضحاً أن الحديقة المحيطة بالمنزل تحظى بعناية شديدة، وكانت تحوي وروداً وأجمات متلاصقة منسقة على شكل أسيجة وبيت طيور صغيراً.

كان في الحديقة رجل - خمَّنا أنه في العقد السابع من عمره - يكافح لتشغيل آلة لجز العشب؛ إذ كان يلهث من جرّاء شدِّ سلك تشغيل المحرك الذي كان يعود فوراً إلى جحره مثل أفعى حالما كان يتركه. لم يلاحظهما إلى أن وقفا بجانبه.

«كومة من الخردة القديمة، أليس كذلك؟». قال إرلندور ذلك وهو ينظر إلى آلة جزّ العشب. أخذ نفساً من سيجارته التي أشعلها لحظة خروجه من السيارة؛ لأن إيلينبورغ منعته من التدخين طوال الطريق. كانت سيارته مزرية بما يكفي، على أي حال.

رفع الرجل رأسه وحدَّق فيهما. كانا شخصين غريبين يقفان في حديقته. كان الشيب يغطي لحيته وشعر رأسه الذي بدأ يخفُّ، وكان ذا جبهة عريضة تدل على الذكاء، وحاجبين كثيفين وعينين مترقِّبتين، ويضع نظارة ربما كانت عصرية قبل ربع قرن.

«من أنتما؟».

ردَّت إيلينبورغ عليه بسؤال آخر: «هل اسمك هانز؟».

قال الرجل أجل، ونظر إليهما بتمعُّن، ثم سألهما: «هل تريدان بعض البندورة؟».

قال إرلندور: «ربما. هل هي جيدة؟ إيلينبورغ هنا خبيرة».

قالت إيلينبورغ: «هل درست في لايبزيغ في الخمسينيات؟».

نظر الرجل إليها وكأنه لم يفهم السؤال، وبالتأكيد سبب طرحه، فكررته إيلينبورغ.

قال الرجل: «ماذا يجري؟ من أنتما؟ لماذا تسألانني عن لايبزيغ؟».

قالت إيلينبورغ: «ذهبت أول مرة إلى هناك عام 1952 ، أليس

كذلك؟».

قال باستغراب: «هذا صحيح. وما الذي يعنيه ذلك؟».

شرحت له إيلينبورغ أن التحقيق المتعلق بالهيكل العظمي الذي وُجد في كلايفارفاتن أدى إلى تحدثهما إلى طلاب آيسلنديين في ألمانيا الشرقية. وأخبرته أن هذه المسألة واحدة من بين مسائل كثيرة أثارتها القضية؛ من دون أن تذكر جهاز التجسس الروسي.

«أنا... ما... أعني... ما علاقة هذا بنا نحن الذين كنا في ألمانيا؟».

قال إرلندور: «لايبزيغ، لكي نكون دقيقين تماماً. نحن نستفسر بالتحديد عن رجل يُدعى لوثر. هل يقرع هذا الاسم جرساً ما في ذاكرتك؟ إنه ألماني، ويدعى لوثر وايزر».

حدَّق هانز فيهما مشدوهاً، كما لو أنه شاهد شبحاً للتو. نظر إلى إرلندور، ثم إلى إيلينبورغ، ثم قال: «لا أستطيع مساعدتكما».

قال إرلندور: «لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً».

قال هانز: «آسف. لقد نسيت كل هذا. كان ذلك منذ زمن بعيد».

قالت إيلينبورغ: «من فضلك -».

قاطعها هانز قائلاً: «من فضلكما ارحلا. لا أظن أنني أملك أي شيء لأقوله لكما. لا يمكنني مساعدتكما. لم أتحدث حول لايبزيغ منذ زمن طويل، ولا أريد فعل ذلك الآن. لقد نسيت، ولن أسمح باستجوابي. لن تستفيدا من التحدث معي».

عاد إلى سلك تشغيل محرك آلة جز العشب وبدأ يعبث به.

تبادل إرلندور وإيلينبورغ النظرات، ثم قال إرلندور: «ما الذي يجعلك تظن ذلك. أنت حتى لا تعرف ما نريده منك».

«لا. ولا أريد أن أعرف. دعوني وشأني».

قالت إيلينبورغ: «هذا ليس استجواباً. ولكن، إذا أردتَ ذلك يمكننا استدعاؤك من أجل التحقيق؛ إذا كنتَ تفضِّل ذلك بالتأكيد».

رفع هانز رأسه وقال: «هل تهدّدينني؟».

قال إرلندور: «ما المشكلة في الإجابة على بضعة أسئلة؟».

«لست مضطراً لفعل ذلك إن لم أكن أريد. وداعاً».

كانت إيلينبورغ توشك أن تقول شيئاً ما لا بد أنه لاذع جداً - بالنظر إلى ملامح وجهها - ولكن، قبل أن تسنح لها الفرصة لفعل ذلك أمسكها إرلندور من ذراعها وجذبها نحو السيارة.

قالت إيلينبورغ حالما جلسا في السيارة: «إذا كان يعتقد أنه يستطيع

الإفلات بهذا النوع من الهراء -».

قاطعها إرلندور قائلاً: «سأحاول إقناعه، وإذا لم أنجح فهذا شأنه. بعد ذلك سنستدعيه».

خرج من السيارة وذهب إلى هانز، وتابعته إيلينبورغ بعينيها. كان هانز آنذاك قد شغَّل المحرك وبدأ يجز العشب متجاهلاً إرلندور، لكن الأخير اقترب منه وأوقف المحرك.

صاح هانز: «تطلَّب مني تشغيله ساعتين. ما الذي يُفترَض أن يعنيه هذا؟».

قال إرلندور بهدوء: «نحن مضطرون لفعل ذلك؛ حتى لو لم يكن ممتعاً لنا نحن وأنت. آسف. يمكننا القيام به الآن وبسرعة، أو إرسال سيارة دورية إليك. وربما لن تقول شيئاً حينئذ، وعندئذ سنستدعيك في اليوم التالي مباشرة وفي اليوم الذي يليه؛ إلى أن تصبح من زوّارنا الاعتياديين».

«أنا لا أسمح للناس بإصدار الأوامر لي!».

«ولا أنا».

وقفا قبالة بعضهما بعضاً وبينهما آلة جزّ العشب. لم يكن أي منهما سيستسلم. راقبت إيلينبورغ وضعيتهما تلك من السيارة، ثم هزت رأسها وتمتمت: الرجال!

قال إرلندور: «حسناً. أراك في ريكيافيك».

التفت واتجه صوب السيارة تحت ناظري هانز العابس.

وبعد لحظات، ناداه هانز قائلاً: «هل سيُدَوَّن ذلك في السجلات؟ أقصد إذا تحدثت معكما».

قال إرلندور وهو يستدير: «هل تخشى التقارير؟».

«لا أريد أن يُسجَّل ما أقوله. لا أريد ملفات حولي وحول ما أقوله. لا أريد أي تجسس».

قال إرلندور: «لا بأس في ذلك. وأنا أيضاً».

قال هانز: «لم أفكر في هذا الأمر منذ عقود. حاولت نسيان كل ما له علاقة به».

قال إرلندور: «نسيان ماذا؟».

«كانت مرحلة غريبة. لم أسمع باسم لوثر منذ عصور. ما علاقته بالهيكل العظمي في كلايفارفاتن؟».

ظل إرلندور بضع لحظات ينظر إليه من دون أن يجيبه إلى أن

تنحنح هانز قائلاً إنه من الأفضل التحدث في الداخل، فأشار إرلندور لإيلينبورغ كي تأتي.

قال هانز عندما كان يفتح الباب: «توفيت زوجتي منذ أربع سنوات». أخبرهما أن أولاده كانوا يزورونه أحياناً مع أحفاده في أيام الأحد، لكنه في غير تلك المناسبات كان يبقى وحده، ويفضِّل أن يبقى كذلك. سألاه حول ظروفه، وكم مضى على إقامته في سيلفوس، فقال إنه انتقل للعيش هناك قبل نحو عشرين عاماً. كان مهندساً يعمل في شركة ضخمة مرتبطة بمشاريع تتعلق بالطاقة المائية، لكنه فقَدَ الاهتمام بالعمل فانتقل من ريكيافيك، واستقر في سيلفوس حيث أحبَّ العيش.

عندما جلب القهوة إلى غرفة الجلوس سأله إرلندور حول لايبزيغ. حاول هانز أن يشرح لهما كيف كان وضع الطالب هناك في منتصف الخمسينيات لكنه سرعان ما وجد نفسه يخبرهما حول نقص المواد، والعمل التطوعي، وإزالة الأنقاض، والاستعراضات وأولبريتش، والحضور الإلزامي لمحاضرات حول الاشتراكية، وآراء الطلاب الآيسلنديين في الاشتراكية، والأنشطة المناهضة للحزب، وشباب ألمانيا الحر، والنفوذ السوفييتي، والاقتصادي المركزي، والمراقبة الجماعية والتفاعلية التي ضمنت عدم إفلات أي شخص يتسبب بمشاكل، واستئصال كل النقد. أخبرهما حول الصداقات التي تشكلت بين الطلاب الآيسلنديين، والمبادئ التي كانوا يناقشونها، والاشتراكية كبديل حقيقي للرأسمالية.

قال هانز: «لا أعتقد أنها ميتة. أعتقد أنها حية تماماً، ولكن بطريقة مختلفة عما كنا نتخيّله ربما. إنها اشتراكية تجعل العيش في ظل الرأسمالية أمراً قابلاً للاحتمال».

قال إرلندور: «أما زلت اشتراكياً؟».

«لطالما كنت كذلك. الاشتراكية ليست لها أي صلة بالوحشية الصرفة التي حوَّلها ستالين إليها، أو بالديكتاتوريات السخيفة التي نمت في أوروبا الشرقية».

قال إرلندور: «ولكن، ألم يشارك الجميع في إنشاد المدائح لتلك الخديعة؟».

قال هانز: «لا أدري. أنا لم أفعل ذلك بعد أن رأيت كيف كانت الاشتراكية تُمارَس في ألمانيا الشرقية. في الحقيقة، لقد طُردت لأنني لم أكن خاضعاً بما يكفي؛ لأنني لم أرغب في الاشتراك في شبكة التجسس التي كانوا يديرونها ويصفونها بطريقة شاعرية للغاية بأنها تفاعلية. كانوا يعتقدون أنه

من المقبول أن يتجسس الأطفال على آبائهم ويبلِّغوا عنهم إن انحرفوا عن خط الحزب. لا علاقة لهذا بالاشتراكية، بل إنه الخوف من فقدان السلطة، وهو بالطبع ما حصل لهم في نهاية المطاف».

قال إرلندور: «ماذا تعني بقولك: لم أرغب في الاشتراك بشبكة التجسس؟».

«أرادوا مني التجسس على رفاقي الآيسلنديين فرفضت. شاهدت وسمعت أشياء أخرى هناك جعلتني أتمرد. لم أذهب إلى المحاضرات الإلزامية، وانتقدت النظام. ليس علناً بالطبع، لأنه لم يكن بالمستطاع انتقاد أي شيء علناً، وإنما كنت أناقش الأخطاء مع مجموعات صغيرة من الأشخاص الموثوقين. كانت هناك خلايا معارضة في المدينة، وكنت ألتقي الشبان سراً بعد أن تعرَّفت عليهم. هل كان لوثر هو الذي وجدتموه في البحيرة؟».

قال إرلندور: «لا. أو بالأحرى، لا نعلم».

قالت إيلينبورغ: «قلتَ أرادوا مني، من هم الذين طلبوا منك التجسس على رفاقك؟».

«لوثر وايزر أحدهم».

قالت إيلينبورغ: «لماذا هو. هل تعرف؟».

«كان في الظاهر يبدو طالباً، لكنه لم يكن يبدو جدياً في دراسته؛ حيث كان يهتم بشؤونه الخاصة كما يحلو له. كان يتحدث الآيسلندية بطلاقة، وكنا نعتقد أنه كان موجوداً هناك بأوامر من الحزب أو المنظمة الطلابية؛ وهما الشيء ذاته. لا شك أن إحدى مهامه كانت تتعلق بمراقبة الطلاب ومحاولة إقناعهم بالتعاون».

قالت إيلينبورغ: «أي نوع من التعاون؟».

قال هانز: «كل أنواع التعاون. إذا كنتَ تعرف شخصاً يستمع إلى إذاعة غربية كان يُفترَض بك إبلاغ أحد مسؤولي منظمة شباب ألمانيا الحر بذلك. وإذا قال شخص ما إنه لا يرغب في إزالة الأنقاض أو القيام بعمل تطوعي آخر، فيُفترض بك الإبلاغ عنه. ثم كانت هناك اعتداءات أشد خطورة مثل التبليغ عن الآراء المعادية للاشتراكية. وعدم حضور الاستعراضات كان أيضاً إشارة إلى الاعتراض وليس مجرد كسل بسيط. وبالطريقة نفسها، إذا تهرَّبت من تلك المحاضرات السخيفة حول القيم الاشتراكية التي كانت منظمة شباب ألمانيا الحر تنظمها. كل شيء كان يقع تحت مراقبة لصيقة، وكان لوثر واحداً من اللاعبين. كانوا يحثوننا على الإبلاغ عن الآخرين. وإذا

لم تبلِّغ فأنت لا تُظهر الالتزام الحقيقي».

قال إرلندور: «هل يمكن أن يكون لوثر قد طلب من آيسلنديين آخرين إعطاءه معلومات؟ هل تظن أنه طلب من آخرين التجسس على رفاقهم؟».

«لا شك في ذلك. في الحقيقة، أنا متأكد بأنه فعل ذلك. أتصوَّر أنه حاول مع كل واحد منا».

قال إرلندور: «و؟».

«لا شيء».

قالت إيلينبورغ: «هل كانت هناك مكافأة معينة للتعاون؟ أم إن ذلك عملاً مثالياً صرفاً؟ أقصد التجسس على الجيران».

«كانت هنالك أساليب منظمة لمكافأة أولئك الذين يريدون إعطاء انطباع حسن عن أنفسهم. أحياناً، كان طالب مخلص لسياسة الحزب وعقائدي من الناحية السياسية يحصل على منحة أكبر من تلك التي يحصل عليها طالب لامع نال درجات أعلى بكثير لكنه لم يكن نشطاً سياسياً. كان النظام يعمل بهذه الطريقة. عندما كان طالب غير مرغوب فيه يُطرَد - كما حصل معي في النهاية - كان من المهم بالنسبة للطلاب الآخرين إظهار آرائهم عبر مساندتهم للحزب. كان الطلاب الذين ينتقدون المسيء علناً بغية إظهار ولائهم للخط العام - كما كان يُدعى - يلقون الثناء والتشريف. كانت منظمة شباب ألمانيا الحر مسؤولة عن الانضباط، وكانت المنظمة الطلابية الوحيدة المتاحة والتي تتمتع بنفوذ كبير. عدم الانتماء إليها كان أمراً مستهجناً، مثل عدم حضور محاضراتها».

قال إرلندور: «قلتَ إنه كانت هناك خلايا معارضة».

«لا أعرف إن كان من الممكن تسميتها خلايا معارضة. كانوا بصورة رئيسة شباناً يجتمعون ويستمعون إلى محطات إذاعية غربية ويتحدثون حول بيل هيلي وبرلين الغربية، أو حتى عن الدين؛ الأمر الذي لم يكن مُستحَبّاً كثيراً من قبل المسؤولين. ولكن، كانت هناك مجموعات معارضة حقيقية أخرى تريد النضال من أجل إصلاح البنية السياسية، وإقامة ديمقراطية حقيقية، وحرية التعبير والصحافة. لقد سُحقوا».

قال إرلندور: «قلتَ إن لوثر وايزر – أحدهم - طلب منك التجسس. هل تقصد أنه كان هناك آخرون مثله؟».

«أجل، بالتأكيد. كان المجتمع مُراقَباً بصرامة؛ على مستوى الجامعة وعلى مستوى الشعب ككل. والناس كانوا يخافون من المراقبة. كان

الشيوعيون المتشددون يشتركون فيها بإخلاص، أما المتشككون فكانوا يتحاشونها، وتأقلموا مع العيش تحت ظلها، لكنني أعتقد أن معظم الناس كانوا يجدونها متناقضة كلياً مع كل ما كانت تنادي به الاشتراكية».

قال إرلندور: «هل كنتَ تعرف أي طالب آيسلندي عمل لصالح لوثر؟».

قال هانز: «لماذا تريد أن تعرف هذا؟».

قال إرلندور: «نريد أن نعرف إن كان على صلة بأي آيسلندي عندما كان هنا كملحق تجاري في الستينيات. إنه استعلام طبيعي تماماً. نحن لا نحاول التجسس على الناس، وإنما نجمع معلومات وحسب، بسبب الهيكل العظمي الذي وجدناه».

نظر إليهما هانز لبضع لحظات، ثم قال: «لا أعلم عن أي آيسلندي اهتمَّ بذلك النظام، باستثناء إميل ربما. أعتقد أنه كان يعمل لتلك الجهات سراً. أخبرت توماس بذلك مرةً عندما سألني السؤال ذاته. بعد وقت طويل في الواقع، جاء إلي وسألني السؤال نفسه».

تذكَّر إرلندور الاسم من لائحة الطلاب في ألمانيا الشرقية، فقال: «توماس؟ هل تتواصل مع خرِّيجي لايبزيغ؟».

«لا، لا أتواصل معهم، ولم أفعل ذلك مطلقاً من قبل. لكن توماس وأنا نملك شيئاً مشتركاً: كلانا طُردنا. لقد عاد، مثلي، إلى الوطن قبل إنهاء دراسته. طُلبت منه المغادرة. بحث عني عندما عاد إلى آيسلندا، وأخبرني بشأن صديقته وهي فتاة هنغارية تُدعى إيلونا. عرفتها بشكل سطحي. لم تكن من النوع الذي يطيع سياسة الحزب؛ إذا أردنا التعبير عن ذلك بلطف. كانت خلفيتها مختلفة نوعاً ما، فالمناخ كان أكثر ليبراليةً في هنغاريا حينئذ. كان الشبان قد بدأوا في التعبير عن آرائهم في الهيمنة السوفييتية التي غطت كامل أوروبا الشرقية».

قال إرلندور: «لماذا أخبرك عنها؟».

«كان رجلاً محطماً عندما جاء إلي؛ كان ظلَّ الشاب الذي عرفته في السابق. أتذكره سعيداً وواثقاً بنفسه ومليئاً بالمُثُل الاشتراكية. لقد ناضل من أجلها. كان من عائلة من الطبقة العاملة».

قال إرلندور: «لماذا كان محطماً؟».

«لأنها اختفت. اعتُقلت إيلونا في لايبزيغ ولم تُرَ ثانيةً قطّ. لقد دمَّره هذا الأمر كلياً. أخبرني أنها كانت حاملاً عندما اختفت. أخبرني بهذا والدموع في عينيه».

قال إرلندور: «وهل جاء لرؤيتك مجدداً في ما بعد؟».

«كان ذلك غريباً تماماً في الحقيقة. أقصد مجيئه إلي بعد كل تلك السنين كي يتحدث عن الماضي. كنتُ قد نسيتُ الأمر برمته حقاً، ولكن كان واضحاً أن توماس لم ينسَ شيئاً. كان يتذكر كل شيء، وكل تفصيل، كما لو أنه حدث البارحة».

قالت إيلينبورغ: «ماذا كان يريد؟».

«سألني حول إميل، وإن كان قد عمل في الماضي لصالح لوثر. وإذا كانا على صلة وثيقة ببعضهما. لا أعرف لماذا أراد أن يعرف هذا، لكنني أخبرته أنني كنت أملك دليلاً على أن إميل كان بحاجة للوصول إلى تقارير لوثر الجيدة».

قالت إيلينبورغ: «ما هو هذا الدليل؟».

«كان إميل طالباً ضعيفاً. لم يكن ينتمي إلى الجامعة في الحقيقة، لكنه كان اشتراكياً جيداً. كل شيء كنا نقوله كان يذهب مباشرة إلى لوثر، وكان لوثر يحرص على أن يلقى إميل مكافأة جيدة وعلامات جيدة. كان توماس وإميل صديقين مقرَّبين».

كررت إيلينبورغ السؤال: «ما هو الدليل الذي كنت تملكه؟».

«أخبرني أستاذي بذلك عندما ذهبت إليه كي أودِّعه؛ بعد طردي. كان متألماً لأنه لن يُسمَح لي بإكمال دراستي. أخبرني أن جميع الكادر التدريسي كان يتحدث حول الأمر. كانوا يكرهون الطلاب المشابهين لإميل، ولكن لم يكن بوسعهم فعل أي شيء. جميعهم لم يكونوا يحبون لوثر وأمثاله أيضاً. قال البروفيسور إن لإميل حتماً قيمة عالية عند لوثر، لأنه أمَرَ إدارة الجامعة بعدم ترسيبه؛ رغم أنه كان من بين أسوأ الطلاب، إن لم يكن الأسوأ على الإطلاق. صادَقَتْ منظمة شباب ألمانيا الحر على الخطوة، وكان لوثر وراءها».

سكت هانز قليلاً ثم أضاف: «كان إميل أشدنا ولاءً. كان شيوعيًّا وستالينيًّا متطرّفاً».

همَّ إرلندور بالقول: «لماذا...».

لكن هانز واصل كلامه كما لو أن ذهنه كان في مكان آخر: «كان الأمر برمَّته صدمة كبيرة؛ النظام ككل. شهدنا استبداداً مطلقاً من قبل الحزب، خوفاً وقمعاً. حاول البعض إخبار أعضاء الحزب هنا بذلك عندما رجعوا، لكنهم لم يحققوا أي تقدم. لطالما شعرت أن الاشتراكية التي كانوا يمارسونها في ألمانيا الشرقية كانت نوعاً من التتمة للنازية. هذه المرة تحت

الكعب السوفييتي بالطبع، ولكن سرعان ما تولَّد لدي انطباع بأن الاشتراكية في ألمانيا الشرقية كانت بصورة جوهرية صنفاً آخر من النازية».

30

تنحنح هانز ونظر إليهما. شعرا كلاهما بأنه كان يجد مشقة في التحدث حول أيامه الجامعية. لم يكن – في ما بدا لهما - معتاداً على تذكُّر سنواته في لايبزيغ.

قال هانز: «هل ثمة شيء آخر تحتاجان إلى معرفته؟».

قال إرلندور: «إذاً، لقد ظهر توماس بعد سنوات من مغادرته لايبزيغ وسألك عن إميل ولوثر، وأنت أخبرته أنك تملك دليلاً على أنهما كانا يعملان معاً. وأن إميل كان يقوم بالمهمة الهامة المتمثلة بمراقبة الطلاب والتبليغ عنهم».

«أجل».

قال إرلندور: «لماذا كان توماس يسأل عن إميل، ومن يكون إميل؟».

«لم يخبرني عن السبب، وأنا أعلم القليل عن إميل. آخر مرة سمعت عنه فيها، قيل إنه كان يعيش في الخارج. أعتقد أنه عاش في الخارج منذ أن درس في ألمانيا. لم يعد مطلقاً حسب علمي. قابلت أحد الطلاب من لايبزيغ ويدعى كارل منذ بضع سنوات. كنا في رحلة إلى منطقة سكافتافيل، وبدأنا الحديث حول الأيام القديمة، فأخبرني أنه كان يعتقد أن إميل قرر الاستقرار في الخارج بعد إنهائه الجامعة. ولم يُرَ أو يُسمَع عنه شيء منذ ذلك الحين».

قال إرلندور: «ولكن توماس، هل تعرف شيئاً عن توماس؟».

«ليس تماماً. لقد درس الهندسة في لايبزيغ، لكنني لا أعلم إن كان قد عمل في هذا المجال أم لا. لقد طُرد. قابلته مرةً عندما عاد من ألمانيا، ومرةً أخرى عندما جاء ليسألني عن إميل».

قالت إيلينبورغ: «أخبرنا عن ذلك».

«ليس هناك الكثير لأخبركما به. لقد زارني فجأة وتحدثنا حول الأيام القديمة».

قال إرلندور: «لماذا كان مهتماً بإميل؟».

نظر هانز إليهما، ثم قال وهو ينهض واقفاً: «يجب أن أعدَّ القليل من القهوة».

أخبرهما هانز أنه كان يعيش في منزل جديد في حي فوغار في ريكيافيك في ذلك الحين. وذات يوم قُرع جرس الباب، وعندما فتحه وجد

توماس واقفاً على درجات السلَّم. كان ذلك في فصل الخريف، وكان الطقس قاسياً؛ حيث كانت الرياح تهز الأشجار في الحديقة، والمطر يضرب المنزل بقوة. لم يميِّز هانز الزائر في البداية، وذُهل عندما أدرك أنه توماس؛ ذُهل لدرجة أنه لم يخطر له في البداية أن يدعوه للدخول من المطر.

قال توماس: «آسف لإزعاجك بهذه الطريقة».

قال هانز: «لا، لا بأس». ثم أضاف بسرعة: «يا له من طقس مريع! تفضَّل، ادخل».

خلع توماس معطفه وحيّا زوجة هانز، وجاء أولادهما لرؤية الضيف فابتسم لهم. كان لدى هانز مكتب صغير في القبو، فدعا توماس للنزول إليه بعد انتهائهما من شرب القهوة والثرثرة حول الطقس. أحسَّ أن توماس لم يكن مرتاحاً، وأن شيئاً ما كان يقلقه. كان عصبياً ومرتبكاً قليلاً لزيارته أشخاصاً لم يكن يعرفهم جيداً. فهما لم يكونا صديقين في لايبزيغ، ولم يسبق لزوجة هانز أن سمعت باسم توماس من قبل.

عندما أصبحا في القبو، تحدثا قليلاً حول سنواتهما في لايبزيغ، لكن هانز أحسَّ بأن توماس كان يحاول توجيه الحوار رويداً رويداً نحو الهدف من زيارته، وفكّر في سرّه أنه كان سيحب توماس لو عرفه بشكل أفضل. تذكَّر عندما شاهده في المكتبة للمرة الأولى، وتذكَّر خجله المهذب.

كما تذكَّر زيارة توماس السابقة؛ مباشرةً بعد عودته من ألمانيا الشرقية، ليخبره بما حدث لإيلونا. أشفق كثيراً على توماس. إذ كان قد أرسل له رسالة كتبها في لحظة غضب، وحمّله فيها مسؤولية طرده من لايبزيغ. ولكن، عندما زال غضبه وأصبح في آيسلندا أدرك أن توماس لم يكن المذنب، بل هو نفسه لتحدّيه النظام. ذكر توماس الرسالة، وقال إنها كانت تحزُّ في نفسه، فطلب منه هانز أن ينساها، وقال له إنها كُتبت في لحظة غضب، وإنها لم تكن تمثل الحقيقة. وأخبره توماس أنه اتصل بقادة الحزب وأخبرهم بشأن إيلونا ووعدوه بالاستعلام عن الموضوع في ألمانيا الشرقية. لقد وبَّخوه بشدة لأنه طُرد، ولأنه أساء لنفسه وللثقة التي منحوه إياها، فأقرَّ توماس بكل ذلك، وأعلن ندمه على فعلته، وقال لهم كل ما كانوا يريدون سماعه؛ فقط من أجل مساعدة إيلونا، بيد أن جهوده كلها ذهبت هباءً.

وذكر توماس الشائعة التي تقول إن إيلونا وهانز كانا مرتبطين بعلاقة عاطفية ذات مرة، وإن إيلونا كانت تريد الزواج من أجل مغادرة البلد، فأخبره هانز أن هذا كان خبراً جديداً بالنسبة إليه. لقد حضر بضعة

اجتماعات فقط ورأى إيلونا هناك، ثم ابتعد عن كل ما له علاقة بالسياسة.

وها هو توماس يجلس معه ثانيةً، في منزله، بعد مضي اثنتي عشرة سنة على آخر لقاء جمعهما. بدأ توماس بالتحدث حول لوثر، وأخيراً بدا أنه كان يصل إلى بيت القصيد، حيث قال: «أردت أن أسألك عن إميل. أنت تعلم أننا كنا صديقين مقرَّبين في ألمانيا».

«أجل، أعلم».

«هل كانت هناك، لنقل، علاقة خاصة تربط إميل مع لوثر؟».

أومأ هانز برأسه دلالة على الموافقة؛ رغم أنه كان يكره النميمة، إلا أنه لم يكن صديقاً لإميل، وكان يعرف شخصيته. كرر هانز كلمات البروفيسور حول إميل ولوثر أمام توماس، وكيف أنها أكّدت شكوكه في أن إميل كان متورطاً بفعالية في المراقبة التفاعلية، وأنه استفاد من إخلاصه للمنظمة الطلابية والحزب.

قال توماس: «هل تساءلت مرةً إن كان إميل قد لعب دوراً في طردك؟».

«من المستحيل معرفة ذلك. أي شخص يمكن أن يكون قد وشى بي إلى شباب ألمانيا الحر. هناك أكثر من شخص واحد، بل أكثر من اثنين. لقد ألقيت اللوم عليك، أتذكر؟ كتبتُ لك تلك الرسالة. إن التحدث مع الناس يصبح معقداً جداً عندما لا تعرف ما هو المسموح لك قوله. لكنني لم أفكر في الأمر كثيراً، فقد انتهى منذ وقت طويل. لقد دُفن ونُسي».

وفجأة سأله توماس: «هل علمت أن لوثر موجود في آيسلندا؟».

«لوثر! في آيسلندا!! لا، لم أعلم».

«إنه يعمل في سفارة ألمانيا الشرقية، يبدو أنه موظف فيها. التقيته صدفة هناك. في الحقيقة، لم ألتقِه بل رأيته. كنت أمشي في آيجيسيدا، فأنا أسكن في غرب المدينة. لم يلاحظني. كنت بعيداً بعض الشيء لكنه هو. لقد اتهمتُه في لايبزيغ بأنه متورط في اختفاء إيلونا فقال لي: ألقِ نظرة أقرب. لكنني لم أفهم ما كان يقصده حينها؛ غير أنني أعتقد أنني فهمت الآن».

سكتا كلاهما.

نظر هانز إليه، وأحسَّ كم كان زميل دراسته السابق عاجزاً ووحيداً فأراد أن يفعل شيئاً ما من أجله، فقال: «إذا كان باستطاعتي مساعدتك... أنت تعرف، إذا كان بوسعي فعل أي شيء لك...».

«هل قال البروفيسور إن إميل كان يعمل مع لوثر وكان يستفيد من عمله ذاك؟».

«أجل».

«هل تعلم ماذا حصل لإميل؟».

«ألا يعيش في الخارج؟ لا أظن أنه عاد بعد تخرُّجه».

سكتا مجدداً لبضع لحظات، ثم سأله هانز: «القصة التي تتحدث عني وعن إيلونا، من أخبرك بها؟».

«لوثر».

«لا أعرف إن كان ينبغي علي أن أخبرك بهذا، لكنني سمعت شيئاً آخر قبل مغادرتي. كنتُ غاضباً عندما عدت من ألمانيا ولم أشأ نشر الأقاويل. كان هناك الكثير على أي حال. ولكن، قيل لي إن إميل كان يحاول التقرُّب من إيلونا قبل أن تبدآ علاقتكما».

حدَّق توماس في هانز مشدوهاً.

وعندما رأى لون توماس يشحب، قال هانز: «هذا ما سمعتُه. قد لا يكون بالضرورة صحيحاً».

«هل تقول إنهما كانا يخرجان معاً قبل أن...؟».

«لا، كان يحاول فقط. كان يتطفل عليها، ويقوم بالأعمال التطوعية معها و...».

قال توماس غير مصدِّق، كما لو أنه لم يكن قادراً على فهم الفكرة: «إميل وإيلونا؟!».

سارع هانز إلى القول: «كان يحاول فقط، هذا كل ما سمعتُه». لقد ندم مسبقاً لأنه أخبره بذلك.

قال توماس: «من أخبرك بهذا؟».

«لا أذكر، وقد لا يكون هذا الأمر صحيحاً بالضرورة».

«إميل وإيلونا! هي لم تكن تحبه!».

«أبداً. كان هذا كل ما سمعته. لم تكن مهتمة به. لكن إميل كان متألماً».

سكتا قليلاً، ثم أضاف هانز: «ألم تذكر إيلونا ذلك لك نهائياً؟».

«لا. لم تذكر هذا مطلقاً».

قال هانز وهو ينظر إلى إرلندور وإيلينبورغ: «وبعد ذلك غادر. ولم أره منذ ذلك الحين. وفي الحقيقة، لا أعرف إن كان ميتاً أم حياً».

قال إرلندور: «لا بد أنها كانت تجربة سيئة لك في لايبزيغ».

«الأسوأ كان التجسس والشك الدائم. لكنّ المكان كان جيداً من نواحٍ عديدة. لعلنا لم نكن مستعدين لرؤية الوجه المجيد للاشتراكية عن قرب، لكن معظمنا حاولنا العيش مع العوائق، وبعضنا وجد هذا أسهل من بعضنا الآخر. أما بالنسبة للتعليم، فقد كانت مؤسسة مثالية. فالغالبية الساحقة من الطلاب كانوا أولاد مزارعين وعمال. هل حصل هذا من قبل أو منذ ذلك الحين؟».

قالت إيلينبورغ: «لماذا ظهر توماس بعد كل تلك السنين ليسألك عن إميل؟ هل تعتقد أنه ذهب ليقابل إميل ثانيةً؟».

«لا أدري. لم يخبرني بذلك».

قال إرلندور: «وتلك الفتاة إيلونا، هل عُرف أي شيء عنها؟».

«لا أظن ذلك. كان الوضع غريباً في ذلك الحين بسبب هنغاريا، حيث انفجر كل شيء لاحقاً. لم يكونوا ليسمحوا بحدوث ذلك في بلدان شيوعية أخرى. لم تكن هناك فسحة لتغيير الآراء أو للانتقاد أو النقاش. لا أظن أن أحداً يعرف ماذا حلَّ بإيلونا. لم يكتشف توماس ذلك مطلقاً. لا أظن ذلك على أي حال؛ رغم أن لا علاقة له بي حقاً. فضلاً عن أنني قد وضعت تلك المرحلة من حياتي خلف ظهري منذ زمن طويل، ولا أحب التحدث عنها. كانت أوقاتاً فظيعة فظيعة».

قالت إيلينبورغ: «من أخبرك عن إميل وإيلونا؟».

«اسمه كارل».

قالت إيلينبورغ: «كارل؟».

«أجل».

«هل كان في لايبزيغ أيضاً؟».

أومأ هانز برأسه موافقاً.

قال إرلندور: «هل تعرف أي آيسلندي يُحتمَل أنه كان يمتلك جهاز تنصت روسيًّا في الستينيات؟ من يمكن أن يكون متورطاً في عمل تجسسي؟».

«جهاز تنصت روسي!؟».

«أجل. لا أستطيع الخوض في التفاصيل، ولكن هل يخطر أي شخص في ذهنك؟».

قال هانز: «في الواقع، إذا كان لوثر ملحقاً بالسفارة فإنه أحد المرشحين. لا أعتقد أن... هل... أنت لا تتحدث عن جاسوس آيسلندي، أليس

كذلك؟».

قال إرلندور: «لا، أعتقد أن هذا سيكون غريباً».

«كما قلت، أنا لست في الصورة وحسب. نادراً ما كان لدي اتصال مع المجموعة من لايبزيغ. ولا أعرف شيئاً عن أي جهاز تجسس روسي».

قال إرلندور: «أنت لا تحمل صورة للوثر، أليس كذلك؟».

«لا، لا أملك الكثير من التذكارات من تلك السنوات».

قالت إيلينبورغ: «يبدو أن إميل كان شخصية سرية».

«قد يكون هذا صحيحاً تماماً. كما أخبرتكما، أعتقد أنه عاش في الخارج طوال حياته. في الحقيقة، آخر مرة شاهدته فيها... كانت بعد زيارة توماس الغريبة تلك. رأيت إميل في مركز ريكيافيك. لم أكن قد رأيته منذ لايبزيغ، ولمحته لمحاً فقط، لكنني واثق أنه كان إميل. ولكن، كما قلت، لا أعلم أي شيء آخر عن الرجل».

قالت إيلينبورغ: «إذاً، ألم تتحدث معه؟».

«أتحدث معه؟! لا، لم أستطع. لقد ركب في سيارة وقادها مبتعداً. شاهدته لجزء من الثانية فقط، لكنني متأكد بأنه هو. أذكر ذلك بسبب صدمتي عندما أدركت من يكون».

قال إرلندور: «هل تتذكر ما هو نوع السيارة؟».

«ما نوعها؟».

«أتذكر الموديل، اللون؟».

قال هانز: «كانت سوداء. لا أعلم أي شيء حول السيارات. لكنني أذكر أنها كانت سوداء».

«هل يمكن أن تكون فورد؟».

«لا أعلم».

«فورد فالكون؟».

«كما قلت، لا أذكر إلا أنها كانت سوداء».

31

وضع القلم على الطاولة. حاول أن يكون واضحاً ومختصراً قدر الإمكان في وصفه للأحداث التي جرت في لايبزيغ ولاحقاً في آيسلندا. لقد وصل إلى سبعين صفحة كُتبت بعناية بالغة، واستغرقت منه عدة أيام، لكنه لم يكتب الخاتمة بعد. لقد حسم أمره أخيراً. كان متصالحاً مع ما سيقدم عليه.

وصلتْ سيرته الذاتية إلى اللحظة التي كان يمشي فيها في آيجيسيدا وشاهد لوثر وايزر يقترب من أحد المنازل. ورغم أنه لم يرَ لوثر منذ سنوات، إلا أنه عرفه على الفور. لقد ازداد وزن لوثر مع التقدم بالعمر وأصبح يمشي بتثاقل. تجمّد توماس في مكانه ونظر إلى لوثر بذهول. وحالما تبدد ذلك الذهول، تمثَّل رد فعله الأول في الابتعاد عن النظر، ولهذا استدار نصف استدارة وعاد أدراجه ببطء شديد. راقب لوثر وهو يدخل عبر البوابة ويغلقها بحرص خلفه ثم يختفي خلف المنزل، فافترض أن الألماني دخل من الباب الخلفي. لاحظ لافتة كُتب عليها «الممثلية التجارية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية».

وقف على الرصيف محدّقاً في المنزل بذهول. كان وقت الغداء، وكان قد خرج للتنزه في الطقس الجميل. في العادة، كان يستغل فرصة الغداء لقضاء ساعة في المنزل. كان يعمل في شركة للتأمين تقع في مركز المدينة، وقد مضت سنتان على وجوده فيها، لكنه كان يستمتع بوظيفته المتعلقة بتأمين الناس في وجه النكسات. نظر إلى ساعته فأدرك أن الوقت قد حان للرجوع.

في وقت مبكر من ذلك المساء خرج ليتنزه مرة أخرى؛ كما كان يفعل أحياناً. وبصفته رجلاً روتينياً، كان في العادة يسير في الشوارع نفسها في الحي الغربي من المدينة، وعلى امتداد شارع آيجيسيدا الملاصق لشاطئ البحر. مشى ببطء، وحدَّق عبر نوافذ المنزل متوقِّعاً أن يلمح لوثر لكنه لم يرَ شيئاً. كانت هناك نافذتان مضاءتان فقط، ولم يستطع رؤية أي شخص في الداخل. كان على وشك أن يعود أدراجه عندما تراجعت سيارة فولغا سوداء فجأة من المدخل المحاذي للمنزل ثم سارت مبتعدةً عبر شارع آيجيسيدا.

خلال الأيام القليلة التالية، واصل المشي وحيداً كل مساء في شارع آيجيسيدا ومروراً بجانب المنزل. وذات مساء، شاهد ثلاثة أشخاص يغادرونه. اثنان ركبا في سيارة فولغا سوداء وذهبا، في حين ودَّعهما الثالث، وهو

لوثر، ثم مشى في شارع هوفسفالاجاتا باتجاه مركز المدينة. مشى لوثر ببطء إلى تونجاتا، ومن ثم عبر جارداستراييتي حتى وصل إلى فيسفترجاتا وهناك دخل إلى مطعم ناوستيد.

أمضى توماس ساعتين منتظراً خارج المطعم بينما كان لوثر يتناول عشاءه. كان ذلك في فصل الخريف، وكان الطقس قد بدأ يصبح بارداً نوعاً ما في المساء، لكنه كان يرتدي معطفاً شتوياً ويضع وشاحاً ويعتمر قبعة ذات غطاءين للأذنين. جعلته ممارسة لعبة التجسس الطفولية تلك يشعر بالسخافة نوعاً ما. فهو لم يكن يفعل شيئاً سوى الوقوف على الرصيف المقابل حيث يكون باب المطعم خارج مرمى نظره. وعندما خرج لوثر أخيراً، مشى عبر شارع فيسترجاتا ثم أوسترستراييتي باتجاه حي ثينغهولت. وعند بيرجستاداستراييتي توقف خارج مستودع يقع في الحديقة الخلفية لمنزل غير بعيد عن فندق هولت. فُتح الباب وسمح شخص ما - لم يرَه توماس جيداً - للوثر بالدخول.

مدفوعاً بالفضول اقترب بتردد من المستودع. لم يكن ضوء الشارع يصل إلى ذلك البعد، فواصل طريقه بحذر تحت الظلام الجزئي. كان هناك قفل منفصل على الباب. اقترب من نافذة صغيرة تقع على جانب المستودع واسترق النظر إلى الداخل. كان هناك مصباح مضاء فوق طاولة عمل، وقد مكَّنه ضوؤه من رؤية الرجلين.

مدَّ أحدهما يده نحو شيء تحت المصباح، وفجأةً عرف من هو، وارتدَّ عن النافذة بسرعة. بدا الأمر كما لو أنه تلقى ضربة على وجهه.

كان صديق الدراسة القديم من لايبزيغ الذي لم يره مطلقاً طوال تلك السنين.

إميل.

ابتعد عن المستودع على مهل وعاد إلى الرصيف، وهناك انتظر وقتاً طويلاً قبل أن يخرج لوثر وإميل معاً. اختفى إميل في الظلام بجانب المستودع، في حين انطلق لوثر مجدداً باتجاه غرب المدينة. لم يكن يعرف نوع العلاقة التي تربط إميل بلوثر. فحسب علمه، كان إميل يعيش في الخارج.

فكَّر في الأمر مطولاً لكنه لم يصل إلى أي نتيجة، وفي النهاية قرر زيارة هانز. لقد فعل ذلك مرة من قبل - حال عودته من ألمانيا الشرقية - كي يخبره بما حصل لإيلونا. لعل هانز يعرف شيئاً ما حول إميل ولوثر.

دخل لوثر إلى المنزل الواقع في شارع آيجيسيدا. انتظر توماس هناك

لبعض الوقت، في مكان بعيد نوعاً ما، قبل أن يعود أدراجه إلى منزله، وفجأة خطرت في ذهنه جملة الألماني الغريبة وغير المفهومة التي قالها له في لقائهما الأخير:

ألقِ نظرة أقرب.

32

في طريق عودتهما من سيلفوس، تناقش إرلندور وإيلينبورغ حول قصة هانز. كان الوقت مساءً، ولم تكن حركة المرور كثيفة في قفار هيليشيدي. فكَّر إرلندور في سيارة الفالكون السوداء. لا بد أنه لم يكن هناك الكثير منها في الشوارع في تلك الأيام، رغم أن أنها كانت شهيرة؛ وفقاً لزوج إيلينبورغ تيدي. وفكَّر في توماس الذي اختفت صديقته في ألمانيا الشرقية. سوف يزورانه في أول فرصة. ولكن، كان لا يزال غير قادر على فهم الرابط بين الجثة التي عثروا عليها في البحيرة وطلاب لايبزيغ في الستينيات. وفكَّر أيضاً في إيفا ليند التي كانت تدمر نفسها رغم محاولاته إنقاذها، وفي ابنه سيندري الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً على الإطلاق. فكَّر في كل ذلك من دون أن يتمكن من تنظيم أفكاره. التفتت إيلينبورغ إليه وسألته عما كان يدور في ذهنه.

فقال: «لا شيء».

«لا بد أن هناك شيئاً ما».

«قال إرلندور: «لا. لا شيء».

رفعت إيلينبورغ كتفيها، فتحوَّلت أفكار إرلندور إلى فالجيردر التي لم يسمع منها أي شيء منذ بضعة أيام. كان يعرف أنها كانت بحاجة للوقت، وهو لم يكن مستعجلاً أيضاً. ما كانت تراه فيه كان لغزاً بالنسبة له، ولم يكن قادراً على فهم السبب الذي جذب فالجيردر إلى رجل مكتئب ووحيد ويعيش في مبنى شققي كئيب. كان يتساءل أحياناً عمّا إذا كان يستحق صداقتها أساساً.

لكنه كان يعرف بالضبط ما الذي كان يحبه في فالجيردر؛ بل عرف ذلك منذ اللحظة الأولى. كانت تملك كل الصفات التي تنقصه ويحب أن يمتلكها. كانت تمثل النقيض المعاكس له؛ فهي جذابة ودائمة الابتسام وسعيدة. فعلى الرغم من المشاكل الزوجية التي كانت مضطرة للتعامل معها - ورغم معرفته بأن تلك المشاكل خلَّفت أثراً عميقاً فيها - إلا أنها كانت تحاول عدم السماح لها بتدمير حياتها. كانت دائماً ترى الجانب المشرق في أي مشكلة، ولم تكن تشعر بالحقد أو الغضب حيال أي شيء. ولم تكن تسمح لأي شيء بتغيير موقفها اللطيف والكريم من الحياة؛ حتى لو كان زوجها الذي كان إرلندور يعتبره أبله لعدم إخلاصه لمثل هذه المرأة.

وإضافة إلى كل ذلك، إن مجرد تواجده معها كان يجدد طاقته

وينشِّط روحه.

أحسَّت إيلينبورغ بالسأم، فناشدته قائلةً: «أخبرني بما تفكر فيه».

فأجابها: «لا شيء. لا أفكر في أي شيء». فهزّت إيلينبورغ رأسها.

كان إرلندور مكتئباً بعض الشيء في ذلك الصيف، رغم أنه أمضى قدراً غير عادي من الوقت مع المحققين الآخرين بعد العمل. لقد تناقشت إيلينبورغ وسيغوردور أولي حول هذا الأمر، وكانا يعتقدان أن اكتئابه يعود على الأرجح إلى فقدانه تواصله مع إيفا ليند على نحو شبه كلي. كانا يعلمان أنه كان يتألم بسببها، وأنه حاول مساعدتها لكن الفتاة بدت فاقدة للسيطرة على نفسها. وكان جواب سيغوردور أولي الاعتيادي عند إثارة مسألة إيفا ليند هو: «إنها فاشلة». حاولت إيلينبورغ مرتين أو ثلاث مرات التقرب من إرلندور من أجل التحدث حول إيفا ووضعها لكنه كان يتحاشاها.

ظلا جالسين بصمت إلى أن أوقف إرلندور السيارة أمام منزل إيلينبورغ. لكنها بدلاً من الخروج من السيارة مباشرة، التفتت إليه وقالت: «ما المشكلة؟».

بيد أنه لم يجب، فسألته حول القضية: «ما الذي ينبغي علينا فعله بشأن هذه القضية؟ هل نتحدث مع توماس هذا؟».

قال إرلندور: «يجب أن نفعل ذلك».

قالت إيلينبورغ: «هل تفكر في إيفا ليند؟ هل هذا هو سبب كل هذا الصمت والجدية؟».

«لا تقلقي بشأني. سأراك غداً».

راقبها إرلندور وهي تنزل من السيارة وتصعد على السلَّم المؤدي إلى منزلها، ولم يتحرك إلا بعد أن اختفت في الداخل.

وبعد ساعتين، كان إرلندور جالساً على كرسيه في المنزل يقرأ عندما قُرع جرس الباب. نهض وسأل عن هوية القارع ثم ضغط على الزر الذي يفتح الباب الأمامي في الأسفل. وبعد إنارته الأضواء في شقته ذهب إلى المدخل وفتح الباب وانتظر إلى أن ظهرت فالجيردر.

قالت: «لعلك تفضِّل البقاء وحدك؟».

«لا، تفضَّلي».

مرَّت بجانبه، وأخذ منها معطفها وعلَّقه.

رأتْ كتاباً مفتوحاً بجانب الكرسي، فسألته عمّا يقرأه، فأخبرها بأنه يتحدث عن الانهيارات الثلجية.

قالت: «والجميع يلقون ميتة فظيعة، كما أعتقد».

«ليس الجميع. البعض نجوا، لحسن الحظ».

«ألهذا السبب تقرأ هذه الكتب حول الموت في الجبال والانهيارات الثلجية؟».

قال إرلندور: «ماذا تقصدين؟».

«لأن بعض الناس ينجون؟».

ابتسم وقال: «ربما. أما زلت تعيشين مع أختك؟».

أومأت برأسها دلالةً على الموافقة، ثم أخبرته بأنها ستحتاج ربما لاستشارة محامٍ حول الطلاق، وسألته إن كان يعرف أحداً، فقال إنه سيسأل في العمل، حيث يتواجد المحامون على مدار الساعة.

سألته بينما كانت تجلس على الأريكة: «هل بقي لديك أي من ذلك المشروب الأخضر؟».

هز برأسه ثم أخرج زجاجة الشراب وكأسين. تذكَّر أنه سمع مرةً أن ثلاثين مكوِّناً نباتياً مختلفاً تُستخدَم من أجل الوصول إلى المذاق الصحيح، فجلس بجانبها وأخبرها عن هذه المكونات.

أخبرته أنها التقت زوجها في وقت سابق من اليوم نفسه، وأنه وعدها بفتح صفحة جديدة وحاول إقناعها بالعودة إلى المنزل مجدداً. لكنه عندما أدرك أنها عازمة على تركه، غضب وفقَدَ السيطرة على نفسه وبدأ يصرخ عليها ويشتمها - رغم أنهما كانا جالسين في مطعم - وأنه لم يبالِ بالزبائن الذين كانوا يراقبون ما يجري بذهول. فوقفت وخرجت من المطعم من دون أن تنظر وراءها.

بعد انتهائها من سرد أحداث اليوم جلسا يشربان بصمت.

طلبت كأساً أخرى، وقالت: «إذاً، ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟».

شرب ما بقي في كأسه، ثم أعاد ملء الكأسين، وهو يفكر في عطرها الذي لاحظه عندما مرَّت بجانبه عند الباب. كان يشبه عطر صيف رحل منذ زمن بعيد، وكان مليئاً بحنين متجذر عميقاً في داخله حيث لم يتمكن من تمييزه.

قال إرلندور: «سنفعل ما يحلوا لنا».

«ماذا تريد أن تفعل؟ كنتَ صبوراً جداً، وكنت أتساءل إن كان ذلك صبراً حقاً، أم إنه لم يكن إلى هذه الدرجة... أعني أنك لم تكن تريد التورط».

سكتا، لكن السؤال بقي معلَّقاً في الهواء.

ماذا تريد أن تفعل؟

كان هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه مراراً منذ أن التقاها. لم يكن يعتبر نفسه صبوراً، ولم يكن يعرف كيف يمكنه أن يصف حالته؛ بعيداً عن أنه كان يحاول مساندتها. لعله لم يُظهر لها اهتماماً ودفئاً كافيين.

قال إرلندور: «لم تكوني تريدين استعجال الأمور، وأنا كذلك. لم تدخل أي امرأة حياتي منذ زمن بعيد». ثم صمت.

كان يريد أن يخبرها أنه كان يعيش وحيداً في معظم الوقت، في هذا المكان، مع كتبه، وأن جلوسها على هذه الأريكة كان يجلب له سعادة خاصة. كانت مختلفة عنه كلياً، وعن كل ما اعتاد عليه، عطر صيف عذب، ولم يكن يعرف كيف يتعامل مع ذلك. كيف يخبرها أن هذا كل ما كان يريده ويتوق إليه منذ اللحظة التي وقعت عيناه عليها. كان يتوق إلى أن يكون معها.

قال: «لم أقصد أن أكون متحفظاً، لكن هذا النوع من الأمور يتطلب وقتاً، وخاصة بالنسبة إلي. وبالطبع أنت... أقصد، إنه لأمر صعب المرور في طلاق...».

لاحظَتْ أنه لم يكن يشعر بالراحة عند مناقشة هذه المواضيع، إذ كلما كان الحوار يسلك هذا الاتجاه، كان يصبح مرتبكاً ومتردداً ومتحفظاً. بشكل عام، لم يكن إرلندور من النوع الذي يتحدث كثيراً، ولربما كان هذا هو سبب شعورها بالارتياح في وجوده. لم يكن يمثّل أو يتظاهر على الإطلاق، ولعله لم يكن يعرف كيف سيتصرف إن أراد محاولة أن يكون مختلفاً إلى حد ما. كان صادقاً كلياً في كل ما يقوله ويفعله. وهذا الأمر كان يجعلها تشعر بأمان افتقدته منذ زمن بعيد. لقد وجدت فيه رجلاً يمكنها الوثوق به.

«آسفة»، ابتسمتْ، «لم أقصد تحويل هذه الجلسة إلى نوع من الاستجواب. ولكن، سيكون الأمر حسناً إن تمكنت من معرفة موقفك. أنت تدرك ذلك».

«تماماً». أحس إرلندور بالتوتر يخف قليلاً بينهما.

قالت: «كل هذا يتطلّب وقتاً، وسنرى ما سيحصل لاحقاً».

«أعتقد أن هذا معقول جداً».

قالت وهي تنهض واقفة: «جيد». وقف إرلندور أيضاً. ثم قالت له شيئاً حول اضطرارها لمقابلة ولديها؛ لكنه لم يسمع جيداً ما قالته لأن

أفكاره كانت تسرح في مكان آخر. ذهبت نحو الباب، وبينما كان يساعدها على ارتداء معطفها أحسَّت بأنه كان يفكِّر في شيء ما. فتحت الباب وسألته إن كان على ما يُرام.

فنظر إرلندور إليها وقال: «لا تذهبي».

توقفت عند مدخل الباب.

قال إرلندور: «ابقي معي».

«هل أنت متأكد؟».

«أجل. لا تذهبي».

وقفت بلا حراك وهي تنظر إليه، فاقترب منها، وأدخلها إلى المنزل مجدداً، ثم أغلق الباب، وبدأ يساعدها على خلع معطفها ولم تُبدِ اعتراضاً.

أخذا يمرحان بنعومة ورِقة. شعرا بشيء من الارتباك والتردد، لكنهما تغلَّبا على هذا الشعور تدريجياً. أخبرته أنه الرجل الثاني في حياتها كلها.

وبينما كانا مستلقيين على السرير، نظر إلى السقف، وأخبرها أنه كان يذهب أحياناً إلى شرق آيسلندا، إلى منزل طفولته الذي لم يكن فيه أي شيء سوى الجدران، وسقف شبه متداعٍ، ودلالات ضئيلة إلى أن عائلته كانت في ما مضى تعيش فيه. آثار حياة زالت. كانت هناك رقع باقية من سجادة مزخرفة يتذكرها جيداً، وخزانات مكسورة في المطبخ، وحافات نوافذ استندت عليها أيادٍ صغيرة ذات يوم. أخبرها كم كان يشعر بالسعادة لوجوده هناك، ولاستلقائه مع ذكرياته، وإعادته اكتشاف عالم كان مليئاً بالنور والهدوء.

شدَّت فالجيردر على يده.

وبدأ يحكي لها قصةً حول مِحَن فتاة شابة تركت منزل أمها من دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن المكان الذي كانت تقصده. كانت ضعيفة الإرادة، وهذا مفهوم ربما، لأنها لم تُعطَ مطلقاً ما كانت تتوق إليه طوال حياتها. كانت تشعر بوجود شيء ناقص في حياتها، وتشعر بإحساس بالخيانة. شقت طريقها بتهوُّر؛ مدفوعةً بحافز غريب لتدمير ذاتها، وغرقت شيئاً فشيئاً إلى أن لم تعد قادرةً على مواصلة هذه الإبادة الذاتية. وعندما عُثر عليها، أُنقذت وخضعت للعلاج، ولكن ما إن استعادت عافيتها حتى غادرت مجدداً من دون أي إنذار. هامت على وجهها في العواصف، والتجأت في بعض الأحيان إلى أبيها الذي بذل كل ما بوسعه لإبعادها عن الطقس العاصف، لكنها لم تصغِ إليه ورحلت مجدداً كما لو أن القدر لم يكن يحمل لها إلا الدمار.

نظرت فالجيردر إليه.

«لا أحد يعلم أين هي الآن. إنها لا تزال على قيد الحياة؛ لأنني كنت سأعرف إن ماتت. أنا أنتظر ذلك الخبر. لقد ذهبت إلى قلب العاصفة مراراً، وعثرت عليها وأعدتها رغماً عنها إلى المنزل، وحاولت مساعدتها، لكنني أشك في قدرة أي شخص على مساعدتها».

بعد فترة صمت طويلة، قالت فالجيردر: «لا تكن متأكداً جداً من ذلك».

رن الهاتف بجانب سريره. لم يشأ إرلندور الرد، لكن فالجيردر قالت إن الأمر لا بد أن يكون مهماً كي يتصل به شخص ما في ذلك الوقت المتأخر من الليل. مدَّ يده ليأخذ السماعة متمتماً بأنه لا بد أن يكون سيغوردور أولي مع واحدة من أفكاره الغبية.

استغرق بضع لحظات حتى أدرك أن الرجل المتصل هو هارالدر. كان يتصل به من دار المسنين.

قال إرلندور: «ماذا تريد؟».

قال هارالدر: «سأخبرك بما حدث».

«لماذا؟».

«هل تريد أن تسمع الحقيقة أم لا؟».

قال إرلندور: «اهدأ. سأمرُّ بك غداً. هل هذا يناسبك؟».

«افعلْ ذلك إذاً». وأعاد السماعة إلى مكانها بقوّة.

33

وضع الأوراق التي كتبها في مغلف كبير، وكتب العنوان عليه، ثم وضعه على منضدته. مرَّر يده عليه مفكِّراً في القصة الموجودة داخله. لقد تصارع مع نفسه حول ما إذا كان ينبغي عليه شرح ما حدث أم لا، لكنه وجد في النهاية أن لا مفرَّ من ذلك. لقد وُجدت الجثة في كلايفارفاتن، وعاجلاً أم آجلاً ستقود التحقيقات إليه. ورغم أنه كان واثقاً بأن الصلة التي تربطه بالجثة تكاد تكون معدومة، وبأن الشرطة لن تتمكن من معرفة الحقيقة كاملةً بدون مساعدته، إلا أنه لم يكن يريد أن يكذب. إذا كان ما سيتركه خلفه هو الحقيقة، فذلك سيكون كافياً بالنسبة إليه.

أُعجب توماس بهانز منذ لقائهما الأول؛ على الرغم من اختلافاتهما. واستمتع بزيارتيه إلى منزل هانز، فضلاً عن تقديره المساعدة التي قدَّمها له هانز في إلقاء الضوء على علاقة إميل مع لوثر وكشْف النقاب عن مسألة أن إميل وإيلونا كان يعرفان بعضهما قبل وصوله إلى لايبزيغ؛ وإن بشكل سطحي. لربما ساعده ذلك على تفسير ما حدث لاحقاً، أو لعل هذه العلاقة عقَّدت المسألة أكثر. لم يكن يدري.

على أي حال، لقد قرر أخيراً أن عليه التحدث مع إميل كي يسأله عن إيلونا ولوثر والخديعة في لايبزيغ. لم يكن متأكداً من أن إميل سيقدر على إعطائه الأجوبة، لكنه كان بحاجة إلى سماع ما كان يعرفه. ولم يكن قادراً على التجسس على مستودع إميل، لأن شرفه لم يكن يسمح له بذلك. لم يكن يريد أن يلعب لعبة الاختباء والبحث.

ولكن، كان هناك دافع آخر يقوده، انبثق من فكرة خطرت في ذهنه بعد زيارته لهانز، وكانت تتصل بعلاقته الشخصية بما حدث، وبدرجة سذاجته وبراءته آنذاك. إذا لم يكن هناك تفسير آخر لما حدث، فقد يكون هو من تسبَّب به. وكان يريد أن يتأكد من ذلك.

ولهذا السبب عاد إلى بيرجستاداستراييتي بعد بضعة أيام من تتبعه للوثر واستراقه النظر إلى المستودع من بعيد. ذهب إلى هناك بعد انتهائه من العمل مباشرة بغية مواجهة إميل. كان الظلام قد بدأ يهبط على المدينة، والطقس بارداً. وشعر بأن الشتاء يقترب.

دخل إلى الباحة الخلفية حيث كان المستودع موجوداً، وبينما كان يقترب لاحظ أن الباب لم يكن مقفلاً، وذلك لأن القفل المنفصل كان

مفتوحاً. دفع الباب ونظر إلى الداخل، فرأى إميل جالساً محني الظهر فوق طاولة العمل، فدخل. كان المستودع مليئاً بتشكيلة من الأشياء البالية التي لم يستطع تمييزها في الظلام. وكان هناك مصباح وحيد معلق فوق الطاولة.

لم يلاحظه إميل إلى أن وقف بجانبه. كانت سترته ملقاة على الكرسي، وكانت تبدو كما لو أنها مُزِّقت نتيجة عراك. كان إميل يتمتم بشيء ما لنفسه وهو يبدو غاضباً. وفجأةً، أحسَّ بوجود شخص ما في المستودع، فرفع عينيه عن خرائطه، وأدار رأسه ببطء، ونظر إلى توماس الذي شاهد إميل يستغرق بعض الوقت لإدراك من يكون.

وأخيراً، قال إميل مع شهقة: «توماس! هل هذا أنت؟».

قال توماس: «مرحباً إميل. كان الباب مفتوحاً».

قال إميل بحيرة: «ماذا تفعل هنا؟! ماذا... كيف عرفت...».

«لحقت بلوثر إلى هنا. تتبعته من آيجيسيدا».

قال إميل بذهول: «تتبعت لوثر؟!». ووقف من دون إبعاده عينيه عن الزائر. «ماذا تفعل هنا؟ لماذا تتبعت لوثر؟». نظر نحو الباب كما لو أنه كان يتوقع المزيد من الضيوف غير المتوقعين. «هل أنت وحدك؟».

«أجل، أنا وحدي».

«لماذا جئت إلى هنا؟».

«أنت تذكر إيلونا، في لايبزيغ».

«إيلونا؟!».

«كنا نخرج معاً، أنا وإيلونا».

«بالطبع أذكر إيلونا. ماذا بشأنها؟».

«هل يمكنك أن تخبرني بما حدث لها؟ هل يمكنك أن تخبرني بذلك الآن بعد كل تلك السنين؟ هل تعرف؟».

رغم أن توماس حاول الحفاظ على هدوئه وعدم إظهار انفعاله الزائد، إلا أن محاولته كانت بلا جدوى، وذلك لأنه كان مقروءاً مثل كتاب مفتوح. كانت آثار السنوات الطويلة التي أمضاها معذَّباً وحزيناً على الفتاة التي أحبَّها ثم فَقَدَها باديةً بجلاء على وجهه.

قال إميل: «عمَّ تتحدث؟».

«عن إيلونا».

«أما زلت تفكر في إيلونا حتى الآن؟».

«هل تعلم ماذا حدث لها؟».

«لا أعلم أي شيء. لا أعلم عمّا تتحدث. لا ينبغي عليك التواجد هنا.

يجب عليك أن تغادر».

نظر توماس حوله في أرجاء المستودع وقال: «ماذا تفعل؟ لماذا هذا المستودع؟ متى عدت إلى البلد؟».

قال إميل وهو ينظر بقلق إلى الباب: «ينبغي عليك المغادرة». ثم أضاف بعد لحظة: «هل يعلم أحد غيرك أنني هنا؟ هل يعلم أحد حول وجودي هنا؟».

كرر توماس سؤاله: «هل يمكنك أن تخبرني بما حصل لإيلونا؟».

نظر إميل إليه، وفجأة فقد أعصابه قائلاً: «اغرب عن وجهي، اخرجْ! لا يمكنني مساعدتك في هذا الهراء».

دفع إميل توماس، لكنّ هذا الأخير وقف بثبات.

قال توماس: «علام حصلت مقابل الإبلاغ عن إيلونا؟ ماذا منحوك يا فتاهم الذهبي؟ هل أعطوك نقوداً؟ هل حصلت على علامات جيدة؟ هل حصلت على عمل جيد معهم؟».

قال إميل: «لا أعلم عمّا تتحدث». في البداية، كان يتحدث بصوت شبه هامس، لكنه رفع صوته الآن.

لقد تغيَّر إميل كثيراً منذ لاييزيغ. كان لا يزال نحيلاً كما في السابق، لكنه بدا غير معافى، مع حلقتين داكنتين حول عينيه، وأصابع مصفرّة من التدخين، وصوت خشن، وشعر خفيف. كانت تفاحة آدم تتحرك صعوداً ونزولاً عندما كان يتحدث. لقد مرَّ زمن طويل على آخر مرّة شاهده فيها، ولم يكن يتذكره إلاّ كشاب. لكنه الآن بدا منهكاً وهزيلاً، ومع لحية لم تُحلَق منذ عدة أيام، كان يبدو مثل شخص ثمل.

قال توماس: «كان ذلك خطئي، أليس كذلك؟».

قال إميل وهو يقترب منه كي يدفعه: «هلاّ كففت عن هذا الغباء الشديد. اخرج! انسَ الأمر».

ابتعد توماس عن طريقه وقال: «أنا من أخبرك بما كانت إيلونا تفعله هناك، أليس كذلك؟ أنا من جعلك تنتبه إليها. ولو لم أخبرك، لربما تمكَّنَتْ من الهرب، وما كانوا ليعلموا بشأن الاجتماعات، وما كانوا ليصوّرونا».

«اخرج من هنا!».

«لقد تحدثت مع هانز. أخبرني عنكما أنت ولوثر، وكيف جعل لوثر وشباب ألمانيا الحر الجامعة تكافئك بعلامات جيدة. لم تكن يوماً ذلك الطالب الجيد، أليس كذلك يا إميل؟ لم أشاهدك قطّ تفتح كتاباً. على ماذا حصلت مقابل الإبلاغ عن رفاقك؟ عن أصدقائك؟! ماذا أعطوك مقابل

التجسس على أصدقائك؟».

«لم تستطع تحويلي بوعظها، لكنك وقعت في حبائلها». ثم صرخ بغضب: «إيلونا كانت خائنة».

«ألأنها تجاهلتك؟ ألأنها لم ترغب في أن تكون لها أي علاقة بك؟ هل كان ذلك مؤلماً؟ هل كان رفضها لك مؤلماً جداً؟».

قال إميل مع ابتسامة خفيفة: «لا أعلم ما الذي وجدته فيك. لا أعلم ما الذي وجدته في المثالي الذكي الذي كان يريد أن يجعل آيسلندا اشتراكية لكنه غيَّر رأيه في اللحظة التي أدخلته فيها إلى فراشها. لا أعلم ما هو الشيء الذي رأته فيك؟».

قال توماس: «ولهذا السبب أردتَ الانتقام، أليس كذلك؟ الانتقام منها؟».

قال إميل: «كنتما تستحقان بعضكما».

بينما كان توماس يحدِّق فيه اجتاحه شعور غريب بالبرودة. صحيح أنه كان يعرف أنه ينظر إلى الشر نفسه الذي رآه في سنوات دراسته، ويعرف أنه كان ينبغي أن يكون مليئاً بالغضب والكره وأن يهاجم إميل، لكنه فجأةً شعر بفقدان الحافز لفعل ذلك. كما شعر بعدم الحاجة لإخراج كل سنوات القلق والخوف وانعدام الأمن وصبِّها عليه. ولم يكن ذلك ناجماً فقط عن عدم امتلاكه خصلة العنف وعدم دخوله يوماً في أي عراك. كان يعلم أنه كان يجب أن يشعر بغضب هائل يغلي في داخله حيث يجعله يرغب في قتل إميل، بيد أن ذهنه كان فارغاً من كل شيء إلا من البرودة.

تابع إميل كلامه وهو واقف قبالة توماس: «وأنت على حق. إنه أنت؛ أنت الوحيد الذي يجب أن يُلام. أنت من أخبرني بخصوص اجتماعاتها وآرائها وأفكارها المتعلقة بمساعدة الناس على مهاجمة الاشتراكية. أنت. إذا كان هذا ما تريد معرفته، فبوسعي تأكيد ذلك. ما قلته لي هو الذي أدى إلى اعتقال إيلونا! لم أكن أعلم كيف كانت تعمل، وأنت من أخبرني بذلك. هل تذكر؟ بعد ذلك بدأوا بمراقبتها. بعد ذلك استدعوك وحذَّروك. لكن الوقت كان قد فات. لقد خرجت المسألة من أيدينا».

كان توماس يذكر ذلك جيداً. لطالما تساءل عمّا إذا كان قد أخبر شخصاً ما بشيء لم يكن ينبغي عليه إخباره به. كان دائماً واثقاً أنه يستطيع الوثوق في أصدقائه الآيسلنديين. كان واثقاً أنهم لا يتجسسون على بعضهم، وأن المجموعة الصغيرة من الأصدقاء كانت محصنة ضد المراقبة

التفاعلية. كان يعتقد أن الشرطة لم تكن لها علاقة مع الآيسلنديين. واستناداً إلى تلك الثقة أخبرهم حول إيلونا ورفاقها وأفكارهم.

قال توماس كما لو أنه كان يتحدث مع نفسه: «هناك شيء واحد بدأت أفكر فيه عندما انتهى كل شيء ولم يعد بالإمكان تصحيح أي شيء؛ أي بعد مدة طويلة من عودتي إلى آيسلندا. وهو أنني أخبرتك بشأن اجتماعات إيلونا. لا أعرف لماذا، لكنني فعلت ذلك. أعتقد أنني كنت أشجعك والآخرين على الذهاب إلى الاجتماعات. لم تكن ثمة أسرار بيننا نحن الآيسلنديين، وكان بوسعنا مناقشة كل شيء بدون أي قلق».

صمت لبرهة ثم أكمل كلامه: «شخص ما أبلغ عن إيلونا. الجامعة مكان كبير، ويمكن أن يكون أي شخص من فعل ذلك. لم أبدأ في التفكير في احتمال أن يكون واحد منا نحن الآيسلنديين - أحد أصدقائي – من فعل ذلك إلا بعد مدة طويلة جداً».

نظر في عيني إميل وقال: «كنت غبياً لأظن أننا كنا صديقين». وأخفض صوته: «كنا مجرد أولاد؛ بالكاد بلغنا العشرين».

ثم استدار كي يغادر المستودع.

عندها، صرخ إميل من خلفه بغضب: «كانت إيلونا ساقطة قذرة».

في اللحظة التي خرجت فيها هذه الكلمات من فم إميل، شاهد توماس مجرفة في أعلى خزانة صغيرة قديمة مغبرَّة، فأمسك بها واستدار نصف دورة، وهوى بها على رأس إميل بكل ما أوتي من قوة، ورأى كيف انطفأ الضوء من عيني إميل أثناء سقوطه أرضاً.

نظر إلى جسد إميل المتداعي كما لو أنه كان موجوداً في عالم خاص به وحده؛ إلى أن خطرت في ذهنه جملة منسية منذ زمن بعيد.

«المجرفة أفضل أداة لقتلها».

بدأت بركة داكنة من الدم تتشكل على الأرض، فأدرك أنه وجَّه ضربة قاضية إلى إميل. كان منفصلاً كلياً عن العالم الخارجي. راقب بهدوء وسكينة إميل الراقد بلا حراك على الأرض، وبركة الدم الآخذة بالاتساع. كان ينظر إليهما كما لو أنه لم تكن له أي علاقة بذلك؛ فهو لم يأتِ كي يقتل إميل، لم يخطط لقتله. لقد حدث ذلك بدون ذرة تفكير.

لم يعرف كم من الوقت ظلّ متسمّراً في مكانه على ذلك الحال قبل أن يشعر بوجود شخص بجانبه، شخص يتحدث معه، شخص شدَّه وصفعه على خده بشكل خفيف وقال شيئاً غير مفهوم. نظر إلى الرجل لكنه لم يعرفه على الفور. رآه وهو ينحني فوق إميل ويضع إصبعاً على وريده

ليتأكد من وجود أي نبض. كان يعرف أن لا أمل في ذلك. كان يعرف أن إميل قد مات. لقد قتل إميل.

وقف الرجل واستدار نحوه، فعرف من يكون. إنه الرجل الذي لحقه في شوارع ريكيافيك، الرجل الذي قاده إلى إميل.

إنه لوثر.

34

كان كارل أنتونسون في البيت عندما طرقت إيلينبورغ على بابه. أُثير فضوله حالما أخبرته إيلينبورغ أن اكتشاف الهيكل العظمي في كلايفارفاتن دفعهم لإجراء استفسارات حول الطلاب الآيسلنديين في لايبزيغ، فدعاها للدخول. كان كارل وزوجته يستعدان للذهاب إلى ملعب الجولف، لكنه قال لها إن ذلك يمكن تأجيله.

في وقت سابق من ذلك الصباح، اتصلت إيلينبورغ بسيغوردور أولي وسألته عن حالة بيرجثورا، فقال إنها بخير وإن كل شيء يسير بشكل ممتاز.

«وذلك الرجل، هل توقف عن الاتصال بك في الليل؟».

«أسمع منه بين الحين والآخر».

«ألم يكن لديه ميل للانتحار؟».

«من الناحية الباثولوجية». قال سيغوردور أولي، ثم أضاف أن إرلندور ينتظره لأنهما سيذهبان لمقابلة هارالدر في دار المسنين كجزء من بحث إرلندور السخيف عن ليوبولد. لقد رُفض الطلب لإجراء بحث شامل في الأرض في موزفيلسباير؛ الأمر الذي أثار قرف إرلندور.

كان كارل يعيش في رينيميلر، في منزل جميل مقسَّم إلى ثلاث شقق، بالإضافة إلى حديقة كان واضحاً أنها تحظى بعناية بالغة. صافحت زوجته أولريكا - وهي ألمانية - إيلينبورغ بشدة. كانت هيئة الزوجين ممتازة بالنسبة لعمريهما. فكرت إيلينبورغ، لعل الجولف هو السبب. اندهشا بشدة من هذه الزيارة غير المتوقعة، ونظرا إلى بعضهما باستغراب عندما سمعا السبب.

قال كارل: «هل درس في لايبزيغ ذاك الذي وجدتموه في البحيرة؟».

ذهبت أولريكا إلى المطبخ لتعدَّ القهوة.

قالت إيلينبورغ: «لا نعلم. هل يتذكَّر أي منكما شخصاً اسمه لوثر في لايبزيغ؟».

نظر كارل إلى زوجته التي كانت تقف قرب مدخل باب المطبخ وقال: «إنها تسأل عن لوثر».

«لوثر! ماذا عنه؟».

قال كارل: «إنهم يعتقدون أنه ذاك الذي تم العثور على جثته في البحيرة».

قالت إيلينبورغ: «هذا ليس صحيحاً تماماً. نحن لا نقول ذلك».

قالت أولريكا: «لقد دفعنا له كي يخلصنا من كل العوائق ذات مرة».

«يخلصكم من كل العوائق!».

قال كارل: «عندما جاءت أولريكا إلى آيسلندا معي. كان لديه نفوذ، وكان قادراً على مساعدتنا؛ ولكن مقابل ثمن أمَّنه والداي ووالدا أولريكا في لايبزيغ أيضاً».

«وهل ساعدكما؟».

قال كارل: «كثيراً. وأخذ أتعابه. وأظن أنه ساعد أشخاصاً آخرين أيضاً، وليس نحن فقط».

«هل كان الأمر يتعلق بدفع المال فقط؟».

تبادل كارل وأولريكا النظرات فدخلت إلى المطبخ.

قال كارل: «ذكر أنه قد يتصل بنا لاحقاً كما تعلمين. ولكن، لم يتصل بنا أحد، ولم نهتم بالفكرة مطلقاً. لم تكن لي صلة مع الحزب مطلقاً بعد عودتي إلى آيسلندا. فأنا لم أذهب إلى اجتماعات وأشياء من هذا القبيل. لقد قطعتُ كل شيء يربطني بالسياسة. وأولريكا لم تكن سياسية في أي يوم، إنها تبغض هذه الأشياء».

قالت إيلينبورغ: «أتعني أنهم كانوا سيكلِّفونكما بمهام معينة؟».

قال كارل: «ليست لدي أي فكرة. لم يحدث ذلك مطلقاً، ولم نقابل لوثر مجدداً. عندما نفكر في الماضي، يكون من الصعب أحياناً أن نصدق ما شهدناه في تلك السنوات. كان عالماً مختلفاً كلياً».

قالت أولريكا لدى عودتها للانضمام إليهما من جديد: «كان الآيسلنديون يسمّون ذلك الحزورة. ولطالما اعتقدت أنها طريقة مناسبة لوصف الوضع " .

قالت إيلينبورغ: " هل لديكما أي تواصل مع أصدقائكما من أيام الجامعة؟ " .

قال كارل: " نادراً. في الواقع، نحن نصادف بعضنا في الشارع أحياناً، أو في حفلات بعض الأشخاص " .

قالت إيلينبورغ: " أحد الطلاب كان يُدعى إميل. هل تعرفان أي شيء عنه؟ " .

قال كارل: " لا أظن أنه عاد إلى آيسلندا. كان دائماً يعيش في ألمانيا. لم أره منذ... هل لا يزال على قيد الحياة؟ " .

قالت إيلينبورغ: " لا أعلم " .

قالت أولريكا: " لم يكن يعجبني مطلقاً. كان خسيساً بعض الشيء " .

قال كارل: " كان إميل وحيداً على الدوام. لم يكن يعرف الكثير من الناس. قيل إنه كان ينفِّذ أوامر السلطات. غير أنني لم أرَ قطّ هذا الجانب فيه " .

" ألا تعرف أي شيء آخر عن لوثر ذاك؟ " .

أجاب كارل: " لا، لا شيء " .

" هل لديكما أي صور للطلاب من لايبزيغ؟ للوثر أو أي شخص آخر؟ " .

قال كارل: " ليس لوثر، وقطعاً ليس إميل. لكنني أحتفظ بصورة لتوماس وصديقته إيلونا. كانت هنغارية " .

وقف كارل وتوجّه نحو خزانة ضخمة في غرفة الجلوس. أخرج ألبوماً قديماً، وقلَّب صفحاته إلى أن وجد الصورة، ثم سلَّمها لإيلينبورغ. كانت لقطة مصوّرة بالأبيض والأسود لشاب وفتاة يمسك كل منهما يد الآخر. كانت الشمس تعكس أشعتها عليهما، وكانا يبتسمان للكاميرا.

قال كارل: " التُقطت أمام توماسكيرتشه. قبل بضعة أشهر من اختفاء إيلونا " .

قالت إيلينبورغ: " سمعت عن ذلك " .

قال كارل: " كنتُ هناك عندما جاءوا ليأخذوها. كان الأمر فظيعاً ووحشياً. لم يعرف أحد ماذا حصل لها، ولا أعتقد أن توماس عرف ذلك يوماً " .

قالت أولريكا: " كانت شجاعة جداً " .

قال كارل: " كانت معارضة. ولم يكن هذا مسموحاً " .

طرق إرلندور على باب غرفة هارالدر في دار المسنين. كان تناول الفطور قد انتهى للتو؛ إذ كان صوت قرقعة الأطباق لا يزال مسموعاً من المقهى. كان سيغوردور أولي معه. سمعا هارالدر يصرخ بشيء ما من الداخل، ففتح إرلندور الباب. كان هارالدر جالساً على سريره، مطاطئ الرأس، ومحدّقاً إلى الأرض.

رفع رأسه عندما دخلا إلى الغرفة، وسأل إرلندور: " من هذا الذي معك؟ " .

فقال إرلندور: " إنه يعمل معي " .

وبدلاً من إلقاء التحية على سيغوردور أولي، رمقه بنظرة محذِّرة. جلس إرلندور على كرسي في مواجهة هارالدار، في حين ظل سيغوردور أولي

واقفاً ومستنداً على الحائط.

فُتح الباب، وأدخل مقيمٌ أبيض الشعر رأسه وقال: " هارالدر، هناك تدريب كورالي في الغرفة الحادية عشرة هذه الليلة " . ثم أغلق الباب من دون أن ينتظر جواباً منه.

حدَّق إرلندور في هارالدر بذهول وقال: " تدريب كورالي! من المؤكد أنك غير مشترك في هذا، أليس كذلك؟ " .

قال هارالدر هازئاً: " تدريب كورالي عبارة مشفّرة تعني سهرة مع الشراب. آمل أنني لا أخيب ظنك " .

رسم سيغوردور أولي ابتسامة عريضة على وجهه. كان يعاني من صعوبة في التركيز، إذ إن ما قاله لإيلينبورغ في ذلك الصباح لم يكن صحيحاً تماماً، حيث أخبر الطبيب بيرجثورا أن نسبة النجاح تساوي خمسين بالمائة فقط. حاولت بيرجثورا أن تبدو إيجابية عندما نقلت الخبر إليه، لكنه كان يعرف أنها كانت تتعذب.

قال هارالدر: " دعنا نبدأ. لعلي لم أخبرك القصة كلها، لكنني لا أعرف لماذا تحتاج لدسّ أنفك في شؤون الآخرين. لكنني... أردت... " .

أحسَّ إرلندور بتردد غير عادي لدى هارالدر عندما رفع رأسه كي ينظر إلى وجه إرلندور.

نظر إلى الأرض مجدداً وتابع كلامه: " لم يحصل جوي على ما يكفي من الأوكسجين عند الولادة. هذا هو السبب. اعتقدوا أن كل شيء كان على ما يُرام، لأنه كان ينمو بشكل طبيعي، ولكن تبيَّن في النهاية أنه كان مختلفاً. فهو لم يكن مثل باقي الأولاد " .

أشار سيغوردور أولي إلى إرلندور بأنه لم يكن يفهم ما يقوله العجوز، فرفع إرلندور كتفيه. لقد تغيَّر شيء ما في هارالدر، لقد أصبح بطريقة ما أكثر لطفاً.

واصل هارالدر كلامه: " تبيَّن أنه كان أبله بعض الشيء. كان بسيطاً وغبياً ولطيفاً من الداخل، لكنه لم يستطع التأقلم، ولم يستطع تعلُّم القراءة. استغرق ظهور ذلك وقتاً طويلاً، ونحن استغرقنا وقتاً طويلاً لتقبُّل الأمر والتكيُّف معه " .

وبعد فترة طويلة من الصمت أحس إرلندور فيها أن هارالدر لن يقول أي شيء آخر، قال إرلندور: " لا بد أن هذا كان صعباً على والديكما " .

أخيراً، قال هارالدر من دون أن يرفع رأسه: " انتهى بي الأمر بالاعتناء

بجوي بعد وفاتهما. كنا نعيش هناك في المزرعة، وبالكاد كنا نؤمِّن قوت يومنا. لم نكن نملك شيئاً لنبيعه سوى الأرض. كانت تساوي الكثير لأنها كانت قريبة جداً من ريكيافيك، وقد حصلنا على مبلغ جيد جداً لدى بيعها. كان بوسعنا شراء شقة مع بقاء كمية من المال لدينا " .

قال سيغوردور أولي بصبر نافد: " بماذا كنتَ ستخبرنا؟ " . فرمقه إرلندور بنظرة حادَّة.

قال هارالدر: " لقد سرق أخي غطاء العجلة من السيارة. هذه هي الجريمة كلها، والآن يمكنكما أن تغادرا وتتركاني وحدي. هذه هي القصة كلها. لا أعلم لماذا تحدثون كل هذه الجلبة من أجلها بعد كل تلك السنين. لقد سرق غطاء عجلة! أي نوع من الجرائم هو هذا؟ " .

قال إرلندور: " هل تتحدث عن الفالكون السوداء؟ " .

" أجل، الفالكون السوداء " .

قال إرلندور: " إذاً، لقد زار ليوبولد مزرعتكما فعلاً. أنت تعترف بذلك الآن " .

هز هارالدر رأسه دلالة على الموافقة.

قال إرلندور بغضب: " هل تعتقد أنك كنت على حق بإخفائك هذه المعلومة طوال حياتك والتسبُّب بمشكلة غير ضرورية للجميع؟ " .

قال هارالدر: " لا تبدأ بوعظي. لن يفيدك ذلك في شيء " .

قال إرلندور: " هناك أشخاص يعانون منذ عقود " .

" لم نفعل له شيئاً. لم يحدث له أي شيء " .

" لقد دمَّرت تحقيق الشرطة " .

قال هارالدر: " حسناً، ضعني في السجن. لن يكون الوضع مختلفاً جداً " .

قال سيغوردور أولي: " ماذا حدث؟ " .

" كان أخي غبيًّا بعض الشيء، لكنه لم يؤذِ ذلك الرجل مطلقاً. فهو لم يكن يتصف بالعنف. وجد تلك الأغطية اللعينة جميلة فسرق أحدها. كان يعتقد أن ثلاثة أغطية تكفي ذلك الرجل " .

قال سيغوردور أولي: " وماذا فعل الرجل؟ " .

تابع هارالد كلامه وهو يحدِّق إلى إرلندور: " كنتم تبحثون عن رجل مفقود، لذا لم أشأ تعقيد الأمور. كنتم ستعقِّدون المسألة لو أنني أخبرتكم أن جوي هو الذي أخذ غطاء العجلة، ثم ستريدون معرفة إن كان جوي هو الذي قتله، وهو ما لم يفعله، لكنكم ما كنتم لتصدقوني، وكنتم

ستأخذون جوي " .

قال سيغوردور أولي مجدداً: " ماذا فعل ذلك الرجل عندما أخذ جوي الغطاء؟ " .

" بدا متوتراً للغاية " .

" إذاً، ماذا حصل؟ " .

" لقد هاجم أخي. ما كان ينبغي عليه فعل ذلك، لأن أخي رغم أنه كان غبياً، إلا أنه قويّ جداً، فرماه مثل كيس من الريش " .

قال إرلندور: " وقتله " .

رفع هارالدر رأسه وقال: " ماذا قلتُ لك منذ قليل؟ " .

قال إرلندور: " لماذا ينبغي علينا تصديقك الآن، بعد أن كنت تكذب طوال تلك السنين؟ " .

" قررت التظاهر بأنه لم يأتِ على الإطلاق، وأننا لم نقابله مطلقاً. كان واضحاً أن هذا ما كان ينبغي علينا فعله. فنحن لم نلمسه مطلقاً؛ باستثناء دفاع جوي عن نفسه. لقد رحل، وكان بخير حينئذ " .

قال سيغوردور أولي: " لماذا ينبغي علينا تصديقك؟ " .

" جوي لم يقتل أحداً. لم يكن قادراً على فعل ذلك. فهو لم يؤذِ ذبابة يوماً. لكنكم لم تكونوا لتصدقوا ذلك. حاولتُ إقناعه بإرجاع الغطاء، لكنه لم يخبرني أين خبَّأه. كان جوي مثل الغراب. كان يحب الأشياء الجميلة، وكانت أغطية العجلات لامعة وجميلة، ولهذا أراد امتلاك واحد؛ بهذه البساطة. ثارت ثائرة الرجل حقاً وهدَّدنا كلينا، ثم اتّجه نحو جوي. حصل بيننا شجار، ثم غادر ولم نره مجدداً " .

قال إرلندور مجدداً: " لماذا يجب عليّ أن أصدقك؟ " .

شخر هارالدر وقال: " لا أكترث البتة إن كنت ستصدق. هذا يعود لك " .

" لماذا لم تخبر الشرطة بهذه القصة المؤثرة عندما كانوا يبحثون عن الرجل؟ " .

" لم يبدُ رجال الشرطة مهتمين كثيراً بأي شيء. فهم لم يسألوا عن أي تفسيرات. فقد أخذوا إفادتي وانتهى الأمر " .

قال إرلندور وهو يفكِّر في نيلز الكسول: " هل رحل الرجل بعد العراك؟ " .

" أجل " .

" مع غطاء عجلة ناقص! " .

" أجل. لقد انطلق سريعاً من دون أن يزعج نفسه بسبب الغطاء " .
" ماذا فعلت به؟ أو هل وجدته أساساً؟ " .
" لقد دفنته. بعد أن بدأتم تسألون عن ذلك الرجل، أخبرني جوي بالمكان الذي وضعه فيه، فقمت بحفر حفرة صغيرة خلف المنزل ودفنته في الأرض. ستجده هناك " .
قال إرلندور: " حسناً. سنلقي نظرة خلف المنزل، وسنرى إن كان باستطاعتنا إيجاده. لكنني ما زلت أعتقد أنك تكذب علينا " .
قال هارالدر: " لا أكترث. يمكنك الاعتقاد كما تشاء " .
قال إرلندور: " هل هناك أي شيء آخر؟ " .
عندما ظل هارالدر صامتاً، وقف إرلندور وقال: " شكراً، سيكون هذا مفيداً. كان يجب أن يُقال لنا ذلك منذ ثلاثين عاماً، ولكن... " .
قاطعه هارالدر قائلاً: " لقد أسقط محفظته " .
" محفظته!؟ " .
" أثناء الشجار أسقط البائع محفظته. لم نجدها إلا بعد مغادرته؛ حيث كانت سيارته مركونة. جوي رآها وخبَّأها. لم يكن غبياً إلى تلك الدرجة».
قال سيغوردور أولي: «ماذا فعلتما بها؟».
قال هارالد راسماً ابتسامة غامضة مفاجئة على وجهه: «دفنتها مع غطاء العجلة. ستجدونها هناك أيضاً».
«ألم ترغب في إعادتها؟».
«حاولت، لكنني لم أجد الاسم في دليل الهاتف. ثم بدأتم بالسؤال عن ذلك الرجل، ولهذا أخفيتها مع الغطاء».
«أتعني أن اسم ليوبولد لم يكن موجوداً في دليل الهاتف؟».
«لا، ولا الاسم الآخر».
قال سيغوردور أولي: «الاسم الآخر؟! هل كان يملك اسماً آخر؟».
«لم أتمكن من معرفة السبب، لكن بعض الوثائق في محفظته كانت تحمل الاسم الذي قدّم به نفسه لي، ليوبولد، وبعضها الآخر كان يحمل اسماً آخر».
قال إرلندور: «أي اسم؟».
«كان جوي مضحكاً. كان دائماً يتجول بجانب البقعة التي دفنت فيها الغطاء. أحياناً كان يستلقي على الأرض أو يجلس فوق المكان تماماً، لكنه لم يجرؤ مطلقاً على إخراجه. لم يجرؤ مطلقاً على لمسه ثانيةً. كان يعرف

أنه ارتكب خطأً. لقد بكى بين ذراعيّ بعد ذلك الشجار؛ الولد المسكين».

قال سيغوردور أولي: «ما هو ذاك الاسم؟».

«لا أستطيع أن أتذكر. لقد أخبرتكما بكل ما تحتاجان إلى معرفته، فاغربا عن وجهي الآن. اتركاني وشأني».

قاد إرلندور سيارته إلى المزرعة المهجورة القريبة من موزفيلسباير. وبينما كان يمشي خلف المنزل هبَّت ريح خريفية شمالية جعلته يحس بالبرودة فشدَّ عليه معطفه. ذات يوم كان هناك سياج حول الأرض، لكنه حُطِّم منذ زمن طويل، وصارت الأرض مليئة بالأعشاب. قبل مغادرتهما، أعطاهما هارالدر وصفاً تفصيلياً للمكان الذي دفن فيه الغطاء.

أخذ إرلندور مجرفة من منزل المزرعة، وعدَّ الخطوات بدءاً من الجدار ثم بدأ الحفر. جعله الحفر يشعر بالحر، فاستراح قليلاً وأشعل سيجارة. ثم واصل الحفر حتى وصل إلى عمق متر واحد، لكنه لم يجد أثراً للغطاء فبدأ يوسِّع الحفرة. أخذ استراحة أخرى. لقد مضى زمن طويل على آخر مرة قام فيها بعمل يدوي. ودخَّن سيجارة ثانية.

وبعد عشر دقائق، سمع صوت ارتطام بشيء معدني عندما غرز المجرفة في الأرض، فعلم أنه وجد غطاء عجلة الفالكون السوداء.

حفر بحرص حوله، ثم نزل على ركبتيه وراح يزيل التراب بيديه. وسرعان ما ظهر الغطاء فرفعه بحذر من بين التراب. كان من الواضح أن الغطاء ينتمي لسيارة فورد فالكون، رغم أن الصدأ كان يغطيه. وقف إرلندور ونقره على الجدار فتساقط التراب منه مصدراً صوت رنين.

وضعه إرلندور جانباً وحدَّق في الحفرة، ثم ركع وبدأ يزيل التراب بيديه من جديد.

كل ما أخبره به هارالدر كان صحيحاً. وجد إرلندور المحفظة في مكان قريب فأخرجها ونهض واقفاً. كانت محفظة جلدية سوداء طويلة وعادية. لكنها كانت مهترئة بسبب رطوبة الأرض، ولهذا كان ينبغي عليه التعامل معها بحذر. عندما فتحها رأى دفتر شيكات، وبضع أوراق نقدية آيسلندية سُحبت من التداول منذ مدة طويلة، وبضع قصاصات ورقية ورخصة قيادة باسم ليوبولد أتلفت الرطوبة صورتها تماماً. وفي جيب آخر وجد بطاقة أخرى كانت تبدو مثل قيادة أجنبية، لكن الصورة لم تكن متضررة جداً. نظر إليها لكنه لم يتمكن من معرفة الرجل.

كانت الرخصة على حد علم إرلندور صادرة من ألمانيا، لكنها كانت

في حالة سيئة؛ حيث لم يكن بالإمكان تمييز إلا بضع كلمات هنا وهناك. كان اسم مالكها واضحاً، أما كنيته فلا. وقف إرلندور حاملاً المحفظة بيده وابتسم.

لقد عرف الاسم الموجود على رخصة القيادة.

إميل.

35

هزَّه لوثر وايزر وصرخ في وجهه وصفعه عدة مرات على وجهه إلى أن استعاد وعيه، ورأى كيف انتشرت بركة الدم تحت رأس إميل على الأرض الإسمنتية القذرة. نظر إلى وجه لوثر وقال: «لقد قتلتُ إميل».

قال لوثر بصوت هامس: «ماذا حصل؟ لماذا هاجمته؟ ماذا تعرف عنه؟ كيف وجدت مكانه؟ ماذا تفعل هنا يا توماس؟».

«لقد تبعتك. رأيتك وتتبعتك. والآن قتلتُه. لقد قال شيئاً سيئاً عن إيلونا؟».

«هل ما زلت تفكر فيها؟ ألن تنسى ذلك أبداً؟».

ذهب لوثر إلى الباب وأغلقه بحذر. تلفَّت حوله في أرجاء المستودع باحثاً عن شيء ما. كان توماس مسمّراً في مكانه يراقب لوثر كما لو أنه كان في غيبوبة. لقد اعتادت عيناه حينئذ على الظلمة، وبات بوسعه رؤية المستودع من الداخل بشكل أفضل. كان مليئاً بأكداس من الأغراض التالفة القديمة: الكراسي، والأدوات المخصصة للعناية بالحدائق، والأثاث المنزلي، والفُرُش. إضافة إلى قطع متنوعة ومتناثرة من معدات لم يستطع تمييز بعضها. كانت هناك مجاهر، وكاميرات بأحجام مختلفة، ومسجلة كبيرة بدا أنها موصولة بشيء يشبه جهاز إرسال لاسلكياً. ولاحظ أيضاً صوراً فوتوغرافية ملقاةً هناك، لكنه لم يتمكن من رؤيتها بوضوح. وعلى الأرض بجانب الطاولة، كان هناك صندوق أسود كبير عليه أقراص مدرَّجة ذات مؤشرات وأزرار لم يعرف ما هي وظيفته، وبجانبه حقيبة بنية يمكن أن تتسع له. بدا أنه متضرر لأن الأقراص المدرَّجة كانت مكسورة، والغطاء الخلفي كان مفتوحاً ومستلقياً على الأرض.

كان لا يزال مصعوقاً، وفي حالة تشبه الحلم. ما فعله كان غريباً وبعيداً جداً عن التصوُّر، حيث كان لا يزال غير قادر على مواجهته. نظر إلى الجثة الممددة على الأرض، وإلى لوثر الذي كان يهتم بها.

وقال: «ظننت أنني عرفته...».

قال لوثر: «كان بوسع إميل أن يكون سافلاً حقيقياً».

«هل كان هو؟ أهو الذي أخبرك عن إيلونا؟».

«أجل، لقد نبَّهنا إلى اجتماعاتها. كان يعمل لصالحنا في لايبزيغ. في الجامعة. لم يكن يبالي بمن يخونه أو بالأسرار التي يكشفها. حتى إن أعز أصدقائه لم يكونوا بمأمن منه؛ مثلك أنت». قال لوثر ثم وقف ثانيةً.

قال توماس: «كنتُ أعتقد أننا في مأمن. أقصد الآيسلنديين. لم أشك مطلقاً...». توقف في منتصف الجملة. لقد بدأ يستعيد مداركه ويخرج من تلك الحالة التي كان فيها شبه منوّمٍ مغناطيسياً. «لم تكن أفضل منه. لم تكن أنت نفسك أفضل منه. كنت تشبهه تماماً، بل أسوأ منه».

نظرا إلى عيني بعضهما بعضاً.

قال توماس: «هل ينبغي علي أن أخاف منك؟».

لم يكن يشعر بالخوف. أو على الأقل، ليس بعد. لم يكن لوثر يشكِّل أي تهديد له، بل على العكس تماماً، لقد بدا أنه كان يتساءل مسبقاً بخصوص ما كان يجب فعله مع إميل الممدد على الأرض. لم يهاجمه، ولم يأخذ منه المجرفة التي كانت لا تزال بيده.

قال لوثر: «لا، لست بحاجة للخوف مني».

«كيف يمكنني التأكد من ذلك؟».

«أنا أخبرك بذلك».

«لا أستطيع الوثوق في أحد. ينبغي عليك أن تعرف ذلك. أنت علَّمتني ذلك».

قال لوثر وهو يمسك بقضيب المجرفة: «يجب أن تخرج من هنا وتحاول نسيان هذا الأمر. لا تسألني لماذا. سوف أهتم بإميل. لا تذهب وتفعل أي شيء غبي كالاتصال بالشرطة. انسَ الأمر. كما لو أنه لم يحصل مطلقاً. لا تفعل أي شيء غبي».

«لماذا؟ لماذا تساعدني؟ كنت أظن...».

قاطعه لوثر قائلاً: «لا تظن أي شيء. ارحل ولا تذكر هذا الأمر أمام أي شخص. لا علاقة لك بهذا».

أمسك لوثر بقضيب المجرفة بقوة أكبر بينما كانا واقفين قبالة بعضهما.

قال توماس: «بالتأكيد لي علاقة بهذا!».

قال لوثر بصرامة: «لا. انسَ الأمر».

«ماذا تعني بما قلتَه منذ قليل؟».

قال لوثر: «وما هو؟».

«سألتني كيف عرفتُ بأمره وكيف عثرت عليه. هل كان يعيش هنا منذ مدة طويلة؟».

«أتقصد هنا في آيسلندا؟ لا».

«ما الذي يجري؟ ماذا تفعلان معاً؟ ما هذه المعدات كلها في

المستودع؟ وما هذه الصور على الطاولة؟».

ظل لوثر ممسكاً بذراع المجرفة محاولاً نزعها منه، لكن توماس كان يمسك بها بقوة ولم يدعه يأخذها منه.

قال توماس: «ماذا كان إميل يفعل هنا؟ اعتقدتُ أنه كان يعيش في الخارج؛ في ألمانيا الشرقية، وأنه لم يعد مطلقاً إلى آيسلندا بعد الجامعة».

كان لوثر لا يزال أحجية بالنسبة إليه، وأصبح أحجية أكبر في تلك اللحظات. من كان هذا الرجل؟ هل كان مخطئاً بشأن لوثر طوال الوقت؟ وهل لا يزال الوحش المتعجرف نفسه والمخادع الذي عرفه في لايبزيغ؟

قال لوثر: «اذهب إلى المنزل. لا تفكر في الأمر بعد الآن. لا علاقة لك بما حصل. ليس لما حصل في لايبزيغ صلة بهذا الأمر».

قال توماس: «ماذا حدث هناك؟ ماذا حدث في لايبزيغ؟ أخبرني. ماذا فعلوا بإيلونا؟».

نطق لوثر بشتيمة. وبعد لحظات من الصمت، قال: «كنا نحاول دفع الآيسلنديين للعمل لصالحنا؛ كي ترسلوا معلومات لنا. قُبض على اثنين من رجالنا منذ بضع سنوات، وتمّ ترحيلهما بسبب محاولتهما إقناع شخص من ريكيافيك بالتقاط بعض الصور».

«الصور؟!».

«لمنشآت عسكرية في آيسلندا. لا أحد يريد العمل لصالحنا. ولهذا جلبنا إميل كي يفعل ذلك».

«إميل؟».

«لم تكن لديه مشكلة في ذلك».

وعندما لاحظ ملامح عدم التصديق على وجه توماس، بدأ بإخباره عن إميل. كان يبدو وكأنه يحاول إقناعه بأنه يستطيع الوثوق به، وبأنه تغيَّر.

«قدَّمنا له عملاً يسمح له بالتجوال في شتى أنحاء البلد من دون إثارة الشبهات. كان متحمساً جداً للقيام بذلك. لقد بدا كجاسوس حقيقي». ألقى نظرة إلى جثة إميل ثم أضاف: «لعله كان كذلك بالفعل».

«هل كان يُفترَض به تصوير منشآت عسكرية أميركية؟».

«أجل، بل إنه عمل لفترة مؤقتة في أماكن قريبة منها؛ مثل القاعدة الموجودة في هايدارفيال، أو ستوكسنس القريبة من هوفن. وفي فالفيوردر، حيث يوجد مستودع النفط. وعمل في كيفلافيك وأخذ أجهزة تنصت معه. كان يبيع آليات زراعية، ولهذا كان دائماً يملك سبباً للتواجد في مكان ما. وكنا قد أعددنا له دوراً أكبر للمستقبل».

«مثل ماذا؟».

قال لوثر: «الاحتمالات بلا نهاية».

«وماذا عنك؟ لماذا تخبرني بكل هذا؟ ألستَ واحداً منهم؟».

«بلى، أنا واحد منهم. سأهتم بأمر إميل. انسَ كل هذا، ولا تأتِ على ذكره أمام أحد. هل هذا مفهوم؟! أبداً».

«ألم يكن هناك خطر بأن يُكتشَف أمره؟».

قال لوثر: «لقد أعدَّ تغطية له. قلنا له إن ذلك ليس ضرورياً، لكنه أراد استخدام هوية مزيفة. وإذا تعرَّف شخص ما عليه كإميل فقد كان سيقول إنه جاء في زيارة سريعة إلى البلد، وفي ما عدا ذلك، كان يسمّي نفسه ليوبولد. لا أدري من أين حلم بذلك الاسم. كان إميل يستمتع بخداع الناس. كان يشعر بمتعة منحرفة بالتظاهر بأنه شخص آخر».

«ماذا ستفعل به؟».

«أحياناً نتخلص من النفايات في بحيرة صغيرة تقع جنوب غرب المدينة. لن يشكل أي مشكلة».

«لقد كرهتك لسنوات يا لوثر. هل كنت تعرف ذلك؟».

«إذا شئت الصدق، لقد نسيتك يا توماس. كانت إيلونا مشكلة، وكانت سُتكتَشَف عاجلاً أم آجلاً. ما كنتُ أفعله لا صلة له بالموضوع، لا صلة له على الإطلاق».

«كيف تعرف أنني لن أتوجه مباشرة إلى الشرطة؟».

«لأنك لا تشعر بالذنب حياله. لهذا السبب ينبغي عليك نسيان الأمر. ولهذا السبب، هذا لم يحدث مطلقاً. أنا لن أقول أي شيء، وأنت ستنسى أنني كنت موجوداً».

«ولكن...».

«ولكن ماذا؟ هل ستعترف بارتكابك جريمة قتل؟ لا تكن بهذه الحماقة».

«كنا شباناً، مجرّد شبان! كيف انتهى بنا الأمر على هذا النحو؟».

قال لوثر: «نحن نحاول مواصلة العيش فقط. هذا كل ما يمكننا فعله».

«ماذا ستقول لهم بشأن إميل؟ ماذا ستقول لهم بشأن ما حدث؟».

«سأقول لهم إنني وجدته على هذا الحال ولا علم لي بما حصل. لكن الشيء الأساسي هو التخلص منه. إنهم يفهمون ذلك. والآن ارحل! اخرج قبل أن أغيِّر رأيي!».

«هل تعرف ماذا حلَّ بإيلونا؟ هل يمكنك أن تخبرني بما حدث لها؟».

كان قد وصل إلى باب المستودع عندما استدار وطرح هذا السؤال الذي عذَّبه طويلاً، وكأن الإجابة عليه كانت ستساعده على تقبُّل تلك الأحداث التي لم يكن بالإمكان تغييرها.

قال لوثر: «لا أعلم الكثير. سمعت أنها حاولت الهرب. أُخذت إلى مستشفى، وهذا كل ما أعرفه».

«ولكن، لماذا اعتُقلت؟».

«أنت تعرف ذلك تماماً. لقد جازفت وكانت تعرف العواقب. كانت خطرة؛ لقد حرّضت على التمرد، وعملت ضدهم. وكانت لديهم خبرة من انتفاضة 1953 . لم يكونوا ليدعوا ذلك يحدث مجدداً».

«ولكن...».

«كانت تعرف المخاطر التي كانت تقدم عليها».

«ماذا حصل لها؟».

«توقف عن هذا الأمر واخرج!».

«هل ماتت؟».

قال لوثر وهو ينظر مفكراً إلى الصندوق الأسود المعطوب: «لا بد أنها ماتت». نظر إلى الطاولة فلاحظ مفاتيح السيارة. كان شعار فورد معلَّقاً بالحلقة.

قال لوثر، كما لو أنه كان يتحدث مع نفسه: «سنجعل الشرطة تعتقد أنه غادر المدينة. يجب أن أقنع من أعمل معهم. قد يكون هذا صعباً. فهم لم يعودوا يصدِّقون كلمة واحدة مما أقوله لهم».

ابتسم لوثر ثم أضاف قائلاً: «كنتُ شقياً بعض الشيء، وأعتقد أنهم يعرفون ذلك».

36

في كوبافوغر، وقف إرلندور في المرأب ينظر إلى سيارة الفورد فالكون، ثم انحنى وألصق غطاء العجلة بإحدى العجلتين الأماميتين فطابقها تماماً. لقد دُهشت المرأة لدى رؤيتها إرلندور ثانيةً، لكنها سمحت له بالدخول إلى المرأب، وساعدته في إزالة الغطاء الثقيل عن السيارة. وقف إرلندور مجدداً وتأمَّل السطح الانسيابي، والطلاء الأسود اللامع، والمصابيح الخلفية المنحنية، والأثاث الأبيض، والمقود الجميل الكبير، وغطاء العجلة القديم الذي عاد إلى مكانه بعد كل تلك السنين، وفجأةً اجتاحه دافع قوي. لم يشعر بتلك الرغبة في أي شيء منذ زمن طويل.

سألته المرأة: «هل هذا هو الغطاء الأصلي؟».

«أجل. لقد وجدناه».

«هذا إنجاز فعلاً».

قال إرلندور: «هل تظنين أنها لا تزال صالحة للسير على الطرقات؟».

«كانت كذلك على حد علمي. لماذا تسأل؟».

«إنها سيارة مميزة حقاً. كنت أتساءل... إن كانت للبيع...».

قالت المرأة: «للبيع؟!! إنني أحاول التخلص منها منذ وفاة زوجي، لكن أحداً لم يُبدِ أي اهتمام بها. حتى إنني نشرت إعلاناً بخصوص ذلك، لكنني لم أحصل إلا على اتصالات من معتوهين مسنّين غير مستعدين للدفع. كانوا يريدون أن أعطيهم إيّاها فقط. سأكون ملعونة إن أعطيتهم هذه السيارة!».

قال إرلندور: «كم تريدين ثمناً لها؟».

«ألا تحتاج للتأكد مما إذا كانت تقلع أساساً وهذا النوع من الأشياء؟ بوسعك بكل سرور أخذها لبضعة أيام. أحتاج للتحدث مع الولدين. إنهما يعلمان أكثر مني حول هذه المسائل. لا أعرف حتى أبسط الأشياء حول السيارات. كل ما أعرفه هو أنني لن أهبَ هذه السيارة. أريد ثمناً مناسباً لها».

تحوَّلت أفكار إرلندور إلى سيارته اليابانية القديمة المتداعية بفعل الصدأ. لم يهتم يوماً بالممتلكات، ولم يكن يرى فائدة في تجميع أغراض لا حياة فيها، ولكن كان هناك شيء ما بخصوص هذه الفالكون أثار اهتمامه. لعله تاريخ السيارة وارتباطها بقضية غامضة عمرها عقود حول شخص مفقود.

لم يستطع سيغوردور أولي إخفاء دهشته عندما أقلَّه إرلندور في

استراحة الغداء في اليوم التالي. كانت الفالكون صالحة للاستعمال تماماً. أخبرته المرأة أن ولديها كانا يأتيان بشكل منتظم إلى كوبافوغر للتأكد من أن السيارة تدور بشكل سلس. اتّجه إرلندور مباشرةً إلى مرأب خاص بسيارات الفورد، وفحصها وشحَّمها وعزلها ضد الصدأ وأصلح أدواتها الكهربائية. قيل له إن السيارة كانت ممتازة كأي سيارة جديدة، فالمقاعد لا تزال بحال جيدة، وجميع أدواتها تعمل، ووضْع المحرك مقبول رغم ندرة تشغيله.

قال سيغوردور أولي حال دخوله إلى السيارة: «بماذا تفكر؟».

«بماذا أفكر؟».

«ما الذي تنوي فعله بهذه السيارة؟».

«قيادتها».

«هل يُسمَح لك بفعل ذلك؟ أليست دليلاً؟».

«سنكتشف ذلك».

كانا ذاهبين لرؤية أحد الطلاب من لايبزيغ، وهو توماس الذي أخبرهم هانز عنه. في ذلك الصباح، زار إرلندور ماريون فوجده في حال جيدة، حيث سأله عن قضية كلايفارفاتن وإيفا ليند.

قال رئيسه القديم: «ألم تجد ابنتك بعد؟».

قال إرلندور: «لا. لا أعلم شيئاً عنها».

أخبر سيغوردور أولي إرلندور أنه بحث عن أنشطة ستاسي على الإنترنت، ووجد أن ألمانيا الشرقية كانت أقرب من أي بلد آخر إلى الانخراط في مراقبة شبه كلية لمواطنيها. كانت شرطة الأمن تملك مقرات رئيسة لها في 41 مبنىً، وتستخدم 1,181 منزلاً من أجل عملائها، و350 منزلاً صيفياً، و98 صالة رياضية، و18,000 شقة من أجل اجتماعات تجسسية، و97,000 موظف يعمل 2,171 شخصاً منهم في قراءة البريد، و1,486 موظفاً في زرع أجهزة التنصت على الهواتف، و8,426 موظفاً في الاستماع للمكالمات الهاتفية والبرامج الإذاعية. وكانت ستاسي تملك أكثر من 100,000 متعاون ناشط ولكن غير رسمي، وكان 1,000,000 شخص يزوِّدون الشرطة بالمعلومات بين الحين والآخر، وجرى تجميع تقارير حول 6,000,000 شخص، وكان يوجد قسم وحيد في ستاسي مكلَّف بمهمة وحيدة؛ وهي مراقبة أفراد شرطة الأمن الآخرين.

انتهى سيغوردور أولي من قول هذه المعلومات التفصيلية لإرلندور مع وصولهما إلى باب منزل توماس المكوَّن من طابق واحد وقبو. كان المنزل

بحاجة للإصلاح، فقد كان السطح الحديدي المموَّج صدئاً بالكامل، والجدران مشققة، فضلاً عن أنها لم تُطلَ منذ مدة طويلة، والحديقة مغطاة بالأعشاب. لكن موقع المنزل كان جميلاً، حيث كان يطلُّ على الشاطئ الواقع في الجهة الغربية من ريكيافيك. قرع سيغوردور أولي جرس الباب للمرة الثالثة.

شاهد إرلندور سفينة في الأفق، ورجلاً وامرأة يمشيان بسرعة على الرصيف المحاذي للمنزل. كان الرجل متقدماً قليلاً على المرأة التي كانت تبذل قصارى جهدها للحاق به. وكانا يتحدثان؛ الرجل من وراء كتفه والمرأة بصوت عالٍ كي يتمكَّن من سماعها. لم يلاحظ أي منهما وجود رجلي شرطة أمام باب المنزل.

قال سيغوردور أولي بينما كان يقرع الجرس مجدداً: «إذاً، هل هذا يعني أن إميل وليوبولد كانا الشخص نفسه؟». كان إرلندور قد أخبره للتو عن اكتشافه في مزرعة الأخوين القريبة من موزفيلسباير.

قال إرلندور: «يبدو ذلك».

«هل هو الرجل في البحيرة؟».

«هذا محتمل».

كان توماس في القبو عندما سمع الجرس. كان يعلم أن القادمين من الشرطة. فقد شاهد من خلال نافذة القبو رجلين يترجّلان من سيارة سوداء قديمة. كانت الصدفة المحضة هي التي جعلتهما يأتيان في تلك اللحظة بالذات. كان ينتظرهم منذ الربيع، وطوال الصيف، وها قد حلَّ الخريف الآن. كان واثقاً بأنهم سيأتون في النهاية.

نظر عبر نافذة القبو وفكَّر في إيلونا. لقد وقفا ذات مرة تحت تمثال باخ المجاور لتوماسكيرتشه في يوم صيفي جميل، ووضع كل منهما ذراعه حول الآخر. كانا وحيدين في العالم؛ رغم أن الناس كانوا يحيطون بهما من كل جانب؛ وكذلك حافلات الترام والسيارات.

أمسك بالمسدس، وكان بريطانياً من الحرب العالمية الثانية. لقد أهداه جندي بريطاني لوالده الذي أعطاه إيّاه بدوره، بالإضافة إلى بعض الذخيرة. لقد شحَّمه ونظَّفه ولمّعه، وذهب منذ بضعة أيام إلى محمية هايدمورك الطبيعية من أجل اختباره. رفع المسدس وصوَّب الفوّهة إلى صدغه. لقد بقيت فيه طلقة واحدة فقط.

نظرت إيلونا إلى البرج وقالت: «أنت توماسي». وقبَّلته.

كان باخ فوقهما، صامتاً كالقبر، لكنه أحسَّ بابتسامة ترتسم على شفتي التمثال.

قال توماس: «إلى الأبد. سأكون توماسك إلى الأبد».

«من يكون هذا الرجل؟». قال سيغوردور أولي الواقف مع إرلندور عند عتبة الباب. «هل هو مهم؟».

قال إرلندور: «أعرف فقط ما أخبرنا إياه هانز عنه. كان في لايبزيغ، وكانت لديه صديقة هناك».

قرع الجرس مجدداً وانتظرا.

فجأةً، بلغ آذانهما بالكاد صوت يشبه صوت طلق ناري؛ إذ كان أكثر شبهاً بصوت خبطة آتية من داخل المنزل، مثل ضربة مطرقة على جدار.

نظر إرلندور إلى سيغوردور أولي وقال: «هل سمعت ذلك؟».

قال سيغوردور أولي: «يوجد شخص في الداخل».

طرق إرلندور على الباب وأدار المقبض فانفتح. دخلا وناديا لكنهما لم يلقيا رداً. شاهدا الباب والسلَّم المؤدي إلى القبو. نزل إرلندور بحذر على درجات السلَّم، فرأى رجلاً ممدداً على الأرض وبجانبه مسدس قديم جداً.

قال سيغوردور أولي حالما وصل إلى القبو: «هناك مغلف موجَّه إلينا». كان يحمل مغلَّفاً أصفر سميكاً كُتب عليه «شرطة».

وعندما رأى الرجل الممدد على الأرض، قال: «أوه».

قال إرلندور كما لو أنه كان يتحدث مع نفسه: «لماذا فعلتَ ذلك؟».

اقترب من الجثة وحدَّق في توماس، ثم قال بصوت هامس: «لماذا؟».

زار إرلندور صديقة الرجل الذي كان يدعو نفسه ليوبولد لكن اسمه الحقيقي كان إميل، وأخبرها بأن الهيكل العظمي الذي وُجد في كلايفارفاتن كان بالفعل يعود للشخص الذي أحبَّتْه ذات يوم قبل أن يختفي من حياتها من دون أن يترك أي أثر. أمضى مدة طويلة جالساً في غرفة جلوسها وهو يخبرها عن القصة التي كتبها توماس وتركها للشرطة قبل أن ينزل إلى القبو، وأجاب على أسئلتها قدر استطاعته. تلقَّت الخبر بهدوء، وظلت تعابيرها كما هي عندما أخبرها إرلندور أن إميل كان على الأرجح يعمل سراً لصالح الألمان الشرقيين.

ورغم أن قصته أدهشتها، إلا أن إرلندور كان يعلم أن السؤال الذي كانت تفكر فيه قُبيل مغادرته لا يتعلق بما كان إميل يفعله، ومن كان.

ولكن، لم يكن باستطاعته الإجابة على السؤال الذي كان يلح عليها أكثر من أي سؤال آخر: هل أحبَّها؟ أو هل استخدمها ببساطة كحجة غياب؟

حاولت أن تصوغ السؤال في كلمات قبل مغادرته، وأحسَّ إرلندور كم كان ذلك شاقاً عليها. كانت تحاول منع دموعها من الانهمار.

وضع إرلندور ذراعه على كتفها وقال: «أنت تعرفين ذلك. أنت تعرفين ذلك في داخلك، أليس كذلك؟».

بعد ذلك بفترة قصيرة، عاد سيغوردور أولي إلى المنزل من العمل، فوجد بيرجثورا واقفةً بارتباك وعجز في غرفة الجلوس وهي تنظر إليه بعينين حزينتين. أدرك على الفور ما حدث، فهرع إليها كي يواسيها، لكنها انفجرت في نوبة بكاء حادة جعلت جسدها بأكمله يرتجف. كان المذياع يبث بلاغاً للشرطة حول رجل مفقود في منتصف العمر. تلا البلاغ وصفٌ موجزٌ للرجل. تخيَّل سيغوردور أولي امرأة في متجر تمسك بسلَّة من الفراولة الطازجة.

37

عندما حلَّ الشتاء جالباً معه رياحاً شمالية شديدة البرودة وثلجاً عاصفاً، قاد إرلندور سيارته ذات صباح إلى البحيرة حيث وُجد هيكل إميل العظمي في ذلك الربيع. كانت حركة المرور خفيفة حول البحيرة. ركن إرلندور الفورد فالكون بجانب الطريق، ونزل إلى حافة المياه. لقد قرأ في الصحف أن البحيرة توقفت عن تصريف مياهها وبدأت بالامتلاء من جديد. وتوقع خبراء من هيئة الطاقة أنها ستبلغ حجمها السابق في نهاية المطاف. نظر إرلندور إلى بركة لامبهاجاتيورن القريبة التي جفَّت كاشفةً عن قعر طيني أحمر، وإلى جرف سيدري - ستابي الصخري الناتئ من داخل البحيرة، وإلى سلسلة الجبال المحيطة، وشعر بالذهول لكون هذه البحيرة الهادئة كانت ذات يوم موقعاً للتجسس في آيسلندا.

راقب المياه التي حرّكتها الريح الشمالية، وقال لنفسه إن كل شيء سيعود إلى وضعه الطبيعي هنا. لعل العناية الإلهية هي التي قررت كل شيء. وربما كانت الغاية الوحيدة من تناقص مياه البحيرة هي الكشف عن هذه الجريمة القديمة. سرعان ما ستمتلئ هذه البحيرة العميقة والباردة من جديد في الموقع الذي رقد فيه الهيكل العظمي ذات يوم، حافظاً معه قصة حب وخيانة في بلد بعيد.

لقد قرأ وأعاد قراءة القصة التي كتبها توماس قبل انتحاره. قرأ حول لوثر وإميل والطلاب الآيسلنديين والنظام الذي صادفوه؛ النظام الوحشي والغامض والمحتوم بالانهيار والاندثار. قرأ عن ذكريات توماس حول إيلونا وعلاقتهما القصيرة، وحول حبه لها وللطفل الذي كانا ينتظرانه ولم يره مطلقاً، وشعر بتعاطف عميق مع ذلك الرجل الذي لم يقابله قط، وإنما وجده مستلقياً وسط بركة من دمائه وبجانبه مسدس قديم. لربما كان ذلك هو المخرج الوحيد بالنسبة لتوماس.

تبيَّن له أنه لم يكن هناك أحد يفتقد إميل؛ باستثناء المرأة التي كانت تعرفه باسم ليوبولد. كان إميل هو الولد الوحيد لعائلة قليلة الأقارب. وعندما كان في لايبزيغ، ظل يراسل ابن عم له حتى منتصف الستينيات، ولكن في فترات متباعدة جداً. وعندما سأل إرلندور ابنَ عمه هذا عن إميل، كان قد نسي أن له قريباً يُدعى إميل.

قدَّمت السفارة الأميركية صورة للوثر من الفترة التي كان يخدم فيها كملحق دبلوماسي في النرويج. لم تتذكر صديقة إميل أنها رأت الرجل

صاحب الصورة من قبل. وقدَّمت السفارة الألمانية في ريكيافيك صورة قديمة له أيضاً كاشفةً لهم عن اشتباهها في أنه كان عميلاً مزدوجاً، ويُحتمَل أنه توفي في سجن يقع خارج دريسدن في وقت ما قبل العام 1978 .

سمع إرلندور صوتاً يقول من ورائه: «إنها تعود من جديد». التفت فرأى امرأة ترتدي معطفاً سميكاً وتبتسم له. أحسَّ بأنه يعرفها، لكنه لم يستطع تمييز هويتها بالضبط.

قال إرلندور: «عفواً؟».

«أنا سونا. العالمة المائية. لقد وجدت الهيكل العظمي في الربيع. لعلك لا تذكرني».

«أوه أجل، تذكرتك».

قالت وهي تلتفت حولها: «أين الرجل الآخر الذي كان معك؟».

«تقصدين سيغوردور أولي. أعتقد أنه في العمل».

«هل اكتشفتم من هو؟».

قال إرلندور: «نوعاً ما».

«لم أشاهد ذلك في الأخبار».

«لا، لم نصدر الإعلان بعد. كيف حالك؟».

«بخير، شكراً».

«هل هو معك؟». قال إرلندور بينما كان ينظر إلى رجل يرمي الحصى على سطح البحيرة.

قالت سونا: «أجل، قابلته في الصيف. إذاً، من كان؟ ذاك الذي عثرت عليه في البحيرة؟».

«إنها قصة طويلة».

«ربما سأقرأ عنها في الجرائد».

«ربما».

«حسناً، إلى اللقاء».

قال إرلندور مع ابتسامة: «إلى اللقاء».

راقبها إرلندور وهي تذهب نحو الرجل، ثم وهما يمشيان معاً يداً بيد إلى سيارة مركونة بجانب الطريق، وبعد ذلك انطلقا فيها في اتجاه ريكيافيك.

لفَّ إرلندور معطفه بشدة حوله، ووقف متأملاً البحيرة.

انتهى